



في شرح العروة الوثيقة

في علم الشريعة والطريقة والحقيقة

تأليف

العالم العلامة القاضي جمال الدين الشيخ الإمام

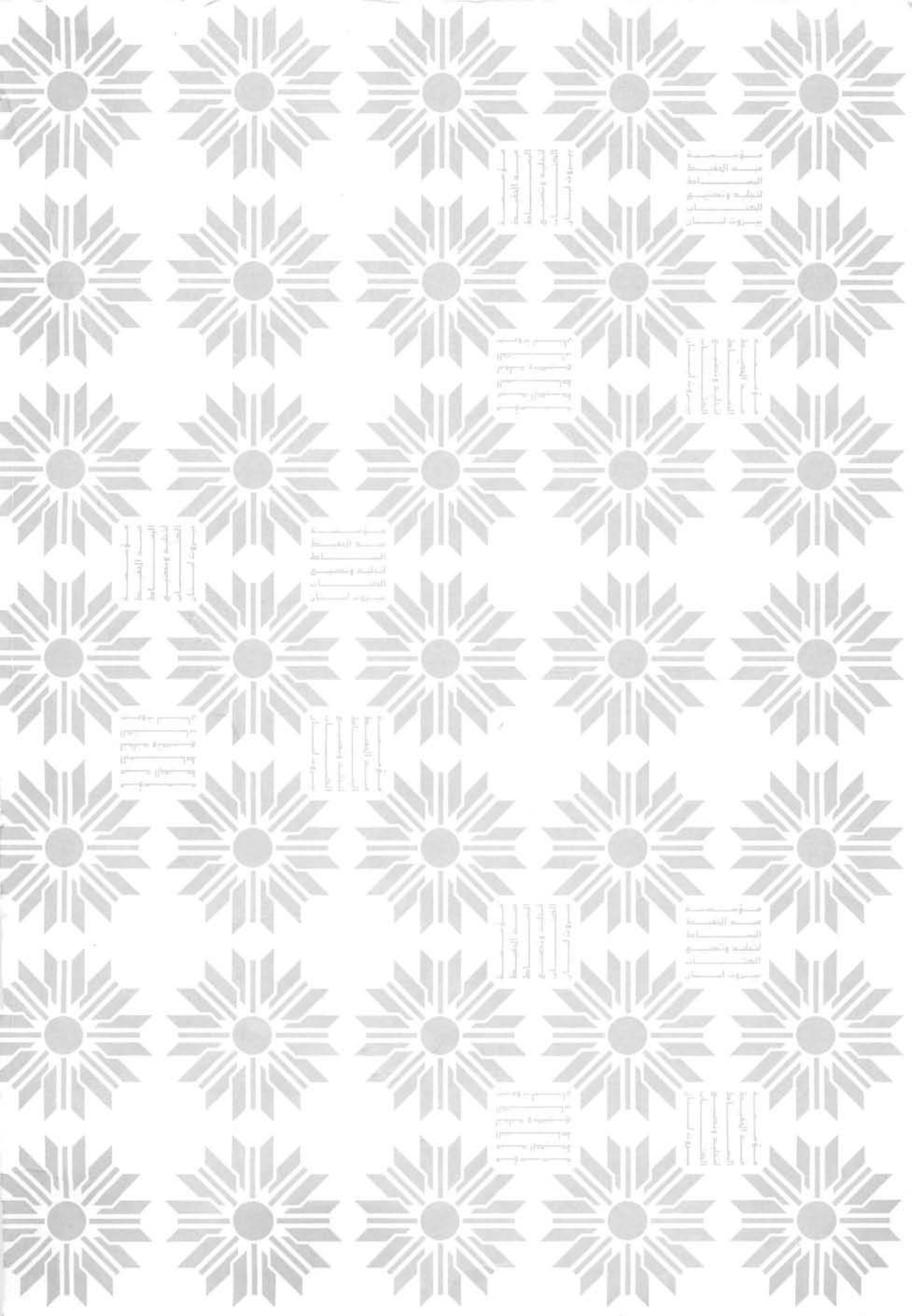
محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي الشافعي

الشهير بـ بحرق

رحمه الله تعالى

٨٦٩ - ٩٣٠هـ





بسم الله الرحمن الرحيم

الحديقة الأنيقة

في شرح العروة الوثيقة

في علم الشريعة والطريقة والحقيقة

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - فاكس (٧٨٦٢٣٠ ١ ٩٦١ +)
دار السنابل دمشق - سورية - هاتف (٢٢٤٢٧٥٣ ١١ ٩٦٣ +)

الحديقة الأنيقة

في شرح العروة الوثيقة

في علم الشريعة والطريقة والحقيقة

تأليف

العالم العلامة القاضي جمال الدين الشيخ الإمام

محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي الشافعي

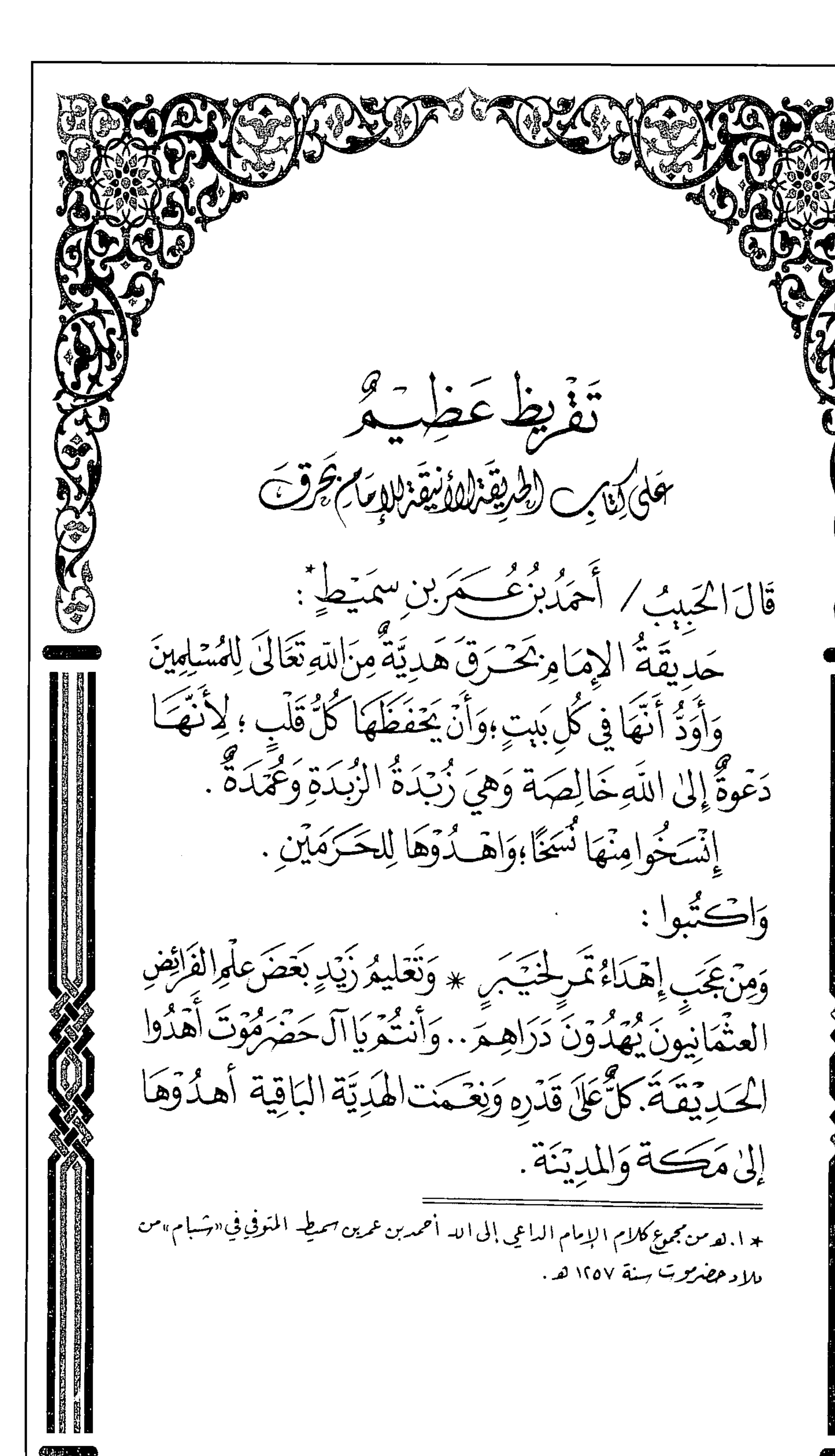
الشهير بـ بحرق

رحمه الله تعالى

٨٦٩ - ٩٣٠هـ

دار الحاوي

دار السنابل



تقريظ عظيمٌ

على كتاب الحديقة الأنيقة للإمام بحرق

قال الحبيبُ / أحمدُ بنُ عُمرَ بن سميطٍ*:

حديقةُ الإمامِ بحرق هديّةٌ من اللهِ تعالى للمسلمين وأَودُّ أنّها في كلِّ بيتٍ، وأن يحفظها كلُّ قلبٍ؛ لأنّها دعوةٌ إلى اللهِ خالصة وهيَ زُبدةُ الزبدةِ وعُمدةٌ.

إنسخُوا منها نُسخًا، واهدُوها للحرمين.

واكتُبوا:

ومن عجبٍ إهداءُ تمرٍ لخيبرٍ * وتعليمُ زيدٍ بعضَ علمِ الفرائضِ

العثمانيون يُهدُون دراهمَ.. وأنتُم يا آل حضرموت أهدُوا الحديقةَ. كلٌّ على قدرِه ونِعمت الهديّة الباقية أهدُوها إلى مكّة والمدينة.

---

* ا.هـ من مجموع كلام الإمام الداعي إلى الله أحمد بن عمر بن سميط المتوفى في «شبام» من بلاد حضرموت سنة ١٢٥٧ هـ.

ترجمة المؤلّف
رحمه الله تعالىٰ
(٨٦٩ ـ ٩٣٠هـ ـ ١٤٦٥ ـ ١٥٢٤م)

اسمه :

هو الشَّيخُ العلاّمةُ المحدِّثُ ، الإمامُ البارعُ ، اللُّغويُّ النَّحْويُّ الأَديبُ ؛ القاضي : جمالُ الدّينِ محمَّدُ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُبارك بْنِ عبدِ الله بْنِ عليٍّ . الحِمْيَريُّ ، الحضرميّ ، الشّافعي . الشَّهير بـ(بَحْرَق) .

مولده :

وُلِدَ ـ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ في ليلة النِّصف من شعبانَ ، سنة تسعٍ وستّينَ وثمانِ مئةٍ بحضرموت .

نشأته وطلبه العلم :

نشأَ ـ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ على أَحسن الأَوصاف والنُّعوت بحضرموت ؛ المشهودِ لها بوفرةِ العلماءِ ورسوخهم في كثيرٍ من فنون العلم ، فحفِظَ القرآنَ العظيمَ و« الجزريّةَ » ومعظَم « الحاوي الصَّغير » و« الشّاطبيَّةَ » ومنظومةَ « البرماوي » الأُصوليّة و« أَلفيَّةَ ٱبنِ مالك » النَّحْوِيَّة . وأَخذ عن الفقيه الشَّيخِ الجليلِ محمَّدِ بنِ أحمدَ باجرفيل الفقهَ .

رحلَ إِلىٰ (الشحر) ، فأَخذ عن العلاّمة الشَّهير عبدِ الله بن عبد الرَّحمن بافضل وقرأ عليه في الفقه وأُصولِهِ .

ثمَّ إِلىٰ بندر (عدن) ، فأَخذ عن عبدِ اللهِ بنِ أَحمدَ بامخرمة الَّذي لازمه ملازمةً تامَّةً حتّىٰ تخرَّج به ، وقرأَ عليه الفقهَ وأُصولَه والعربيَّة ، حتّىٰ كان جلُّ ٱنتفاعه به ، وقرأَ عليه « أَلفيَّةَ ٱبنِ مالك » وجميع « سيرةِ ٱبنِ هشام » وجملةً

صالحةً من « الحاوي الصَّغير » في الفقه ، وسمعَ عليه جملةً من علومٍ شتّىٰ . وأَخذ عن الشَّيخ محمَّدِ بنِ أَحمدَ بافضل ، فقرأ عليه أَيضاً الفقهَ وأُصولَهُ .

ثمَّ ٱرتحلَ إِلىٰ (زبيد) وأَخذ عن علمائها . فأَخذ علمَ الحديث عن المحدِّثِ الشَّيخ زين الدّين محمَّدِ بنِ عبد اللَّطيف الشرجي ، وعلمَ الأُصول عن الفقيه جمالِ الدّين محمَّدِ بنِ أَبي بكرٍ الصّائغ ، وأَخَذَ عنه التَّفسيرَ والحديثَ والنَّحْوَ ، وقرأَ عليه « شرحَ البهجة الورديَّة » لأَبي زرعة . وأَخذ أَيضاً عن السَّيِّد الشَّريف الحسينِ بنِ عبد الرَّحمٰن الأَهدل . وصحبَ الشَّيخَ أَبا بكرٍ العيدروس ، وأَخذ عنه ، وٱنتفعَ به ، وعادت عليه بركَتُهُ .

ثمَّ رحَلَ إِلىٰ (الحرمَيْن) سنة أَربعٍ وتسعينَ وثمانِ مئةٍ ، وأَدّىٰ النُّسكينِ العظيمينِ ، وٱجتمعَ بالحافظ السَّخاويِّ ، وسمعَ منه ، وأَخذَ عنه علمَ الحديث والمصطلح .

مكانته وحياته :

كانَ ـ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ ثقةً ، صالحاً ، حافِظاً للأَحاديث والآثار ، رجّاعاً إِلىٰ الحقِّ ، مُحِبّاً لأَهل العلم ، مُحسِناً إِلىٰ طلبته ، غايةً في الكرمِ ، مُؤْثِراً .

تولّىٰ القضاءَ (بالشحر) ، فكانَ قاضياً عادِلاً تُحْمَدُ أَحكامُهُ . ثمَّ عَزَلَ نفسَهُ ، وقصدَ (عدن) فحصلَ له قبولٌ وجاهٌ عند أَميرها مرجان العامريّ .

ولمّا توفّي الأَميرُ مرجان سنةَ سبعٍ وعشرينَ وتسع مئةٍ قصدَ (الهندَ) ، فوفدَ علىٰ سُلطانها مظفَّر شاه أَحمدِ بنِ محمود بايقرا (الكَجراتي) . فقرَّبَهُ السُّلطانُ وأَكرمَهُ وعظَّمَهُ ، وقامَ به وقدَّمَهُ ، ووسَّعَ عليه وٱلتفتَ إِليه ، وأَدناهُ منه وأَخذَ عنهُ ، فٱشتُهِرَ بجاهه . وصنَّفَ للسُّلطان كتاب : « تَبصرةُ الحضرةِ الشّاهيَّةِ الأَحمديَّةِ بسيرةِ الحضرةِ النَّبويَّةِ الأَحمديَّةِ » .

قال السَّخاويُّ في « الضَّوء اللاَّمع » : وصاهرَ صاحبُنا ـ أَي : بحرق ـ حمزةَ النّاشريّ علىٰ ٱبنته وأَولَدها ، وتولَّعَ بالنَّظم أَيضاً ومدحَ ـ السُّلطانَ ـ

عامرَ بنَ عبد الوهّاب حينَ شَرَعَ في بناء مدارس (زبيد) والنَّظر فيها ، فكان من أَولها فيما أَنشدنيه حينَ لَقِيْتُهُ (بمكَّة) ، وأَخذ عنّي ، وكانَ قدومه لها ليلةَ الصُّعود ، فحجَّ حجّةَ الإِسلام وأَقامَ قليلاً ، ثمَّ رَجَعَ ـ كان الله له ـ.

فمّما قالَ ـ مادِحاً السُّلطانَ عامرَ بنَ عبد الوهّاب ـ:

أَبـىٰ ٱللهُ إِلاّ أَنْ تَحـوزَ ٱلْمَفـاخِـرا ... فَسَمّـاكَ مِـنْ بَيْـنِ ٱلْبَـرِيَّـةِ عـامِـرا
عَمَرْتَ رُسومَ الدّيْنِ بَعْدَ دُروسِها ... وأَحْيَيْـتَ أَثـارَ الإِلٰـهِ الـدَّواثِـرا
فأَنْتَ صَلاحُ الدِّينِ لا شَكَّ هٰذِهِ ... شَـواهِـدُهُ تَبْـدو عَلَيْـكَ ظَـواهِـرا

قال ـ أَي : السَّخاويُّ ـ وكذا أَنشدني ممّا ٱمتدحَ به المُشارَ إِليه بيتاً هو عشرُ كلماتٍ :

يـا رَبِّ كُـنْ أَبـداً مُعينـاً نـاصِـراً ... شَمسَ الملوكِ صلاحَ دينكَ عامرا

وضمَّنه في أَربعة أَبياتٍ يستخرجُ منها الضَّمير من العشر فقال :

أَيَّـدْتَ دينَـكَ يـا رَبَّ ٱلعُـلا أَبـداً ... بِنـاصـرٍ لِمُلـوكِ ٱلأَرْضِ قَـدْ ضَهَـدا
أَعني بِهِ عامِراً شَمْسَ ٱلمُلوكِ فَكُنْ ... نَصيـرَهُ أَبـداً فـي كُـلِّ مـا قَصَـدا
وَناصِراً وَمُعيناً فَهُوَ شَمْسُ ضُحىً ... أَخفىٰ نُجومَ مُلوكِ ٱلأَرضِ مُنْذُ بَدا
سَمَّيتَـهُ عـامِـراً لَمّـا أَرَدْتَ بِـهِ ... صَلاحَ دينِكَ إِرغـاماً لِمَـنْ جَحَـدا

انتهىٰ كلام السَّخاويّ[١] .

قال عنه العيدروس في « النّور السّافر » : (ما رأيتُ أَحداً من علماء (حضرموت) أَحسنَ ولاأَوجزَ عبارةً منهُ، وله نظمٌ حسنٌ، وهو أَحدُ من جمع بين ديباجتي النَّظم والنَّثر ، فنثرُهُ منثورُ الرّياضِ جادَ بها السَّحائبُ، ونظمُهُ منظومُ العقودِ زانتها النُّحورُ والتَّرائبُ)[٢] .

---

(١) الضْوء اللاَّمع ، ج٨/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .
(٢) تاريخ النّور السّافر عن أَخبار القرن العاشر ، ص١٣٣ .

وهو الَّذي يقولُ هـٰذه الأَبياتَ مُجيباً لبعض الفضلاء المُمْتَحِنِينَ له من أَهل زمانه :

يـا مَـنْ أَجَـادَ غَـداةَ أَنْشَـدَ مِقْـوَلا ... وَأَفـادَ مِـنْ إِحسـانِـهِ وَتَفَضَّـلا

إِنْ كُنْـتَ مُمْتَحِنِـي بِـذاكَ فَـإِنَّنـي ... لَسْـتُ الهَيـوبَـةَ حَيْثُمـا قيـلَ ٱنْـزِلا

وَإِذا تَبـادَرَتِ ٱلجيـادُ بِحَلْبَـةٍ ... يَـوْمَ النِّـزالِ رَأَيْـتَ طَـرْفـي أَوَّلا

قَسَمـاً بِـآيـاتِ ٱلبَـديعِ وَمـا حَـوىٰ ... مِـنْ صَنْعَتَيْـهِ مُـوَشَّحـاً وَمُسَلْسَـلا

لَـو كُنْـتُ مُفْتَخِـراً بِنَظْـمِ قَصيـدةٍ ... لَبَنَيْـتُ فـي هـامِ ٱلمَجَـرَّةِ مَنْـزِلا

مِـنْ كُـلِّ قـافيَـةٍ يَـروقُ سَمـاعُهـا ... وَيُعيـدُ سُحبـانَ الفَصـاحَـةِ بـاقِـلا

وَتَـرىٰ لَبيـدَكُـمُ بَلبيـداً قَلْبُـهُ ... حَصْـراً وَيَنْقَلِـبُ ٱلفَـرَزْدَقُ أَخْطَـلا

وَعَلـىٰ جَـريـرٍ بحـرُ مِطْـرَفٍ تيهنـا ... مُهَلْهَـلاً نُبْـديـهِ نَسْـجَ مُهَلْهِـلا

وَلَئِـنْ تَنَبَّـىٰ ٱبْـنُ ٱلحُسَيْـنِ فَـإِنَّنـي ... سَأَكونُ في تِلْكَ الصِّناعَةِ مُرْسَلا

أَظَنَنْـتَ أَنَّ الشِّعْـرَ يَصْعُـبُ صَـوْغُـهُ ... عِنْـدي وَقَـدْ أَضْحـىٰ لَـدَيَّ مُـذَلَّـلا

أُبدي ٱلعجائِبَ إِنْ بَرَزْتُ مُفاخِراً ... أَو مـادِحـاً لِلْقَـومِ أَو مُتَغَـزِّلا

لَكِنَّنـي رَجُـلٌ أَصـونُ بِضـاعَتـي ... عَمَّـنْ يُسـاوِمُ بَخْسَهـا مُتَبَـذِّلا

وَأَرىٰ مِـنَ ٱلجُـرْمِ ٱلعَظيـمِ خَـريـدةً ... حَسْنـاءَ تُهْـدىٰ لِلَّئيـمِ وَتُجْتَلـىٰ

ما كُنْتُ أَحْسَبُ عَقْرَباً تَحْتَكُّ بِٱلـ ... أَفعـىٰ وَلا جَـذَعـاً يُـزاحِـمُ بُـزَّلا

وَأَنـا ٱلغَـريـبُ وَأَنْـتَ ذاكَ وَبَيْنَنـا ... رَحِـمٌ يَحُـقُّ لِمِثْلِهـا أَنْ تـوصَـلا

ولقد أَجادَ فيها كلَّ الإِجادة ـ ولله درُّهُ ـ ولا يَبْعُدُ أَنَّ براعته في الشِّعر لمعنىٰ إِرثي من إِمامه الشّافعي رضيَ اللهُ عنهُ . انتهىٰ كلام العيدروس(١) .

وقد ذكر له كرامات ومرائي صالحاتٍ لا نطيل بذكرها .

وله مقاطيعُ شعريَّةٌ حسنةٌ ، منها :

أَنـا فـي سَلْـوَةٍ عَلـىٰ كُـلِّ حـالٍ ... إِنْ أَبـانـي الحَبيـبُ أَو إِنْ أَتـانـي

أَغْنَـمُ ٱلـوَصْـلَ إِنْ دنـا فـي أَمـانٍ ... وَإِذا مـا نـأَىٰ أَعِـشْ بِـٱلأَمـانـي

---

(١) تاريخ النّور السّافر عن أَخبار القرن العاشر ، ص١٣٣ ـ ١٣٤ .

وله قصيدةٌ عظيمةٌ سمّاها : « العروة الوثيقة في الجمع بين الشَّريعة والحقيقة » ، أَجاد فيها إِلىٰ الغاية ، وشرحها شرحاً سمّاهُ : « الحديقة الأَنيقة » .

لقد كانَ ـ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ العالِمَ الَّذي يمشي تحتَ عَلَمِ فتياهُ العلماءُ الأَعلامُ وحملة الأَقلام ، وتخضعُ لفصاحته وبلاغته صيارفَةُ النَّثر والنّظام . شيخَ اللُّغة والنَّحوِ والإِعراب ، وعمدةَ الفقهاء في نصوص الشّافعي والأَصحاب .

مصنَّفاته :

صنَّفَ ـ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ مصنَّفاتٍ عديدةٍ في الأُصول والفروع والحديث والسّيرة والعقيدة والنَّحو وفي أَهل الأَحوال . وقد تلقّاها النّاسُ بالقبول نذكر منها :

١ ـ حدائق الأَنوار ومطالع الأَسرار في سيرة النَّبيِّ المختار ، المسمَّىٰ بـ« تبصرة الحضرة الشّاهيّة الأَحمديَّة بسيرة الحضرة النَّبوية الأَحمديّة » (مطبوع) .

٢ ـ أُرجوزة في علم الحساب .

٣ ـ أُرجوزة في علم الطِّبِّ ، وشرحها شرحاً مفيداً .

٤ ـ الأَسرار النَّبويَّة في ٱختصار الأَذكار النَّوويَّة . (مطبوع) .

٥ ـ البهجة في تقويم اللَّهجة .

٦ ـ ترتيب السُّلوك إِلىٰ ملك الملوك .

٧ ـ تحفة الأَحباب في شرح « ملحة الأَعراب » ، للحريري . (مطبوع) .

٨ ـ الحديقة الأَنيقة في شرح العُروة الوثيقة . (مطبوع) .

٩ ـ الحسام المسلول علىٰ مُنتقصي أَصحاب الرَّسول ﷺ . (مطبوع) .

١٠ ـ حلية البنات والبنين وزينة الدنيا والدّين . (مطبوع) .

١١ ـ الحواشي المفيدة علىٰ أَبيات اليافعي في العقيدة . وذكر في كتابه « ترتيب السُّلوك » أَنَّ له علىٰ أَبيات الشَّيخ عبد الله بن أَسعد اليافعي ثلاثة شروح ، بسيط ووسيط ووجيز .

١٢ ـ ذخيرة الإِخوان، (المختصر من كتاب الاستغناء بالقرآن). (مخطوط).

١٣ ـ رسالة في علم الميقات .

١٤ ـ رسالة في الفلك .

١٥ ـ شرح الجزريَّة .

١٦ ـ شرح علىٰ منظومة الشَّيخ أَبي الجبيش الأَندلسي في العروض .

١٧ ـ شرح لامية ٱبن مالك في التَّصريف .

١٨ ـ عقد الدُّرر في الإِيمان بالقضاء والقَدر . (مخطوط) .

١٩ ـ العقد الثَّمين في إِبطال القول بالتَّقبيح والتَّحسين . (مخطوط) .

٢٠ ـ فتح الأَقفال شرح أَبنية الأَفعال .

٢١ ـ فتح الرَّؤوف في معاني الحروف .

٢٢ ـ مختصر الخلاصة لابن مالك ، في عدَّة أهل بدر وشرحه .

٢٣ ـ مختصر نهاية النّاشري في علم القراءات .

٢٤ ـ متعة الأَسماع بأَحكام السَّماع ، (المختصر من كتاب الإِمتاع) .

٢٥ ـ مختصر التَّرغيب والتَّرهيب ، للمنذريّ . (مخطوط) .

٢٦ ـ مختصر شرح لامية العجم ، للصَّفدي . (مطبوع) .

٢٧ ـ مختصر المقاصد الحسنة ، للسَّخاويّ .

٢٨ ـ مواهب القدّوس في مناقب العيدروس .

٢٩ ـ النّبذة المختصرة في معرفة الخصال المكفِّرة للذُّنوب المقدّمة والمؤخّرة .

٣٠ ـ النّبذة المنتخبة من كتاب الأَوائل ، للعسكريّ .

لعلّ هٰذه المصنّفات هيَ الأَشهر .

وبالجملة : فجميعُ مؤلَّفاته رائقةٌ حسنةٌ ، محرَّرةٌ منقَّبةٌ مستحسنةٌ ، ولهٰذا تداولها أَبناء الزَّمان ، وتناقلها المشاة والرّكبان ، وعُقدت عليها الخناصر ، وٱنعطفت عليها الأَواصر .

وفاته :

قال العيدروس في « النّور السافر »[1] : حُكي أَنَّه مات بالسّمّ ، وسببُ ذٰلكَ أَنَّهُ حظيَ عند السُّلطان إِلىٰ الغاية ، فحسدَهُ الوزراء علىٰ ذٰلكَ ، فوقعَ منهُم ما أَوجبَ لَهُ الشَّهادةَ ، وناهيكَ بها من سعادة .

ومِنْ أَحسنِ ما قيلَ فيه هٰذا البيتُ لبعضهم يمدحُهُ :

لأَيِّ ٱلمَعاني زِيدتِ ٱلقافُ في ٱسْمِكُمْ   وَمـا غَيَّـرتْ شَيْئـاً إِذا هِـيَ تُـذْكَـرُ

لأَنَّـكَ بَحْـرُ العِلْـمِ وَٱلبَحْـرُ شَـأْنُـهُ   إِذا زيـدَ فيـهِ الشَّـيْءُ لا يَتَغَيَّـرُ

ومثلُهُ قولُ الآخَرِ فيه أَيضاً :

فَـأَنْـتَ بَحْـرٌ وَقـافٌ مـا لَـهُ طَـرَفٌ   مُحَمَّدٌ ٱسْمُكَ ٱلمَعْروفُ مَوصوفا

سَمِيُّ خَيْرِ الأَنامِ الطّهرِ مِنْ مُضَرٍ   يَهْنَـاكَ يَهْنَـاكَ هٰـذا ٱلفَخْـرُ تَشْـريفـا

عاشَ ـ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ـ إِحدىٰ وستّينَ سنةً ، وٱنتقلَ إِلىٰ جوار ربّه ليلةَ العشرين من شعبانَ سنةَ ثلاثين وتسعِ مئةٍ (بكجرات) ، فشيَّعَهُ خلقٌ كثيرٌ ، ودُفِنَ في مدينة (أَحمد آباد) .

تغمَّده اللهُ بالرَّحمة والرِّضوان ، وأَسكنَهُ فسيحَ الجِنان .

* * *

(١) تاريخ النّور السّافر عن أَخبار القرن العاشر ، ص١٤٠ .

وَصفُ النُّسَخ الخَطِّيَّةِ

اعتمدنا في إخراج هذا الكتاب على نسختين خطيتين :

النسخة الأولى : نسخة مكتبة الأحقاف بحضرموت

وهي نسخة كاملة ، عدد أوراقها (١٤٠) ورقة ، عدد أسطر الصحيفة الواحدة (١٨) سطراً ، متوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (٨) كلمات ، خطها نسخي معتاد .

كان الفراغ من نسخها عشية الأحد (٣) محرم (١٢٥٦هـ) على يد عوض بن سالم بن زين عفا الله عنه .

النسخة الثانية : نسخة مكتبة الأحقاف بحضرموت ، تقع ضمن مجموع رقمه (٣٠٤٢) .

وهي نسخة كاملة أيضاً ، عدد أوراقها (١٦٥) ورقة ، عدد أسطر الصحيفة الواحدة (٢٠) سطراً ، متوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (٨) كلمات ، خطها نسخي معتاد ، وكان الفراغ من نسخها بكرة الخميس (٧) محرم (١٣٠٦هـ) .

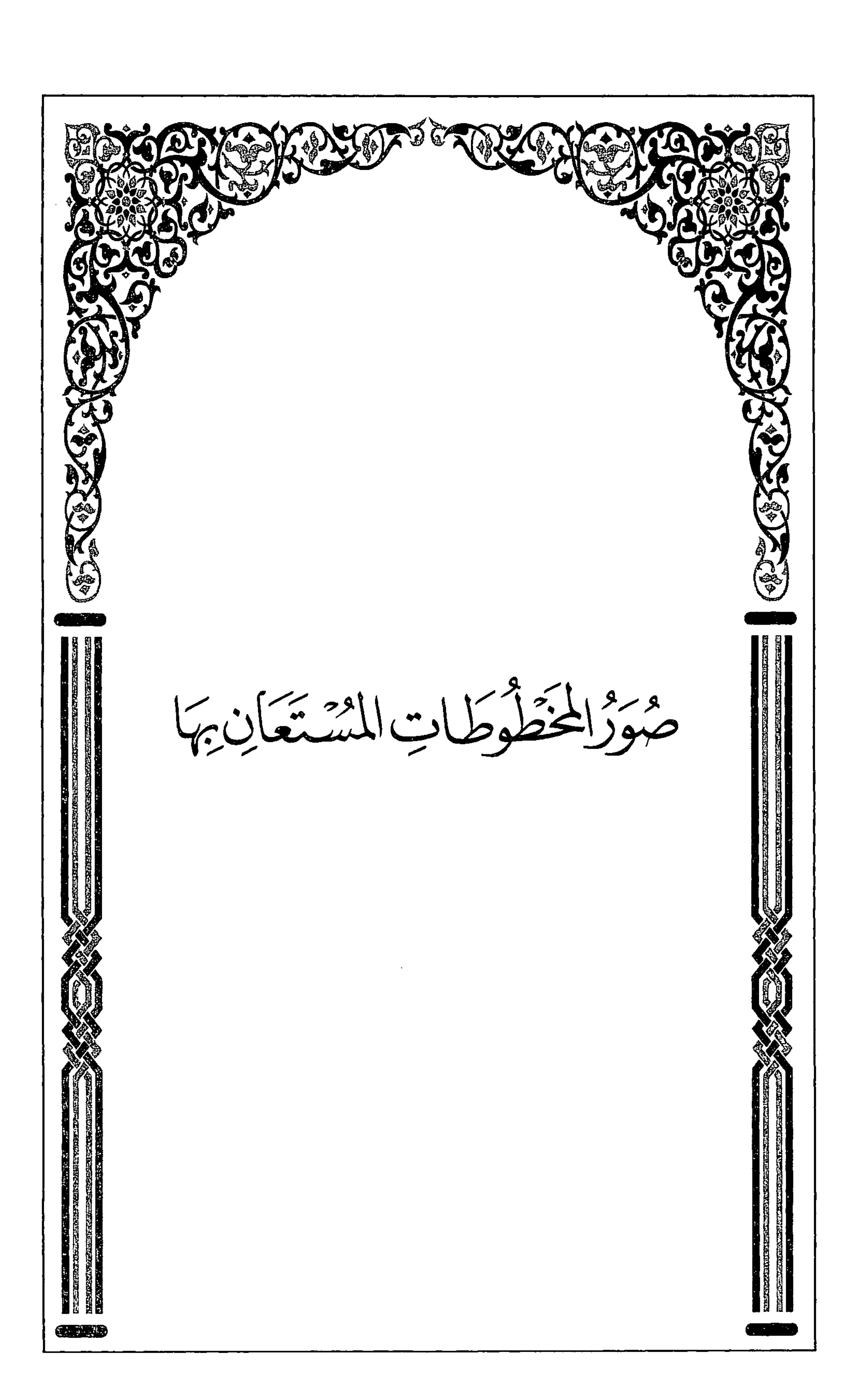
* * *

مَنهَجُ العَمَلِ في الكِتَابِ

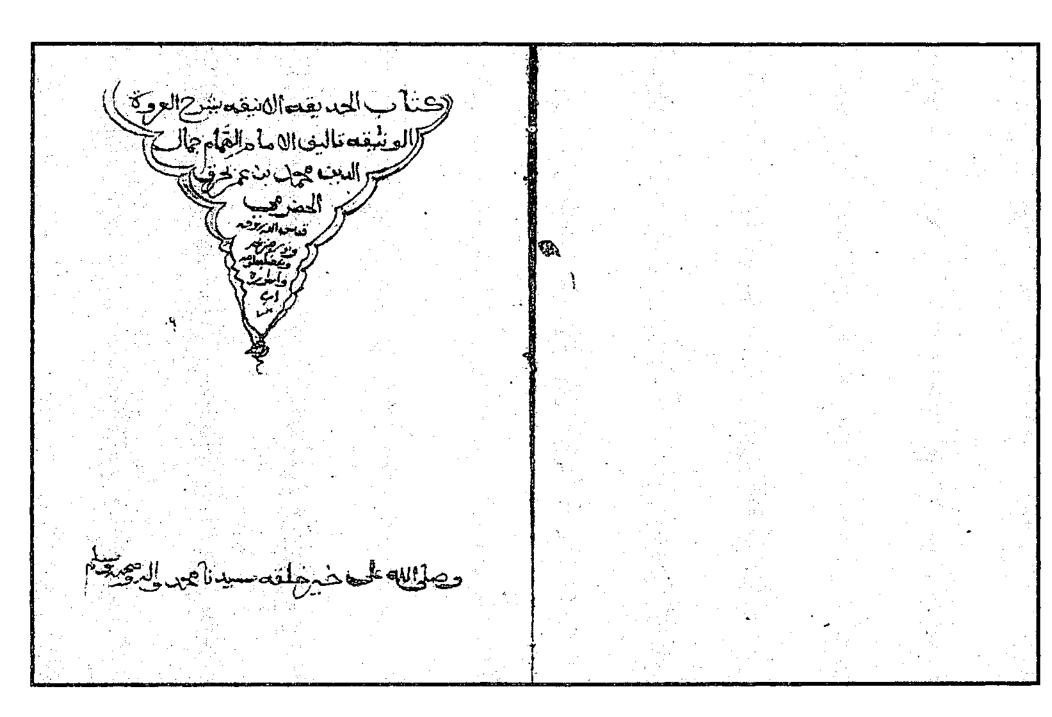
- عارضنا الكتاب على النسختين الخطيتين .
- جعلنا منظومة « العروة الوثيقة » أول الكتاب .
- شكلنا المنظومة بالشكل الكامل .
- زينا الكتاب بعلامات الترقيم المناسبة .

وبعد : فهذا جهد المقلِّ ، إن كنا قد وفقنا فمن الله ، وإن كان غير ذلك . . فمن أنفسنا ، ونسأل الله القبول والتوفيق والسداد ، إنه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊



صُوَرُ المخطُوطاتِ المُستَعانِ بها



كتاب الحديقة الانيقة بشرح العروة الوثيقة تاليف الامام الهمام جمال الدين محمد بن عمر بحرق الحضرمي

وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

لوحة ورقة العنوان للنسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم وبه
نستعين الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم
الذي خلق الانسان من طين وعدله في احسن
تقويم وفضله على ساير الحيوان بالتكريم ثم
منّ على من سبقت له منه العناية في العلم القديم
بالهداية الى الصراط المستقيم واورث من اصطفاه
من عباده حفظ كتابه العظيم وفهم معاني
الآيات والذكر الحكيم ووفق من اراد به خيرا
للتفقه في الدين القويم ورفع درجة اهل العلم
والتعليم على ساير عباده وفوق كل ذي علم عليم
واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له الفتاح العليم القايل شهد الله انه لا اله
الا هو والملائكة واولوا العلم قايما بالقسط لا اله
الا هو العزيز الحكيم هو الاول والآخر والظاهر والباطن
وهو بكل شيء عليم واشهد ان محمدا عبده
ورسوله الشريف الكريم ورسوله الرؤف الرحيم
الداعي الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وانه
لعلى خلق عظيم المبعوث متمما لمكارم الاخلاق
الحميدة

الحميدة ناهيا عن كل خلق ذميم المؤتى جوامع الكلم
الشافية لكل قلب سقيم صلى الله وسلم عليه وعلى
اله واصحابه بافضل الصلوة والتسليم اما بعد فان
الجهل وان كان قبيحا فهو بولاة الامر اقبح والعلم
وان كان حسنا مطلقا فهو بذوي الرياسات اصلح
لانهما انتظام الدين والدنيا وعليهما المعول في صلاح
امر الآخرة والاولى وضرر هو يعم نفعه ويعظم وقعه
وبالعلم يعرفون منزلة العلم والعلما وقيمة الفضل والفضلا
فان من جهل شيا عاداه ولا يعرف الفضل لاهل الفضل
الا اهل الفضل فمن سبقت له من الله تعالى عناية
الاسعاد وجرى له قلم القدر السابق بالهداية
والارشاد ايقظه من سنة الغفلة والجهالة وانقذه
من غمرة الحيرة والضلالة فشمر في طلب العلم وتحصيله
واستشرف الى معرفة فروعه واصوله وقد اتفقت ادلة
العقل والنقل بانه لا فضيلة اسنا من العلم ولا رذيلة
ادنى من الجهل فاولى الناس باكتساب الفضايل
واقتناء المكارم والوسايل واجتناب القبايح والرذايل
ارباب الولايات والمناصب وذوو الهيبات والمراتب

لوحة الورقة الأولى للنسخة الأولى

قلب رجل حتى يحكم الله ورسوله رواه الإمام أحمد والحاكم
وصحبه وأصحابه صلى الله عليه وسلم كل مؤمن اجتمع به
صلى الله عليه وسلم ولو ساعة فهو صحابي فهم طبقات أفضلهم
الخلفاء الأربعة كما سبق ثم تمام العشرة ثم بقية أهل
بدر ثم أهل بيعة الرضوان وأجمع أهل السنة على أنهم
رضي الله عنهم عدول بأجمعهم وأن كلا منهم على هدى
من ربه لأن الله سبحانه زكاهم وأثنى عليهم وكذلك
رسوله صلى الله عليه وسلم ولأنهم الذين نقلوا إلى
كافة الأمة القرآن والحديث وبهم عرف الإسلام والإيمان
والصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك من قواعد
الدين وشرائع الأحكام ومتى تطرق القدح إلى عدالتهم
ردت شهاداتهم وانخرمت عدالتهم وأفضى ذلك إلى هدم
قواعد الدين من أصله ويأبى الله إلا أن يظهر دينه
على الدين كله وقد سبق ذكر طرف من ثناء الله
تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم رضي الله
عنهم أجمعين وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين
وعنا ومن والدينا وعن مشايخنا في الدين وعن سائر
المسلمين آمين آمين تم الشرح المبارك
... تعالى وحسن توفيقه ... في شهر
محرم عاشوراء ... سنة ١٢٥٦
وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

لوحة الورقة الأخيرة للنسخة الأولى



لوحة ورقة العنوان للنسخة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم الذي
خلق الإنسان من طين وعدله في أحسن
تقويم وفضله على سائر الحيوان بالتكريم
ثم على من سبقت له منه العناية في العلم القديم
بالهداية إلى الصراط المستقيم وأورثهم اصطفاه
من عباده حفظ كتابه العظيم وفهم معاني
الآيات والذكر الحكيم ووفق لمن أراد به خيرا
للتفقه في الدين القويم ورفع درجة أهل العلم
والتعليم على سائر عباده وفوق كل ذي علم
عليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
الفتاح العليم القائل شهد الله أنه لا إله إلا هو
والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو
العزيز الحكيم هو الأول والآخر والظاهر والباطن
وهو بكل شيء عليم وأشهد أن محمدا عبده
ورسوله الشريف الكريم رسوله الرؤوف الرحيم
الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة
وأنه لعلى خلق عظيم المبعوث متمما لمكارم الأخلاق
الحميدة ناهيا عن كل خلق ذميم المؤتى جوامع
الكلم

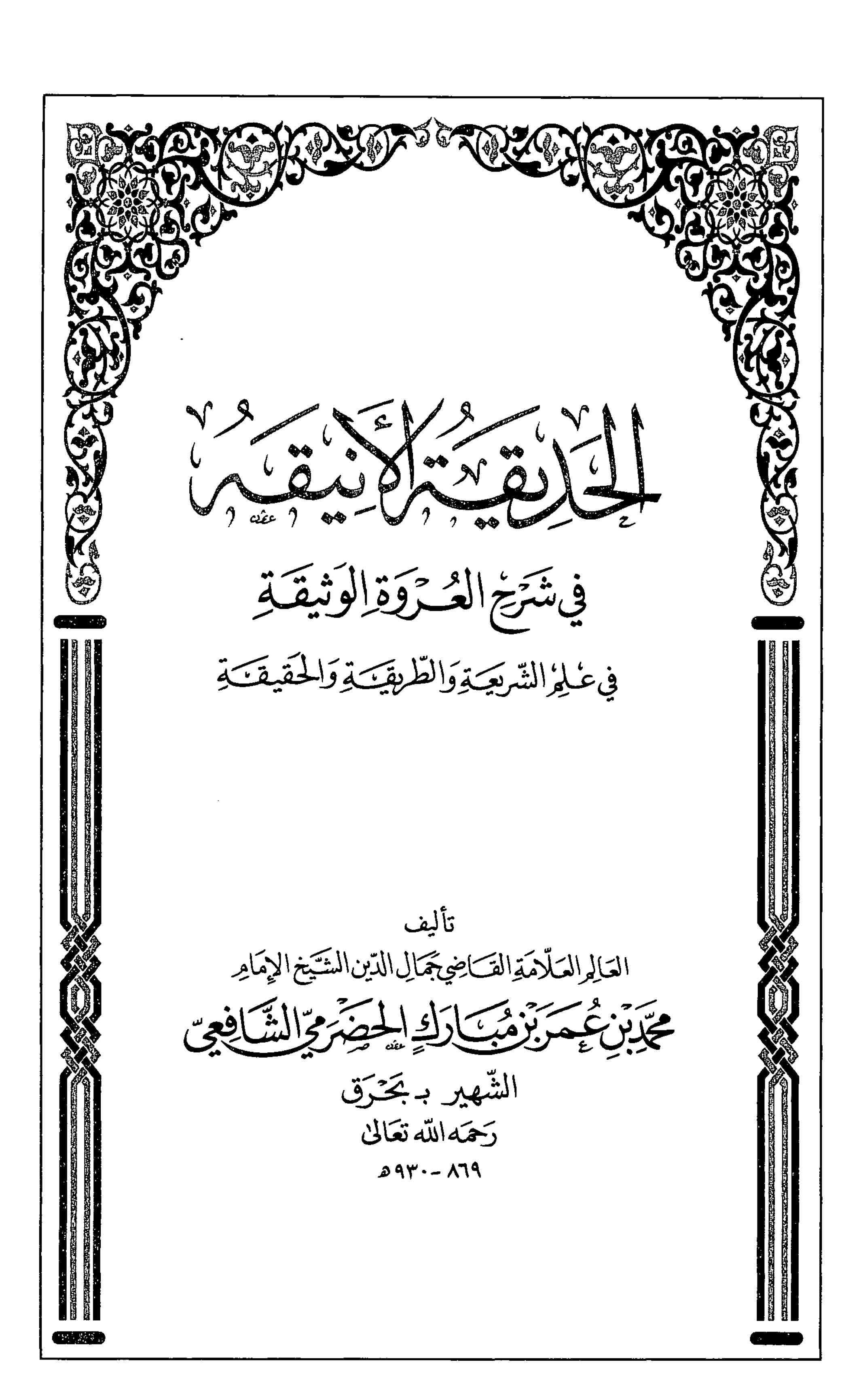
الكلم الشافية لكل قلب سقيم صلى الله وسلم
عليه وعلى آله وأصحابه بأفضل الصلاة والتسليم
أما بعد فإن الجهل وإن كان قبيحا بولاة
الأمر أقبح والعلم وإن كان حسنا مطلقا فهو
بذوي الرياسات أصلح لأن بهم انتظام الدين
والدنيا وعليهم المعول في صلاح أمر الآخرة والأولى
وخيرهم يعم نفعه ويعظم وقعه وبالعلم يعرفون
منزلة العلم والعلماء ومحبة الفضل والفضلاء
فإن من جهل شيئا عاداه ولا يعرف الفضل إلا أهل
الفضل فمن سبقت له من الله عناية الإسعاد
وجرى له قلم القدر السابق بالهداية والإرشاد
أيقظه من سنة الغفلة والجهالة وأنقذه من
غمرة الحيرة والضلالة فشمر في طلب العلم وتحصيله
واستشرف إلى معرفة فروعه وأصوله وقد
اتفقت أدلة العقل والنقل بأنه لا فضيلة
أسنى من العلم ولا رذيلة أدنى من الجهل وأولى
الناس باكتساب الفضائل واقتناء المكارم
والوسائل واجتناب القبائح والرذائل أرباب
الولايات والمناصب وذوو الهيئات والمراتب

بعد [illegible]

لوحة الورقة الأولى للنسخة الثانية

عليه وسلم في حديث وأهل بيتي أذكركم
الله في أهل بيتي كررها ثلاثا رواه مسلم
وغيره وقال صلى الله عليه وسلم أحبوا أهل
بيتي أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وقال
صحيح على شرط البخاري ومسلم وقال صلى الله
عليه وسلم للعباس رضي الله عنه والذي نفسي
بيده لا يدخل الإيمان قلب رجل حتى يحبكم لله
ولرسوله رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه
وأصحابه صلى الله عليه وسلم كل من اجتمع به
صلى الله عليه وسلم ولو ساعة فهو صحابي
وهم طبقات أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم بقية
تمام العشرة ثم بقية أهل بدر ثم
أهل بيعة الرضوان وأجمع أهل السنة رضي الله
عنهم على أنهم عدول جميعهم وأن كلا منهم
على هدى من ربه لأن الله سبحانه وتعالى زكاهم
وأثنى عليهم وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم
ولأنهم الذين نقلوا إلى الأمة القرآن والحديث
وبهم

وبهم عرف الإسلام والإيمان والصلاة والزكاة
والحج والصيام وغير ذلك من قواعد الإسلام
وشرائع الأحكام ومتى تطرق القدح إلى عدالتهم
ردت شهاداتهم وأخرجت عدالتهم وأفضى ذلك
إلى هدم قواعد الدين من أصله وبالجملة فالطعن فيهم
طعن في الدين كله وقد تم ما قصدنا ذكره فرحمنا الله
تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين
اللهم ارض عنهم أجمعين وعن التابعين لهم بإحسان
إلى يوم الدين وعنا وعن والدينا وعن مشايخنا في
الدين وعن سائر المسلمين أجمعين آمين اللهم آمين
تم الكتاب بعون الملك الوهاب
والله الموفق للصواب وكان
الفراغ بكرة الخميس ٧ في
محرم سنة ١٣٠٦ ام
[illegible]
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
رحم الله من قرأ له



الحديقة الأنيقة

في شرح العروة الوثيقة

في علم الشريعة والطريقة والحقيقة

تأليف

العالم العلامة القاضي جمال الدين الشيخ الإمام

محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي الشافعي

الشهير بـ بحرق

رحمه الله تعالى

٨٦٩ - ٩٣٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

[مُقدّمة المؤلّف]

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، الذي خلق الإنسان من طين ، وعدَّله في أحسن تقويم ، وفضَّله علىٰ سائر الحيوان بالتكريم ، ثم منَّ علىٰ من سبقت له منه العناية في العلم القديم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وأورث من اصطفاه من عباده حفظ كتابه العظيم ، وفهم معاني الآيات والذكر الحكيم ، ووفَّق مَنْ أراد به خيراً للتفقه في الدين القويم ، ورفع درجة أهل العلم والتعليم علىٰ سائر عباده ، وفوق كلِّ ذي علم عليم .

وأشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له ، الفتاح العليم ، القائل : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وأشهد أن محمداً عبده الشريف الكريم ، ورسوله الرؤوف الرحيم ، الداعي إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأنه لعلىٰ خلق عظيم ، المبعوث متمماً لمكارم الأخلاق الحميدة ، ناهياً عن كل خلق ذميم ، المؤتَىٰ جوامع الكلم الشافية لكل قلب سقيم ، صلى الله عليه وسلم وعلىٰ آله وأصحابه بأفضل الصلاة والتسليم .

أما بعد :

فإن الجهل وإن كان قبيحاً . . فهو بولاة الأمر أقبح ، والعلم وإن كان حسناً مطلقاً . . فهو بذوي الرياسات أصلح ؛ لأن بهم انتظام الدين والدنيا ، وعليهم المعَوَّل في صلاح أمر الآخرة والأولىٰ ، وخيرهم يعم نفعه ، ويعظم وقعه ،

وبالعلم يعرفون منزلة العلم والعلماء ، وقيمة الفضل والفضلاء ؛ فإنَّ مَنْ جَهِلَ شيئاً . عاداه ، ولا يَعْرِف الفضلَ لأهل الفضلِ إلا أهلُ الفضل .

فمن سبقت له من الله تعالىٰ عناية الإسعاد ، وجرىٰ له قلم القَدَر السابق بالهداية والإرشاد . . أيقظه من سِنَة الغفلة والجهالة ، وأنقذه من غمرة الحَيْرة والضلالة ، فشمَّر في طلب العلم وتحصيله ، واستشرف إلىٰ معرفة فروعه وأصوله .

وقد اتفقت أدلة العقل والنقل علىٰ أنه لا فضيلة أسنىٰ من العلم ، ولا رذيلةَ أدنىٰ من الجهل ، فأولى الناس باكتساب الفضائل ، واقتناء المكارم والوسائل ، واجتناب القبائح والرذائل ، أربابُ الولايات والمناصب ، وذوو الهيئات والمراتب ، فكما رفعهم الله فوق عباده بالأمر والتمكين ، ورضي لهم السيادة علىٰ كافة الخلق أجمعين . . لا ينبغي لهم أن يرضَوا لأنفسهم بالجهل بعلوم الدين ، والردِّ إلىٰ أسفل السافلين .

وكما أن العلم يرفع درجة العبد المملوك إلىٰ مراتب الملوك . . فالجهل يرد الحر النسيب إلىٰ منزلة مَن لا خلاق له ولا نصيب ، كما قيل :

تعلَّم فليس المرءُ يولد عالما   وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
وإن كبيرَ القومِ لا علمَ عنده   صغيرٌ إذا التفَّت عليه المحافلُ

ثم إن السبب الذي ألجأ الولاة والرؤساء إلى الرضا بالجهل الذي هو أقبح الأشياء : إهمالهم لطلب العلم في الصغر ، وصعوبته عليهم بعد الولاية والكبر ، كما قيل :

إذا المرءُ أعيته السيادةُ ناشئاً   فمطلبُها كهلاً عليه عسيرُ

وإذا كان الدين النصيحة لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين ، كما قال سيد الأنبياء والمرسلين . . فقد رأيت من النصيحة اقتناص قلوب نجباء الأبناء ، من الولاة والمشايخ والرؤساء بنظم قصيدة فريدة ، غريبة وحيدة ، صغيرة كبيرة ، قليلة كثيرة ، مشتملة علىٰ أصول الحِكَم والأحكام ، مشيرة إلى

الأحاديث التي عليها مدار الإيمان والإسلام ، لم يسبقني إلى اختراعها إنسان ، ولم يطمثها إنس قبلي ولا جان ، غريبة في أسلوبها ، عجيبة في ترتيبها ، هادية لمقتفيها مَهْدِيَّة ، كما قلت فيها :

حَوَتْ حِكَماً وَأَحْكَاماً وَعِلْمَا   وَمَوْعِظَةً وَآدَاباً وَنَظْمَا
تَرُوقُ ٱلسَّمْعَ مِنْ حَضَرٍ وَبَادِي

ثم وضعت عليها هٰذا الشرح ، شارحاً لما صَرَّحَتْ به من العبارات ، مصرحاً بما لوَّحَتْ إليه من الإشارات ، مكملاً لما فُصِّل فيها بالحجة والدليل ، مفصلاً لما أُجمل فيها بصورة التمثيل ، فاتحاً له بالآيات القرآنية ، موَشِّحاً له بالأحاديث النبوية ، خاتماً له بتهذيب الأخلاق النفسانية ، والأسرار اللدنية .

فجاء بحمد الله كتاباً مغنياً عن حمل جُمَلٍ من الأسفار ، كافياً لمن عرف قدره في الإقامة والأسفار ، جامعاً لأصول الشريعة والطريقة والحقيقة ، ملقَّباً بـ :

« الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة »

منادياً بلسان حاله كلَّ ذي خِيم[1] سليم : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

* * *

(١) الخِيْم : الطبع .

عُنوانُ الكِتَابِ

اِعلم : أن القصيدة المذكورة مبنية علىٰ مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة . . ففيها فصلان :

فصل في الموعظة ، **وفصل** في الوصية .

وأما الأبواب . . فمُرتبة على الأعداد العشرة ، فنذكر في باب الواحد : الأمر بخصلة واحدة جامعة ، أو النهي عنها ، وفي باب الاثنين كذلك . . . وهٰكذا إلىٰ باب العشرة ، ففيه الأمر بعشر خصال ، أو النهي عنها .

وأما الخاتمة . . ففيها ثلاثة فصول :

فصل في إهداء القصيدة والحث على التزامها ، **وفصل** في الدعاء ، **وفصل** في الصلاة على النبي وآله وصحبه ، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين .

وفي كل فصل منها أو باب ثلاثة أبيات لا غير ، وكل بيت مسجَّع ثلاثَ سجعات ، فجملة فصولها خمسة ، وأبوابها عشرة ، وأبياتها خمسة وأربعون بيتاً .

وأما الشرح . . فقد اشتمل من (علم أصول الدين) علىٰ فصول منها :

ـ **فصل** في العلم بالله تعالىٰ ، وذلك قسمان :

قسم في سلب صفات النقص عن الباري تعالىٰ ، وهو تنزيهه سبحانه عن الكيف والزمان والمكان ، ومشابهة ما تُصُوِّرَ في البال ، وعن الشبيه والشريك والولد والوالد والصاحبة ، وعن العرَض والجسم والجوهر ، وعن كل نقص مطلقاً .

وقسم في إثبات صفات الكمال له سبحانه وتعالىٰ : من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام .

ـ **وفصل** في الإيمان بالملائكة عليهم السلام ، والعلم بصفاتهم وطبقاتهم .

ـ **وفصل** في الإيمان بكتب الله تعالىٰ إجمالاً وتفصيلاً .

ـ **وفصل** في الإيمان برسل الله تعالىٰ ، ومعجزاتهم عليهم السلام .

ـ **وفصل** في الإيمان باليوم الآخر : من القبر والحشر والميزان ، والصراط ، والحوض ، والجنة والنار والرؤية للأبرار والشفاعة بأقسامها .

ـ **وفصل** في الإيمان بالقدَر خيره وشره ، وأن جميع الكائنات واقعة بخلق الله وإيجاده وقضائه ومشيئته .

ـ **وفصل** في تفضيل الخلفاء الأربعة ، وترتيبهم في الفضل ، وفضل سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

ومن (علم الأحكام) علىٰ فصول : في أحكام الوضوء وفضله ، وأحكام الصلاة وفضلها والمحافظة عليها ، والتحذير من تضييعها ، وأحكام الزكاة ، وأحكام الصيام ، وأحكام الحج ، وفضل الذكر ، وفضل أذكار الصباح والمساء ، وفضل العلم وأهله ، وفضل الدعاء ، وفضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن (علم الآداب والمعاشرة) علىٰ فصول : في ذم البخل وسوء الخلق ، ومدحِ السخاء وحسن الخلق ، وفضل صلة الرحم وإن قطعت ، والإحسانِ إلىٰ من أساء ، والعفوِ عمن ظلم ، ومدحِ الصدق ، والوفاءِ بالوعد ، وأداءِ الأمانة ، وذمِّ الكذب ، والخُلْفِ والخيانة ، وذمِّ اتباع الهوىٰ ، والحثِّ على اتباع السنة ، وفي حقوق المسلم على المسلم : من رد السلام ، وإجابة الداعي ، وتشميت العاطس ، وعيادة المريض واتباع الجنازة ، والنصيحة لكل مسلم ، وفي حقوق من يُدلي بسبب زائد على الإسلام : من ولادة أو قرابة أو نكاح أو ملك يمين أو جوار أو صحبة ، وفي فضل الإمام العادل ، وفي اتخاذ الإخوان في الله ، وفي التحذير من الزنا وارتكاب المحرمات ، وتطفيف الكيل والميزان ، والجَور في الأحكام ، ونقض العهد ، وفضل الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحذير من تركهما .

ومِن (علم الطريقة) علىٰ تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة : من شرَه[1] الطعام ، وشره الكلام ، والغضب ، والحسد ، والبخل ، وحب الجاه ، وحب الدنيا ، والكِبْرِ والعجب والرياء ، وتحليته بالأخلاق المحمودة : من التوبة ، والخوف ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والرضا ، وذكر الموت .

وفيه من (علم الحقيقة) سرُّ الجوع ، وسر الزهد ، وسر الذكر ، وسر الطهارة ، وسر الصلاة ، وسر الزكاة ، وسر الصوم ، وسر الحج ، وسر العلم والعمل به ، وسر اتباع السنة ، وسر الاعتبار بما في القرآن من القصص والأخبار .

وفيه من الحكم والمواعظ والاتعاظ بالموت وبالشَّيب ، وفضيلة قصر الأمل ، وفضيلة التقوىٰ ومقاماتها ، ومراتب الورع ، والمبادرة إلى العمل الصالح ، والتحذير من تضييع العمر بغير عمل ، أو أن يعلمَ ولا يعملَ بعلمه ، إلىٰ غير ذلك مما تضمنته القصيدة تصريحاً وتلويحاً .

واعلم : أن القصيدة تضمنت الإشارة إلىٰ خمس آيات كريمة ، وعشرين حديثاً نبوياً غير المقدمة والخاتمة ، والاعتبار بقصة أهل الكهف ، والعشر الصفات المذمومة ، والعشر المحمودة .

ثم اشتمل شرحها علىٰ نحو مئتي آية كريمة ، ونحو أربع مئة حديث شريف غير ما وراء ذلك من الحِكَم والمواعظ والآداب والأخلاق والأسرار والأشعار ، فمن أحاط علماً بما فيه . . كان من العلماء بالله ، والعلماء بأحكام الله ، والعلماء بالنفس ، والعلماء بالخلق ، والعلماء بالدنيا ، والعلماء بالآخرة .

ومثلُ هـٰذه العلومِ هي العلوم النافعةُ في الدنيا والآخرة .

---

(١) الشَّره : غلبة الحرص وشدته .

واعتمادي فيما أنقله من الأحاديث النبوية علىٰ « رياض الصالحين » ، و « الأذكار » للشيخ محيي الدين النوَوِيّ ، و« الترغيب والترهيب » للحافظ عبد العظيم المنذري ، و « بلوغ المَرام » لشهاب الدين ابن حجر [العسقلاني] ، رحمة الله عليهم .

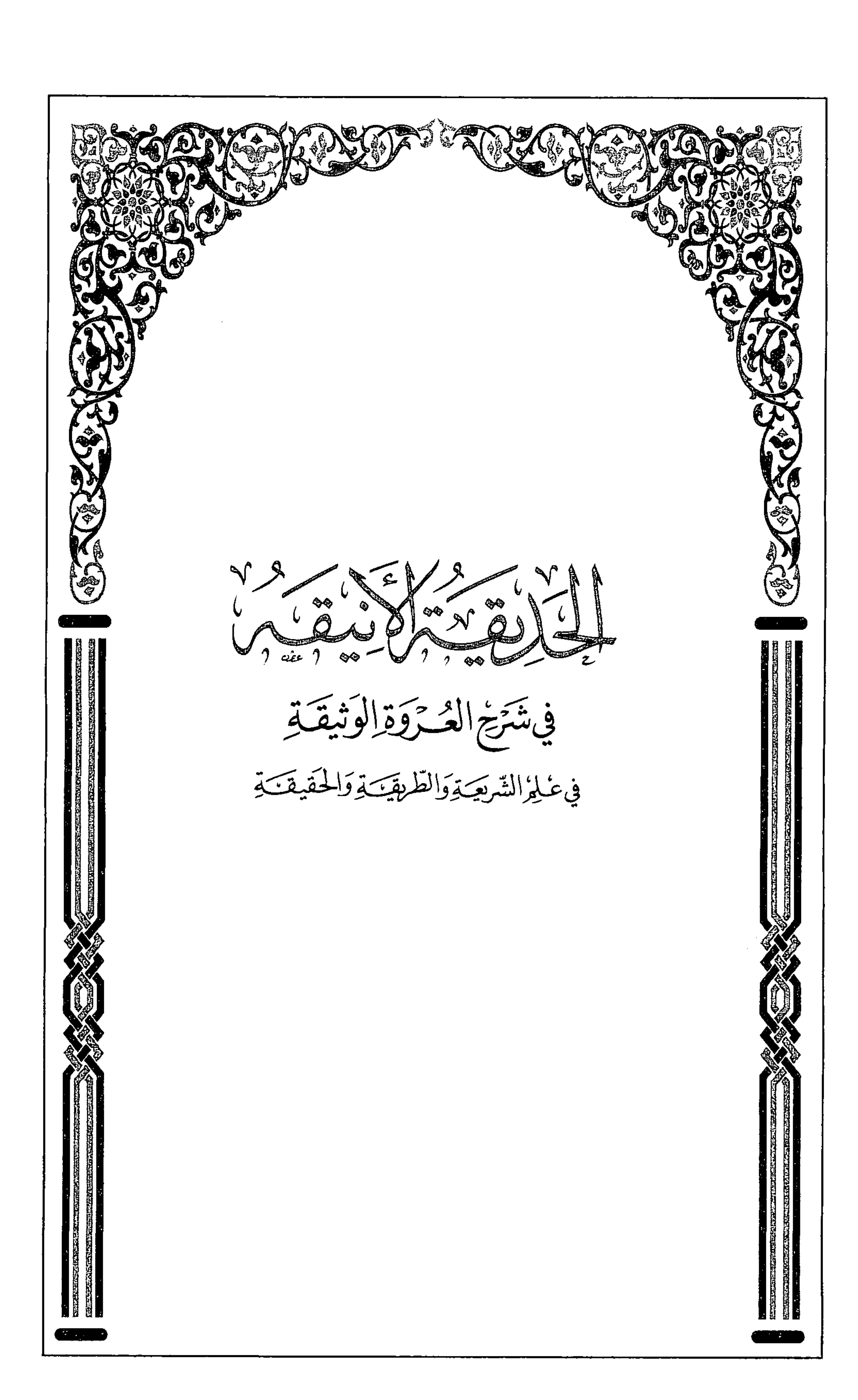
وما عزوته من تصحيح أو تحسين أو تقوية أو جودة ونحوها . . فعنهم أخذته ، وما أطلقته عن التقييد بصحة أو حسن أو ضعف ؛ فلقصوره عن رتب القوة ، وذلك قليل .

وما أوردته من علوم الطريقة وأسرار الحقيقة . . فعمدتي في ذلك كتب الإمام حجة الإسلام الغزّالي رحمه الله .

فتارة أصرح بالعزو إليه ، وتارة أترك ذلك لتصرُّفي في كلامه بتقريب إلى الأفهام ، أو تقديم أو تأخير أو اختصار لمناسبة ما أنا بصدده ، وليس لي في ذلك غالباً إلا الوضع والترتيب والتوضيح ـ علىٰ قدر فَهمي ـ والتقريب ، وما أنا إلا كحامل رسالة من قوم إلىٰ قوم ، و« رب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه » وإلى الله سبحانه أرغب ، ونتوجه إليه بأوجَهِ الخلق لديه ، وأكرم الشفعاء عليه ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم ، ومقرِّباً إلىٰ جواره في جنات النعيم ، وأن يعم النفع به لي ولإخواني في الدين ، ولسائر المسلمين ، آمين . . آمين .

* * *

أما القصيدة : فهي هٰذه :



الحديقة الأنيقة

في شرح العروة الوثيقة

في علم الشريعة والطريقة والحقيقة



قصيدة العروة الوثيقة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فصل في الوعظ

إلاَمَ وَقَدْ بَدَتْ سُبُلُ ٱلرَّشَادِ وَنَادَىٰ بِٱلرَّحِيلِ لَكَ ٱلْمُنَادِي
تُسَوِّفُ بِٱلنُّهُوضِ مَعَ ٱلتَّمَادِي

أَغَيّاً بَعْدَ أَنْ وَخَطَ ٱلْمَشِيبُ وَأَخْلَقَ ذَلِكَ ٱلْبُرْدُ ٱلْقَشِيبُ
وَآذَنَ زَادُ عُمْرِكَ بِٱلنَّفَادِ ؟

أَعِدَّ ٱلزَّادَ لِلسَّفَرِ ٱلطَّوِيلِ فَلَيْسَ إِلَى ٱلإِقَامَةِ مِنْ سَبِيلِ
وَمَا يُغْنِي ٱلْقُدُومُ بِغَيْرِ زادِ ؟

فصل في الوصيّة

وَخَيْرُ ٱلزَّادِ تَقْوَى ٱللَّهِ أَوْصَىٰ بِهَا أَدْنَىٰ بَرِيَّتِهِ وَأَقْصَىٰ
وَعَمَّ بِحُكْمِهَا كُلَّ ٱلْعِبَادِ

فَتِلْكَ ٱلرِّبْحُ وَٱلْغُنْمُ ٱلْجَسِيمُ وَتِلْكَ ٱلْكَنْزُ وَٱلْمُلْكُ ٱلْعَظِيمُ
وَتِلْكَ سَبِيلُ أَرْبَابِ ٱلْجِهَادِ

وَهَاكَ إِذَا أَرَدْتَ ٱلإِتِّصَافَا بِهَا حِكَماً مُدَوَّنَةً طِرَافَا
فَأَصْغِ لَهَا بِفَهْمٍ وَٱرْتِيَادِ

بَابُ الوَاحِدِ

فَأَصْلِحْ مُضْغَةً فِي ٱلْجِسْمِ تَقْوَىٰ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ فَفِي ٱلأَخْبَارِ يُرْوَىٰ
صَلاَحُ ٱلْكُلِّ فِيهَا كَالْفَسَادِ

وَحَاذِرْ مِنْ دَسَائِسِ ٱلامْتِلاَءِ فَمَا مَلأَ ٱبْنُ آدَمَ مِنْ وِعَاءِ
أَشَرَّ عَلَيْهِ مِنْ بَطْنٍ بِزَادِ

وَخُذْ بِٱلْعِلْمِ مَعْ حِفْظٍ وَدَرْسِ وَكُنْ مُتَفَقِّهاً فِي ٱلدِّينِ تُمْسِ
عَلَى ٱلشَّيْطَانِ أَعْدَىٰ مَنْ يُعَادِي

بَابُ الاثنَيْنِ

وَبَادِرْ صِحَّةً لَكَ وَٱلْفَرَاغَا فَكَمْ غُبِنَ ٱمْرُؤٌ بِهِمَا فَرَاغَا
وَأَصْبَحَ نَادِماً عِنْدَ ٱلْحَصَادِ

وَفِي ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّةِ إِنْ زَهِدْتَا وَفِيمَا عِنْدَ أَهْلِيهَا ظَفِرْتَا
مِنَ ٱلْمَوْلَىٰ وَمِنْهُمْ بِٱلْوِدَادِ

وَلاَ تَبْخَلْ بِهَا وَتَسُوءَ خُلْقَا فَمَا ٱجْتَمَعَا مَعَ ٱلإِيْمَانِ حَقَّا
وَكُنْ سَمْحاً بِهَا سَلِسَ ٱلْقِيَادِ

بَابُ الثَّلاثَةِ

وَصِلْ وَٱسْمَحْ لِمَنْ أَوْلاَكَ قَطْعَا تَفُزْ بِمَكَارِمِ ٱلأَخْلاَقِ جَمْعَا
وَثَالِثُهَا ٱعْفُ عَنْ ظُلْمِ ٱلْمُبَادِي

وَإِنْ حَدَّثْتَ فَٱصْدُقْ أَوْ وَعَدْتَا فَلاَ تُخْلِفْ بِهِ وَإِذَا ٱئْتُمِنْتَا
فَصُنْ حِفْظَ ٱلأَمَانَةِ بِٱفْتِقَادِ

وَعَاصِ ٱلْمُهْلِكَاتِ أَيِ ٱتِّبَاعَا هَوىً وَٱلْعُجْبَ وَٱلشُّحَّ ٱلْمُطَاعَا
لِتَنْجُوَ بِٱلْفَلاَحِ وَبِٱلرَّشَادِ

بَابُ الأَرْبَعَةِ

وَكُـنْ بِكِتَـابِ عُمْـرٍ ثُـمَّ رِزْقِ وَسَعْيٍ وَٱلَّذِي يُدْنِي وَيُشْقِي
عَلِيمـاً مُـوْقِنـاً بِـالإِعْتِقَـادِ

وَلِلْخُلَفَـاءِ فَـاْعْتَقِـدَنَّ فَضْـلاَ وَتَـرْتِيباً وَعُـمَّ ٱلصَّحْـبَ كُـلاًّ
بِحُـبٍّ وَٱحْتِـرَامٍ فِـي ٱقْتِصَـادِ

وَوِرْدَ ٱلْبَـاقِيَـاتِ ٱلصَّـالِحَـاتِ فَرِدْ وَٱلْهَجْ بِهِنَّ إِلَى ٱلْمَمَاتِ
تَرَى ٱلرِّيَّ ٱلْهَنِيءَ وَأَنْتَ صَادِي

بَابُ الخَمْسَةِ

وَخَمْسَ قَوَاعِدِ ٱلإِسْلاَمِ فَٱعْلَمْ بِهَـا وَٱعْمَـلْ وَكَمِّلْهَـا لِتَسْلَـمْ
مِـنَ ٱلنُّقْصَـانِ وَٱرْقَ لِـلازْدِيَـادِ

وَزِدْ فِي خَمْسِ أَوْقَاتِ ٱلصَّلاَةِ مُحَـافَظَـةً لِتَظْفَـرَ بِـٱلصِّـلاَتِ
إِذَا ٱنْفَصَمَتْ عُرَىٰ أَهْلِ ٱلْبِعَادِ

وَأَعْدِدْ يَوْمَ تُسْأَلُ عَنْ شَبَابِ وَعَـنْ عُمْـرٍ وَعِلْـمٍ وَٱكْتِسَـابِ
وَإِنْفَـاقٍ جَـوَابـاً لِلسَّـدَادِ

بَابُ السِّتَّةِ

وَقُلْ آمَنْتُ بِٱلسِّتِّ ٱلأُصُولِ إِلَـٰهِي وَٱلْمَلاَئِكِ وَٱلرَّسُولِ
وَكُتْـبٍ وَٱلْقَضَـاءِ وَبِـٱلْمَعَـادِ

وَشَمِّتْ عَاطِساً وَٱنْصَحْ وَسَلِّمْ وَعُدْ وَٱتْبَعْ جَنازَةَ كُلِّ مُسْلِمْ
تَقُمْ بِٱلْحَقِّ وَٱسْتَجِبِ ٱلْمُنَادِي

وَآتِ ٱلْحَقَّ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ وَأَصْلاَ وَجِيْـرَانـاً وَمَمْلُـوْكـاً وَأَهْـلاَ
وَأَصْحَـابـاً بِبِشْـرٍ وَٱنْقِيَـادِ

بَابُ السَّبْعَةِ

وَكُـنْ مِمَّـنْ يُظِلُّهُـمُ ٱلإِلَـٰـهُ   بِظِـلٍّ يَـوْمَ لاَ ظِـلٌّ سِـوَاهُ
وَقَدْ حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ بِٱلِاشْتِدَادِ

إِمَـامٌ عَـادِلٌ وَفَتَـىً عَفِيْـفُ   وَمُخْـفٍ لِلتَّصَـدُّقِ وَٱلأُلُـوفُ
لأَرْجَـاءِ ٱلْمَسَـاجِـدِ ذُو ٱعْتِيَـادِ

وَمَنْ فِي ٱللَّهِ وَالَىٰ مَنْ يُوالِي   وَصَدَّ إِذَا دَعَتْ ذَاتُ ٱلْجَمَالِ
وَبَـاكٍ لِلْمَخَـافَـةِ فِـي ٱنْفِـرَادِ

بَابُ الثَّمَانِيَةِ

وَأَبْـوَابُ ٱلْجِنَـانِ إِذَا ٱخْتَتَمْتَـا   بِتَـوْحِيْـدٍ طَهَـارَتَـكَ ٱفْتَتَحْتَـا
وَتُغْلَـقُ عَنْـكَ أَبْـوَابُ ٱلنَّكَـادِ

وَأَشْهِدْ فِي ٱلصَّبَاحِ وَفِي ٱلْمَسَاءِ   عَلَـىٰ تَنْـزِيـهِ رَبِّ ٱلإِسْتِـوَاءِ
ثَمَـانِيَـةَ ٱلْمَـلاَئِكَـةِ ٱلشِّـدَادِ

وَأَهْلَ الْكَهْفِ فَٱدَّكِرِ ٱعْتِبَارَا   بِهِـمْ وَبِثَـامِـنٍ حَـازَ ٱفْتِخَـارَا
بِصُحْبَتِـــهِ لأَهْـــلِ ٱلإِنْجِـــرَادِ

بَابُ التِّسْعَةِ

وَخَفْ تِسْعاً تَكُونُ جَزَاءَ تِسْعِ   كَمَـوْتِ فُجَـاءَةٍ لِـزِنـاً وَمَنْـعِ
زَكَـاةٍ مَنْـعِ قَطْـرٍ فِـي ٱلْبَـوَادِي

وَمِـنْ قَحْـطٍ لِتَطْفِيـفٍ وَظُلْـمِ   وَعُـدْوَانٍ يَعُـمُّ لِجَـوْرِ حُكْـمِ
وَنَقْضِ ٱلْعَهْدِ تَسْلِيطِ ٱلأَعَادِي

وَتَرْكِ ٱلأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ ٱخْتِلاَلِ   لِمُلْكٍ وَٱلْقَطِيعَةِ جَعْلِ مَالِ
مَعَ ٱلأَشْرَارِ لاَ أَهْلِ ٱلأَيَادِي

بَابُ العَشَرَةِ

وَزَكِّ ٱلْقَلْبَ عَنْ عَشْرِ صِفَاتِ   مُفَصَّلَةٍ بِرُبْعِ ٱلْمُهْلِكَاتِ
بِتَأْلِيفِ الإِمَامِ ٱلْمُسْتَجَادِ
وَبِٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْعَشْرِ ٱللَّوَاتِي   حَوَاهَا مِنْهُ رُبْعُ ٱلْمُنْجِيَاتِ
تَحَلَّ مُشَمِّراً سَاقَ ٱجْتِهَادِ
هُنَالِكَ تَرْتَقِي كَمْ مِنْ مَقَامِ   بِأَحْوَالٍ سَنِيَّاتٍ جِسَامِ
مِنَ ٱلتَّقْوَىٰ وَتَحْظَىٰ بِٱلْمُرَادِ

فَصْلٌ فِي الإِهْدَاءِ

فَخُذْ غَرَّاءَ مُحْكَمَةَ ٱلْقَوَافِي   هَدِيَّةَ وَاصِفٍ لاَ ذِي ٱتِّصَافِ
وَلَـٰكِنْ يَرْتَجِي فَضْلَ ٱلْجَوَادِ
حَوَتْ حِكَماً وَأَحْكَاماً وَعِلْمَا   وَمَوْعِظَةً وَآدَاباً وَنَظْمَا
تَرُوقُ ٱلسَّمْعَ مِنْ حَضَرٍ وَبَادِي
يُؤَمِّلُ مِنْ ذَوِي ٱلشِّيَمِ ٱلْكِرَامِ   قَبُولاً بِٱحْتِشَامٍ وَٱحْتِرَامِ
وَصَفْحاً عَنْ مُنَاقَشَةِ ٱلنُّقَّادِ

فَصْلٌ فِي الدُّعَاءِ

فَيَا مَنْ مَنَّ بِٱلصَّفْحِ ٱلْجَمِيلِ   أَدِمْ كَرَماً وَسَامِحْ بِٱلْقَبُولِ
لأَعْمَالٍ رَوَائِحَ أَوْ غَوَادِي

إِلٰهِي إِغْفِرِ ٱلذَّنْبَ ٱلْعَظِيمَا بِفَضْلِكَ وَٱهْدِنا ٱلسَّنَنَ ٱلْقَوِيمَا
وَلاَ تُشْمِتْ بِنَا يَوْمَ ٱلتَّنَادِي

وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِ ٱلْمُسْلِمِينَا وَصَيِّرْ قُطْرَنَا بَلَداً أَمِينَا
وَعُمَّ ٱلأَمْنَ فِي كُلِّ ٱلْبِلاَدِ

فَصل في الصَّلاةِ عَلى النَّبِيّ
صلى الله عليه وسلم

وَصَلِّ عَلَى ٱلرَّسُولِ بِغَيْرِ لَبْسِ إِلَى ٱلثَّقَلَيْنِ مِنْ جِنٍّ وَإِنْسِ
صَلاَةً لاَ تَؤُولُ إِلَىٰ نَفَادِ

أَجَلِّ ٱلرُّسْلِ مَنْزِلَةً وَقَدْرَا وَرَحْمَةِ رَبِّنَا دُنْيَا وَأُخْرَىٰ
لِكُلِّ ٱلْعَالَمِينَ بِلاَ عِنَادِ

وَكُلِّ ٱلآلِ وَٱلصَّحْبِ ٱلْكِرَامِ فَشَرِّفْ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلاَمِ
وَكُلٌّ مُهْتَدٍ مِنْهُمْ وَهَادِي

* * *

وأما الشرح . . فهو هٰذا :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وعليهِ أتوكّلُ

فَصل في الوَعظ

إِلاَمَ وَقَـدْ بَـدَتْ سُبُـلُ ٱلـرَّشَـادِ وَنَـادَىٰ بِـٱلـرَّحِيـلِ لَـكَ ٱلْمُنَـادِي
تُسَوِّفُ بِٱلنُّهُوضِ مَعَ ٱلتَّمَادِي ؟

(**إلامَ**) أي : إلىٰ أي وقت ، وأصله : (إلىٰ ما) ولـٰكن إذا دخل حرف الجر علىٰ (ما) الاستفهامية . . حذفت ألفها ، فيقال : (إلامَ) و(علامَ) .

و(**سبل الرشاد**) : صراط الله المستقيم ، ودينه الذي شرعه .

و(**المنادي**) : هو النذير من قرآن ، أو رسول ، أو موت أو مشيب ، أو غير ذلك مما يُلزِم العبد به الحجة .

و(**التسويف**) : الوعد ، مشتق من : سوف أفعل كذا .

و(**النهوض**) : القيام عن قعود ، وكنىٰ به عن أخذ الزاد والاستعداد للموت قبل نزوله .

و(**التمادي**) : البطء ، والإصرار على الأمر ، والخطاب راجع من النفس إليها ، ويسمّىٰ ذلك عند علماء البيان : (التجريد) فكأن الإنسان إذا أراد إبراز ما في ضميره . . جرَّد من نفسه إنساناً يخاطبه ويناجيه بلسان مقاله معبراً عن لسان حاله .

فلما أراد الناظم ـ رحمه الله ـ إيقاظ قلبه الغافل ، واستنهاض عزمه المماطل . . ناداه بالاستفهام الإنكاري : إلىٰ متىٰ يا هـٰذا تقول كل يوم : سوف أقطع العلائق الشاغلة عن الله تعالىٰ ، وأُقْبل علىٰ ما خلقني له من العبادة حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

﴿لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وأنت مع ذلك مصرٌّ علىٰ هواك ؟ متمادٍ علىٰ غفلتك ؟ لا تفي بوعدك ، ولا ترعَوي[1] إلىٰ سبيل رشدك ، ولا عذر لك في ذلك بعد أن ظهر لك سبيل الرشاد ، وتبين لك من الغي ، ولزمتك الحجة بقوله تعالىٰ : ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أَتْبع نفسه هواها ، وتمنىٰ على الله » رواه الترمذي وحسَّنه .

و(دان نفسَه) : أي حاسبها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيه » رواه الترمذي ، وحسَّنه الشيخ محيي الدين النووي .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « يتبع المَيِّتَ ثلاثة : أهْلُه ومالُه وعملُه ، فيرجع اثنان ، ويبقىٰ واحد ؛ يرجع أهله وماله ، ويبقىٰ عمله » رواه البخاري ومسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شِراك نعله[2] ، والنار مثل ذلك » رواه البخاري . . . إلىٰ غير ذلك من الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة .

فإن أعرضتِ ـ يا نفس ـ عن الإصغاء ، أو أصغيتِ بظاهرِكِ ، وتكاسلتِ عن العمل بباطنِكِ . . فقد خِبتِ وخَسرتِ ، وما ظلمت إلا نفسك ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ .

وإن أصغيت إصغاءَ ذي فطنة وبصرٍ حديد ، وتفكرت تفكُّرَ من ألقى السمع

---

(١) **الارعواء** : النزوع عن الجهل ، وحسن الرجوع عنه .

(٢) **الشِّراك** : سير النعل .

وهو شهيد ، وقطعت عنك العلائق ، وصرفت الشواغل والعوائق ، وكلَّ ما يصدك عن سلوك الصراط المستقيم ، ويلهيك عن خدمة مولاك الكريم البر الرحيم. . رجوتُ لك النجاة والسلامة ، ثم الظفر بالفوز والكرامة ، والملك المقيم في دار النعيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ .

وإذا كان مَن طلب الرئاسة الدنيوية الفانية ، الحقيرة الدنية ، فربما يبذل مالَه وروحه حتىٰ يظفر بقدر يسير في عمر قصير ، والدنيا بأسرها أحقر عند الله من كل حقير ، وإذا حصل له ذلك فربما يغبط نفسه فلا يرىٰ ما بذله من المال وخاطر به من الحال كثيراً . . فكيف بمن يطلب الملك الكبير المقيم في دار النعيم ، في جوار البر الرحيم ؟! أيُستكثر له أن يُلجِم نفسه بلجام التقوىٰ ، وينهىٰ نفسه الأمَّارة بالسوء عن اتباع الهوى ؟!

كلا ، والله لو كان له ألف ألف نَفْس ، وألف ألف روح ، وألف ألف عمر مثل عمر الدنيا وأكثر ، وبذل ذلك كله في هـٰذا المطلب العزيز . . لكان قليلاً ، فتنبّهي يا نفس من رقدة الغافلين .

كيف . . وأهلُ طاعةِ الله في الدنيا هم فيها أهل الشرف والسيادة ، كما هم في الآخرة أهل الكرامة والسعادة ؟! قال الله تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

وكيف لا يكونون ملوكاً في الدنيا والآخرة وهم لا يخدمون إلا الله تعالىٰ ، ويخدمهم كل ما سوى الله ، ولا يخافون إلا الله ، ويخافهم كل خلق الله ؟! وإذا تقرَّبوا إلى الله . . مكَّنهم بنفاذ التصرف في البر والبحر ؛ فالحجر والمَدَر[1] لهم فضة وذهب ، والأرض كلها عندهم خُطوة واحدة ، والجن والإنس والبهائم والطير والوحش لهم جند مسخَّرون مقهورون علىٰ طاعتهم ،

---

(١) **المَدَر** : قطَع الطين اليابس .

شاؤوا أو لم يشاؤوا ؛ لأنهم متصرفون في ملك الله بإذن الله ، لا يشاؤون إلا ما شاء الله ، وما شاء الله كان .

ومن أين لملوك الدنيا وإن عظمت مملكتهم بعشر معشار ذلك ؟ كما قيل :

ملوك على التحقيق ليس لغيرهم   من الملـك إلا إثمـه وعِقـابـه

وتأملي ـ يا نفس ـ ما يكرم الله به عباده إذا أطاعوه ولزموا خدمته من الكرامات في الآخرة والأولىٰ ، وذلك لا يعدُّ ولا يُحصىٰ .

منها : أن يشكره ويثني عليه ، ويحبَّه ويعظمه ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ ولو شكرك مخلوق ضعيف . . لتشرفت به ، ولو أحبك أمير بلدك . . لانتفعت به في مواطن كثيرة .

ومنها : أن يكون له وكيلاً يدبر أمره ، ولرزقه كفيلاً بلا تعب ولا عناء ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

ومنها : أن يُكرمه بعزة النفس ورفعة الهمة من ذل خدمة الدنيا وأهلها ، والتلطخ بأقذارها ، بل لا يرضىٰ أن تخدُمه ملوك الدنيا .

ومنها : المهابة والموقع في النفوس ، والمحبة والود في القلوب ، فيجله ويحترمه الأخيار والأشرار ، ويحبه ويكرمه الأبرار والفجار ، لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ .

ومنها : غنى النفس ، وشرح الصدر ، فلا يزال منشرحَ الصدر طيب النفس .

ومنها : التبرك بكل شيء يُنسب إليه من بدن أو ثوب أو مكان أو تراب وَطِئه بقدمه ، وتعظيم جنازته والازدحام عليها وعلى الصلاة عليه ، والمبادرة إلىٰ بذل أكفانه ومؤنة تجهيزه بلا ثمن ، بل يرجون بذلك الثواب الجزيل والثناء الجميل .

ومنها : التثبيت عند الموت على الإيمان ، والبشارةُ بالأمان ، فلا يخاف مما يقدَم عليه من أهوال الآخرة ، ولا يحزن علىٰ ما خلَّفه في الدنيا من أهل وولد ومال ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ .

هٰذا كله في مدة إقامتهم في الدنيا ، وأما كرامته في الآخرة . . فلا يقدر أحد أن يعبر عنها بمقال ، ولا يحصرها إلا الكبير المتعال ، كما أخبر الله سبحانه بذلك حيث قال : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ وما يكون كذلك فأنَّىٰ يحيط به علم مخلوق ، أو يَبْلُغُ كُنْهَهُ وهْمُ بشر ؟ وحُقَّ له أن يكون كذلك ، وهو عطاء العزيز العليم ، البر الرحيم ، علىٰ مقتضى الفضل العظيم والجود العميم .

ألا لمثل هٰذا فليعمل العاملون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولله درُّ القائل ابن المُقري صاحب « الإرشاد » :

إلىٰ كم تمادٍ في غرورٍ وغفلة ... وكم هٰكذا نومٌ إلىٰ غير يقظةِ

لَقَد ضاع عمرٌ ساعةٌ منه تُشترَىٰ ... بملْءِ السما والأرض أيَّةَ ضيعةِ

أتُنفِقُ هٰذا في هوىٰ هٰذه التي ... أبى الله أن تَسوَىٰ جناحَ بعوضةِ

وترضىٰ من العيش السعيد تعيشه ... مع الملأ الأعلىٰ بعيش البهيمة

فيادُرةً بين المزابل أُلقِيَتْ ... وجوهرةً بيعت بأبْخَس قيمةِ

أفانٍ بباق تشتريه سفاهةً ... وسُخْطاً برضوانٍ وناراً بجنَّةِ

كلِفْتَ بها دنيا كثيرٌ غرورها ... تعاملُ مَن في نصحها بالخديعةِ

إذا أقبلت وَلَّتْ وإن هي أحسنتْ ... أساءت وإن ضاقت فَثِقْ بالكدورةِ

ولو نلتَ منها مالَ قارونَ لم تنل ... سوىٰ لقمةٍ في فيك منها وخِرقةِ

وعيشُك فيها ألفَ عام وينقضي ... كعيشك فيها بعضَ يوم وليلةِ

وهَبْكَ بلغت المُلكَ فيها ألم تكن ... لتنزِعَه مِن فيك أيدي المنيَّةِ ؟

عليك بما يُجدي عليك من التقىٰ ... فإنك في لهوٍ عظيم وغفلةِ

أما تستحي من مالك الملك أن يَرىٰ ... صدودَك عنه يا قليل المروءةِ

سبيلك أن تستغفر الله بعدها ... وأن تتلافَى الذنب منها بتوبةِ

إلٰهيَ لا واخذتنا بذنوبنا ... ولا تخزنا وانظر إلينا برحمةِ

وخذ بنواصينا إليك وهب لنا ... يقيناً يَقينا كلَّ شكٍّ وريبةِ

وكن شُغلَنا عن كلِّ شغلٍ وهمَّنا ... وبُغيَتنا عن كل هَمٍّ وبُغيةِ

وصلِّ صلاةً لا تناهَىٰ على الذي ... جعلتَ به مِسكاً ختام النبوَّةِ

وآلٍ وصحبٍ أجمعين وتابعٍ ... وتابعهم من كلِّ إنس وجِنَّةِ

* * *

أَغَيّاً بَعْدَ أَنْ وَخَطَ ٱلْمَشِيبُ   وَأَخْلَقَ ذَلِكَ ٱلْبُرْدُ ٱلْقَشِيبُ
وَآذَنَ زَادُ عُمْرِكَ بِـٱلنَّفَادِ ؟

أي : أتغوىٰ غيّاً ، وهو ضد الرشد .

(وَخَطَ) : خالط بياضُه سواد الشعر .

و(القَشيب) : شديد الطراوة ، و(آذن) : أعلم .

وكرر الإنكار ؛ استبعاداً أن يتعاطىٰ أسباب اللهو من ليس من أهله ؛ فإن من أنذره المشيب بنفاد زاد عمره الذي هو مدة أيامه ؛ إذ العمر مدة معلومة ، والشيب مؤذن بانقضائها ، فهو أولىٰ بالاتعاظ ، كما قيل :

يا أيها المعدودُ أنفاسُهُ   لا بُدَّ يوماً أن يتم العددْ

وقال آخر :

يا ميّتاً في كل يومٍ بعضُه   اِحذر وخَف من أن تموت جميعا
إن المنايا لم تدعك لِعِزَّةٍ   يا غافلاً عن نفسه مخدوعا
لٰكنها أُمِرتْ بغيرك أولاً   وطريقها منه إليك سريعا

وقد قال الله تعالىٰ ـ قطعاً لمعذرة من قال عند الأسف علىٰ تضييع صالح الأعمال : ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ـ : ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ .

فسَّر ابنُ عباس رضي الله عنهما (العمرَ) في إحدى الروايتين عنه بستين سنة ، وفي الأخرىٰ بأربعين سنة ، وبها قال الحسن البصري وجماعة .

ونُقل أن أهل المدينة كانوا إذا بلغ أحدهم سن الأربعين . . تفرغ للعبادة .

وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما (النذيرَ) بأنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وقال عكرمة وابن عيينة وجماعة : هو الشيب .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« أعذر الله إلى امرئٍ أخَّر أجله حتىٰ بلغ ستين سنة » رواه البخاري .

و(أعذر) أي : لم يترك له عذراً .

وعن أبي بكر رضي الله عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أيُّ الناس خيرٌ ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » قال : فأيُّ الناس شرٌّ ؟ قال : « من طال عمره وساء عمله » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسنٌ صحيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ : شيخٌ زان ، وملكٌ كذابٌ ، وعائل متكبر » رواه مسلم .

و(العائل) : الفقير .

* * *

أَعِـدَّ ٱلـزَّادَ لِلسَّفَـرِ ٱلطَّـوِيـلِ فَلَيْـسَ إِلَـى ٱلإِقَـامَـةِ مِـنْ سَبِيـلِ
وَمَـا يُغْنِـي ٱلقُـدُومُ بِغَيْـرِ زَادِ ؟

ثم كأنَّ المخاطب أصغىٰ إلى الموعظة والإنذار وقال : ما القصد من هٰذا الاستفهام المتضمن للنهي والإنكار ؟ فأخبره بأن الكل موقن بأنه منتقل من هٰذه الدار إلىٰ دار أخرىٰ هي دار القرار ، ومن أراد النقلة من دار يعلم أنه لا يعود إليها أبداً . . كان من حقه تقديم أمتعته إلى الدار التي أراد الانتقال إليها ، فكذلك يجب في أمر الدنيا والآخرة ، ومن قدَّم هنا شيئاً من خير أو شر . . وجده هناك ، فالدنيا مزرعة الآخرة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك . . وجب إعداد الزاد النافع ، وقطع الأمل عن دارٍ لا بقاء للمرء فيها ، كما لا يؤمل المسافر الإقامة في غير بلده .

ولا شك أن العبد في هٰذه الدار مسافر تاجر ، وبضاعته أعماله من خير أو شر ، وربحه سعادة الأبد في الجنة التي أعدت للمتقين ، وخسرانه شقاوة الأبد ، وذلك هو الخسران المبين ، وأصل رأس ماله عمره ، وكل ساعة من ساعاته كنز من الكنوز يمكنه أن يشتري بها سعادة الأبد ، فإذا فني العمر . . انقطعت التجارة ، وحصل كلٌّ علىٰ ما أسلفه في يوم التغابن : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ ولٰكن الغفلة وطول الأمل أعميا البصائر عن الحق ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبيَّ فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : (إذا أمسيتَ . . فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحتَ . . فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك) رواه

البخاري هٰكذا ، ورواه ـ أيضاً ـ الترمذي ، وجعل قول ابن عمر رضي الله عنهما « إذا أمسيت . . . » إلخ من قول النبي صلى الله عليه وسلم .

وعن أنس رضي الله عنه قال : خَطَّ رسول صلى الله عليه وسلم خطاً وقال : « هٰذا الإنسان » وخطَّ إلىٰ جانبه خطاً وقال : « هٰذا أجَلُه » وخط آخر بعيداً منه وقال : « هٰذا الأمل » فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقربُ . رواه البخاري .

وعن أم الوليد رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تستحيُون من الله ؟ تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنُون ما لا تعمرون ، وتأملون ما لا تدرِكُون » رواه الطبراني .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (كل من لم يخطر بخاطره قرب أجله . . لم يزل في غفلة دائمة ، وفتور مستمر ، وتسويف متتابع إلىٰ أن يدركه الموت ، وتُهلكه حسرة الفوت ، وطولُ الأمل هو العائق عن كل خير ، الجالب لكل شر ؛ فإنه إذا طال أملك . . هاج لك منه أربعة أشياء :

الأول : الكسل عن الطاعة ، تقول : سوف أفعل ، والأيام مقبلة بين يديّ .

الثاني : ترك التوبة ، تقول : أنا قادر على التوبة إذا رُمتها ، وذلك جهل ؛ فربما اختطفك الأجل قبل إصلاح العمل .

الثالث : الحرص على الجمع ، تقول : أخاف الفقر ، ولا بدَّ لي من شيء أدّخره لمرض أو هرم أو فقر ، ونحو ذلك مما يحرك الرغبة في الدنيا والحرصَ عليها وعلىٰ جمعها ، والمنع لما عندك منها ، وأقلُّ ما في الباب أنه يشغل قلبك ، ويضيع عليك وقتك ، ويُكْثِر همَّك وغمَّك بلا فائدة .

الرابع : القسوة في القلب ونسيان الآخرة ؛ لأنك إذا أمَّلت العيش . . لم تذكر الموت والقبر ، وصار فكرك في حديث الدنيا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ .

فأما إذا قصرتَ أمَلك ، وقلتَ لنفسك : كم من مستقبِلٍ يوماً لم يستكمله ، ومنتظرٍ غداً لم يدركه ، وإنما الدنيا ثلاثة أيام : أمس قد مضىٰ ، وغدٌ لم يأت ، ويوم أنت فيه . . فاغتنم اليوم الذي أنت فيه ، والسلام) اهـ

ذهـبَ الشبـابُ فمـا لـه مـن عَـودةٍ ... وأتـى المشيـبُ فـأيـنَ منه المهـربُ

ضيـفٌ أنـاخ عليـك لـم تَبْهَـجْ بـه ... فِقِـــراه أنفـــاس ودمـــع يُسكَـــبُ

دعْ عنك ما قد فات في زمن الصِّبا ... واذكـر ذنـوبـك وابكهـا يـا مـذنـبُ

واذكـر منـاقشـة الحسـاب فـإنـه ... لا بـد يُحصـىٰ مـا جنيـتَ ويُكتـبُ

لـم ينسـه المَلَكـان حيـن نسيتَـه ... بـــل أثبتـــاه وأنـــت لاهٍ تَلعـــبُ

والليـلَ فـاعلـم والنهـارَ كـلاهمـا ... أنفـــاسنـــا بِهمَـــا تُعَـــدُّ وتُحْسَـــبُ

والـــروح فيـــك وديعـــة أُوْدِعْتَهـــا ... سَتَـرُدُّهَـا بـالـرغـم منـك وتُسلَـبُ

وغـــرور دنيـــاك التـــي تسعـــىٰ لهـــا ... دارٌ حقيقتهـــا تـــزول وتـــذهـــبُ

وجميـــعُ مـــا أَوعيتَـــهُ وجمعتَـــهُ ... عمـــا قليـــل بعـــد مـــوتـــك يُنهـــبُ

تبّـــاً لـــدار لا يـــدوم نعيمهـــا ... ومَشيـدُهـا العـالـي يَبيـد ويَخـرَبُ

فـاعمـل لـربـك إنـه أدنـىٰ لمـن ... يـدعـوه مـن حبـل الـوريـد وأقـربُ

* * *

فَصلٌ في الوَصيَّة

وَخَيْـرُ ٱلـزَّادِ تَقْـوَى ٱللهِ أَوْصَـىٰ بِهَـا أَدْنَـىٰ بَـرِيَّتِـهِ وَأَقْصَـىٰ
وَعَـمَّ بِحُكْمِهَـا كُـلَّ ٱلْعِبَـادِ

ثم نبَّه علىٰ أن زاد هٰذا السفر : هو تقوى الله تعالى ؛ فإنها الخصلة التي أوصى الله بها الأولين والآخرين في قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (قُلتُ : أليس الله سبحانه أعلمَ بمصالح عبده ، وأنصحَ له وأرحمَ به من كل أحد ؟ ولو كانت في العالم خَصلة هي أصلح للعبد ، وأجمع للخير ، وأعظم للأجر ، وأجل في العبودية من هٰذه الخصلة ـ التي هي التقوىٰ ـ . . لأوصَىٰ بها عباده ؛ لكمال حكمته وسعة رحمته ، فلما جمع الله في هٰذه الخصلة الأولين والآخرين واقتصر عليها . . عُلِمَ أنها الغاية التي لا يتجاوز عنها ، وأنه تعالىٰ قد جمع كل نصح وإرشاد وتأديب وتعليم في هٰذه الوصية الواحدة كما يليق بحكمته) اهـ

تشاغل بالدنيا أناسٌ فأصبحوا ... عن الباب محجوبين قد مُنِعوا القُربا
وأهلُ التُّقىٰ لله تَسرِي نفوسهم ... إلىٰ غاية نالوا بها المشربَ العذبا
فجالوا بنور العلم في روضة التُّقَىٰ ... بها أَنفُسُ الأبرار قد مُلِئَت حُبًّا
هُمُ قطعوا الدنيا بخوف وعيدهم ... وذكْرُهُمُ للموت أورثهمْ كَرْبا

❊ ❊ ❊

فَتِلْـكَ ٱلـرِّبْـحُ وٱلْغُنْـمُ ٱلْجَسِيـمُ وَتِلْـكَ ٱلْكَنْـزُ وَٱلْمُلْـكُ ٱلْعَظِيـمُ
وَتِلْـكَ سَبِيـلُ أَرْبَـابِ ٱلْجِهَـادِ

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم أن التقوىٰ كنز عظيم ، فلئن ظفرت به فلكم تجد فيه من جوهرٍ عزيز ، وعِلقٍ[1] نفيس ، وغُنمٍ جسيم ، ومُلكٍ عظيم ، وكأن خيراتِ الدنيا والآخرة جُمعت في هٰذه الخصلة التي هي التقوى! وتَأَمَّلْ ما في القرآن كم علَّق بها من خير ، وكم وعد عليها من ثواب ، وكم أضاف إليها من سعادة! وأنا أَعُدُّ لك من جملتها عشراً :

أولاها : المدح والثناء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

والثانية : الحراسة من كيد الأعداء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ .

والثالثة : النصر والتأييد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

والرابعة : إصلاح العمل وغفران الذنوب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

والخامسة : محبة الله له ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والسادسة : القبول ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والسابعة : الإكرام والإعزاز ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

والثامنة : البشارة عند الموت ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ .

---

(١) **العِلق** : النفيس من كل شيء .

والتاسعة : النجاة من النار ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

والعاشرة : الخلود في الجنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

* * *

وَهَـــاكَ إِذَا أَرَدْتَ ٱلإِتِّصَـــافَـــا بِهَـــا حِكَمَـــاً مُـــدَوَّنَـــةً طِـــرَافَـــا
فَـــأَصْـــغِ لَهَـــا بِفَهْـــمٍ وَٱرْتِيَـــادِ

و(**هاك**) أي : خذ .

و(**مدونة**) أي : مثبتة في الكتاب والسنة والآثار . و(**طِرافا**) بالمهملة : مُعجِبة[1] .

و(**الارتياد**) : الطلب ؛ أي : فأصغ سمعك لها مع فهمك لمعانيها وطلبك للاتصاف بها .

ولما سبق أن التقوىٰ هي الخصلة الجامعة لكل فضيلة ، والمانعة لكل رذيلة . . نبَّه علىٰ كيفية التوصل إلىٰ حيازة مقامها ، والتوسل إلىٰ نيل درجاتها الرفيعة واغتنامها .

وحقيقة ذلك : أن تقوىٰ كل شيء اجتنابه ، فالتقوىٰ حينئذ داخلة فيها جميع المقامات . . أدناها وأعلاها .

مثاله : أن من أسلم . . فقد اتَّقى الكفر ، ومن صدّق وآمن . . فقد اتقىٰ تكذيب الرسل ، ومن أخلص . . فقد اتقى الرياء ، ومن تاب . . فقد اتَّقى الذنوب ، ومن زهد . . فقد اتَّقى الدنيا وغرورها ، ومَنْ فَعَل المأمورات : من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها . . فقد اتقىٰ أضدادَها . . . وهٰكذا سائر الأوصاف المحمودة ، فكلٌّ من اتصف بشيء منها . . فقد اتقىٰ ضده المذموم .

فالتقوىٰ : اجتناب كل ما تخاف منه ضرراً في دينك ، حتىٰ فضول الكلام ، وفضول الطعام ، وفضول الجاه والمال ، إلىٰ غير ذلك من المباحات التي تُوقِع في المعصية والغفلة عن الله تعالىٰ .

فمَن راضَ نفسَهُ بتركِ الأخلاق المذمومة ، وفعلِ الأخلاق المحمودة ،

---

(١) أي : تُستحسَن وتُستملَح .

حتى اطمأنت نفسه بذلك من غير تكلف ، وصار له ذلك صفةً راسخة تكون له وقاية بينه وبين كل ما يخشىٰ منه الضرر في الدين بقوة العزم ، وتوطين النفس . فقد اتصف بالتقوى الكاملة ، ويُسمىٰ مقامه مقامَ الاستقامة ، وأول ذلك : أن ينظر إلىٰ جوارحه عضواً عضواً ، فيتقيَ الله في قلبه فيصونَه من الغل والحسد والعُجْب والكِبْرِ والرياء وسائر خبائث القلب ، ثم في لسانه فيصونه من الكذب والغيبة والنميمة واللعن والسب والفُحش ، وغير ذلك من آفات اللسان ، ثم في سمعه وبصره وفرجه وبطنه ويده ورجله ، فيحفظها عما نُهِيَتْ عنه ، ويستعملها فيما أُمِرَتْ به .

وسيأتي التنبيه علىٰ تفصيل ذلك في الأبواب العشرة باباً باباً .

وعند ذلك يُعلم : أن الشريعة بأسرها مندرجة تحت التقوىٰ ، وأن قصيدتنا هـٰذه قد أُسِّس بنيانُها على التقوىٰ .

* * *

بَابُ الوَاحِدِ

فَأَصْلِحْ مُضْغَةً فِي ٱلْجِسْمِ تَقْوَىٰ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ فَفِي ٱلْأَخْبَارِ يُرْوَىٰ
صَلَاحُ ٱلْكُلِّ فِيْهَا كَٱلْفَسَادِ

أي : صلاح الكل في صلاحها ، كما أن فساد الكل في فسادها .

وأصلُ البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مُضْغةً ، إذا صلَحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فَسدت فسد . . الجسد كله ، ألا وهي القلبُ » رواه البخاري ومسلم .

و(المضغة) : القطعةُ من اللحم بمقدار ما يمضغ .

و(القلب) : عضو صغير باطن معروف ، عليه مدار الجسد كله ، وسمِّي قلباً لسرعة تقلُّبه بالخواطر ، وهو مبدأ الحركات البدنية والخواطر النفسانية ، فإن صدرت عنه إرادة صالحة . . تحرك الجسد بحركة صالحة ، أو فاسدة . . فكذلك ، فهو في الجسد مَلِك مطاع ، لا يمكن لشيء من الأعضاء مخالفته ، فإذا أمر اليد بالبطش . . بطشَت ، أو الرجل بالمشي . . مشتْ ، وهٰكذا فالكل رعيته ، وصلاح الرعية تابع لصلاح المَلِك ، وفسادها تابع لفساده .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (ثم عليك بحفظ القلب وإصلاحه ، وحسن النظر في ذلك ، وبذل المجهود ؛ فإنه أعظم الأعضاء خطراً ، وأكثرها أثراً ، وأدقها أمراً ، وأشقها إصلاحاً ، وأذكُرُ فيه خمسة أصول مقنعة :

الأول : قوله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ وكفىٰ باطلاع العليم الخبير تهديداً وتحذيراً ؛ لأن المعاملة مع علام الغيوب خطرة ، فانظر ماذا يعلمه من قلبك .

الثاني : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأجسامكم ، وإنما ينظرُ إلىٰ قلوبكم » .

فالقلب إذاً موضع نظر الربِّ ، فواعجباً ممن يهتم بوجهه الذي هو محل نظر الخلق فيغسله ويزيِّنه ما أمكنه ؛ لئلا ينظر مخلوق فيه إلىٰ عيب وقذَر ، ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر ربه سبحانه وتعالىٰ فيطهِّره ، بل يهمله مشحوناً بفضائح وقبائح ، لو اطلع الخلق عليها . . لمقتوه علىٰ بعضها وهجروه .

الثالث : أن القلب في الجسم ملك مطاع ، فإذا كان كذلك . . وجب صرفُ العناية إليه .

الرابع : أنه خِزانة كل جوهر للعبد نفيس ، أولها العقل ، وأجلّها المعرفة بالله تعالىٰ ، التي هي للعبد سبب في سعادة الدارين ، ثم البصائر التي بها الوجاهة عند الله تعالىٰ ، ثم النية الصالحة التي يتعلق بها ثواب الأبد ، ثم أنواع العلوم والحِكم التي بها شرف العبد ثم سائر الأخلاق الشريفة التي فيها يتفاضل الرجال ، وحُقَّ لمثل هـٰذه الخزانة أن تُحفظ وتُصان عن الأدناس ، وتُحرس عن السُّراق ؛ لئلا يلحقها دنس ، ولا يظفر بها عدوٌّ ، وهو الشيطان ، والعياذ بالله منه .

الخامس : أن له أحوالاً ليست لغيره من الأعضاء :

منها : أن العدوّ قاصد إليه ؛ لأنه محل وسوسة الشيطان وإلهام المَلَك يَقرعانه بالدعوتين أبداً .

ومنها : أنه معترك عسكرَي العقلِ والهوىٰ ، فهو ثغر ، وحُقَّ للثغر أن يُحصَّن ولا يُغفل عنه .

ومنها : أن الخواطر قاصدة إليه كالسهام ، ولا يمكن منعه منها ، وليس بمنزلة العين بين جفنين إذا أغمضتها استراحت ، واللسان الذي بين حجابين ـ هما : الأسنان والشفتان ـ وأنت متمكن من منعه بالصمت ، وأما القلب . . فهو غرضٌ للخواطر ليلاً ونهاراً ، ولا يقدر علىٰ منعها والتحفظ منها أصلاً ، والنفسُ ـ أيضاً ـ مسارِعة إلى اتّباع تلك الخواطر ، والامتناعُ من ذلك شديد ،

وإذا كان كذلك . . كان صرف العناية إليه أهمَّ .

ومنها : أن علاجه عليك عسير ؛ إذ هو غيب عنك لا تشعر بما يدِب إليه من الآفات ، ويعرض له من الأحوال ، فتحتاج حينئذ أن تبحث عن صلاحه أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة .

ومنها : أن الآفات إليه أسرع ؛ لأنه إلى الانقلاب أقرب .

ثم إذا زلَّ ـ والعياذ بالله ـ فزلَلُه أعظم ، فأدنىٰ زَلَلِهِ : قسوة وغفلة عن الله ، ومنتهاه : الختمُ والطبع والكِبر الذي يجر ـ والعياذ بالله ـ إلى الكفر .

أمَا تسمع قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالكبر الذي يضمره في قلبه هو الذي يحمله على الكفر بظاهره ، أمَا تسمع قوله تعالىٰ : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ؟!

ولهٰذا المعنىٰ خاف الخَواصُّ من عباد الله تعالىٰ علىٰ قلوبهم ، وصرفوا عنايتهم إليها ، قال الله تعالىٰ في وصفهم : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ .

جعلنا الله وإياكم من المعتبرين بالعِبَر ، الموفقين لإصلاح قلوبهم بحسن النظر ، إنه أرحم الراحمين .

زيادةُ المرء في دنياهُ نقصان ... وربحه غير مَحْضِ الخير خسرانُ
يا عامراً لخراب الدار مجتهداً ... بالله هل لخراب العُمر عُمرانُ
يا عامرَ الجسم كم تسعىٰ لخدمته ... أتطلب الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ
واشدد يديك بحبل الله معتصماً ... فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ
من استعانَ بغير الله في طلبٍ ... فإنَّ ناصرَه عجز وخذلان
حسب الفتىٰ عقله خِلاً يعاشره ... إذا تحاماه إخوان وخلاَّنُ

يـا أيهـا العـاقـل المَـرضـيُّ سيـرتـه أبشـر فـأنـتَ بغيـر المـاء ريـانُ

ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج فـأنـتَ مـا بينهـا بـالجهـل ظمـآنُ

فـذو القنـاعـة راضٍ فـي معيشتـه وصاحب الحرص إن أَثرَىٰ فغضبانُ

وإن نبـا بـأريـبٍ مـوطـنٌ فلـه وراءه فـي بسيـط الأرضِ أوطـانُ

❊ ❊ ❊

وَحَاذِرْ مِنْ دَسَائِسِ ٱلِامْتِلَاءِ فَمَا مَلأَ ٱبْنُ آدَمَ مِنْ وِعَاءِ
أَشَرَّ عَلَيْهِ مِنْ بَطْنٍ بِزَادِ

أي : فما ملأه بزاد .

وأصل البيت : قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة . . فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لِنَفَسِه » رواه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في « صحيحه » .

و(بحسب ابن آدم) بمعنىٰ : يكفيه ، والباء زائدة للتأكيد .

و(الأكلات) بضم الهمزة والكاف معاً : جمع أكلة بضم الهمزة فقط ، وهي اللقمة .

و(الصَّلَب) و(النَّفَس) محركان[1] معروفان .

وفي ذلك غاية الذم للشبع والتوسع في المأكل ؛ لأن ذلك من قِبَلِ الشَّرَه والإسراف والتبذير ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم يأكل في مِعىً واحدةٍ ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[2] رواه البخاري ومسلم .

---

(١) **الصَّلَب** : لغة في (الصُّلْب) وهو : عظم الظهر من الكاهل إلى العَجْب .

(٢) أي : يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن ، أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته ، وليس المعنىٰ زيادة عدد مِعى الكافر عن عدد مِعى المؤمن ، قاله الغزالي في «الإحياء» (٣/ ٨٢) .
والظاهر أن المراد : أنه لا يقف عند حد في أكله وشهوته ؛ لعدم مبالاته بالحرام فيهما ، والسبعة كناية عن الكثرة . وانظر « فتح الباري » (٩/ ٥٣٩) .

و(المِعى) بكسر الميم مقصوراً كرضىً: وهي للآدمي كالكرش من البهائم .

وعن أبي جُحيفة ـ بضم الجيم وبعدها حاء مهملة ـ رضي الله عنه قال : أكلت ثريدة من خبز ولحم ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أتجشأ ، فقال : « يا هـٰذا ؛ كفَّ عنا من جُشائك ؛ فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ورواه الطبراني والبيهقي وزاد : فما أكل أبو جحيفة بعدها ملء بطنه حتىٰ فارق الدنيا ، كان إذا تغدَّىٰ . . لم يتعشَّ ، وإذا تعشىٰ . . لم يتغدَّ . ورواه ابن أبي الدنيا وزاد : قال أبو جحيفة : فما ملأت بطني منذ ثلاثين سنة .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أول بلاء حدث في هـٰذه الأمَّة بعد نبيِّها : الشبع ، إن القوم لما شبعت بطونهم . . سمنت أبدانهم ، فضعفت قلوبهم ، وجمحت شهواتهم) رواه البخاري في غير « الجامع الصحيح » .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (ثم عليك بحفظ البطن وإصلاحه ؛ فإنه أشق الأعضاء على المجتهد وأعظمها ضرراً ، وأكثرها مؤنة وشغلاً ؛ لأنه المنبع والمعدن ، ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من قوة وضعف وجماع وعفة ، فعليك إذاً بصيانته عن الحرام والشبهة أولاً ، ثم عن فضول الحلال ثانياً إن كان لك همة في عبادة الله تعالىٰ :

أما الحرام والشبهة . . فحذراً من نار جهنم ؛ ففي الحديث : « كل لحم نبت من سُحت فالنار أولىٰ به » ، ولأنَّ آكل الحرام والشبهة مطرود عن باب الله ، لا يوفق للعبادة ؛ إذ لا يصلح للخدمة إلا كل طاهر مطهَّر ، وإذا كان المحدث والجنب ممنوعين بظاهرهما عن الصلاة وعن مسِّ ظاهر كتاب الله تعالىٰ . . فكيف يُدعىٰ للخدمة من هو منغمس في قذر الحرام ونجاسة الشبهات ؟! كلاّ ؛ والله لا يكون ذلك أبداً ، فآكل الحرام والشبهة مطرود محروم ، فإن اتفق له فعل الخير . . فهو عليه مردود ، ففي الحديث : « كم من

قائم ليس له من قيامه إلا السَّهر ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ » .

وأما فضول الحلال . . فإنه آفة العُبّاد ، وبليّة أهل الاجتهاد ، وإني تأملت فوجدت فيه عشر آفات كلهن أصول في هٰذا الشأن :

الأولىٰ : أن في كثرة الأكل قسوةَ القلب ، وذهاب نوره وموته ؛ فإن القلب يسوِّده البخار المرتفع من المعدة ، كما يرتفع البخار من القِدْر ، ويموت بكثرة الطعام والشراب كما يموت الزرع إذا كثر عليه الماء .

الثانية : أن في كثرة الأكل هيجان الأعضاء وانبعاثها للفساد ، فإن الإنسان إذا شبع . . اشتهى الفرجُ الشهوة ، والعينُ النظر ، والأذن الاستماع إلىٰ ما لا يعني ، وإذا كان جائعاً . . كانت الأعضاء كلها ساكنة ، ولهٰذا قيل : البطن عضو إذا جاع . . شبع سائر الأعضاء ـ أي : سكنت فلم تطالبه بشيء ـ وإذا شبع . . جاعت سائر الأعضاء ـ أي : هاجت ـ وطالبه كل عضو بشهوته .

ثم إن أفعال العبد بحسب طعامه ، إن دخل الحرام . . خرج الحرام ، وإن دخل الفضول الزائد علىٰ قدر الحاجة . . خرج الفضول الذي لا يعني ، والطعام بَذر ، والأفعال زرع له .

الثالثة : أن في كثرة الأكل قلةَ الفهم والعلم ؛ فإن البِطنة تُذْهِبُ الفطنة ، وهٰذا أمر ظاهرٌ عَلِمَهُ من اختبره .

الرابعة : أن الإنسان إذا أكثر الأكل . . ثقل بدنه عن العبادة ، وفترت أعضاؤه ، وغلبته عيناه ، فيصير كالجيفة الملقاة ، فلا يجيء منه خير ، كما قيل : إذا كنت بَطِناً . . فعدَّ نفسك زمِناً ـ أي : مريضاً ـ وقال سفيان : العبادة حرفة ، وحانوتها الخلوة ، وآلاتها الجوع[1] .

الخامسة : أن في كثرة الأكل فَقْدَ حلاوة العبادة . قال الجنيد : يجعل

---

(١) نسب هٰذا القول في « الإحياء » لشقيق البلخي رحمه الله .

أحدكم بينه وبين ربه مخلاة من الطعام ، ويريد أن يذوق لذة المناجاة ؟! كلا ، لا يكون ذلك أبداً .

السادسة : أن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام ، ففي الحديث : « إن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً ، والحرام يأتيك جزافاً » .

السابعة : كثرة المؤنة ، وشغل القلب بتحصيله أولاً ، وتهيئته ثانياً ، وأكله ثالثاً ، والخلاص منه بإخراجه رابعاً ، وخشية الأمراض منه خامساً ، ففي الحديث : « البِطنة أصل الداء ، والحِمية أصل الدواء » .

ثم إن في ذلك من طلب الدنيا ، ومدِّ عين الطمع إلى الناس ما لا يخفىٰ .

الثامنة : ما يترتب علىٰ ذلك من شدة سكرات الموت ، فقد روي : « أن شدَّة سكرات الموت علىٰ قدر لذة الحياة » .

التاسعة : نقصان الثواب في العقبىٰ ، فبقدر ما تنال من الدنيا . . ينقص لك ذلك من الآخرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ .

العاشرة : طول الحبس والحساب في موقف القيامة وأهوالها ؛ فإن الدنيا حرامها عقاب ، وحلالها حساب ، وزينتها في تباب[1] .

فهٰذه عشر آفات في الشبع من الحلال ، وفي إحداها كفاية ، فانظر لنفسك أيها الرجل بالاحتياط البالغ في أمر القوت بالحذر من الوقوع في الحرام ، والشبهة أولاً ؛ لتنجو من نار الله الموقدة ، ثم من فضول الحلال ثانياً ؛ لتسلم من هٰذه الآفات والفتنة ، والله الموفق والمعين) .

مَنْ لي بِرَدِّ جماحٍ من غَوايتها	كما يُرد جماح الخيل باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوّي شهوة النَّهِمِ
والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على	حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ

(١) تباب : هلاك وخسران .

فاصرفْ هواها وحاذرْ أن تولِّيه ... إن الهوىٰ ما تولىٰ يُصْمِ أو يَصمِ

وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استَحْلت المرعىٰ فلا تُسمِ

كم حسَّنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السمَّ في الدسمِ

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فربَّ مخمصة شر من التخمِ

وخالف النفسَ والشيطان واعْصِهِمَا ... وإن هما محضاك النصح فاتهمِ

ولا تطع منهما خصما ولا حكماً ... فأنت تعرف كيدَ الخصمِ والحكمِ

ظلمتُ سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورمِ

وشدَّ من سغبٍ أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترَفَ الأدمِ

وراودته الجبال الشُّمُّ من ذهب ... عن نفسهِ فأراها أيّما شمَمِ

محمدٌ سيدُ الكونين والثقليـ ... ـنِ والفريقين من عُربٍ ومن عجمِ

* * *

وَخُـذْ بِـٱلْعِلْـمِ مَـعْ حِفْـظٍ وَدَرْسٍ   وَكُـنْ مُتَفَقِّهـاً فِـي ٱلـدِّيْـنِ تُمْـسِ
عَلَى ٱلشَّيْطَانِ أَعْدَىٰ مَنْ يُعَادِي

المراد بـ(**الأخذ بالعلم**) : اتّباعه والعمل به ، وبـ(**حفظه ودرسه**) : طلبه ، وبـ(**التفقُّه في الدين**) : فهم أسرارِهِ وحِكَمِهِ .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « ما عُبِد اللَّهُ بشيء كفقهٍ في دين ، ولكل شيء عماد ، وعماد هـٰذا الدين : الفقه ، وَلَفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ » رواه البيهقي والدارقطني بكامله ، وروى الترمذي منه : « فقيه واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ » .

ولا يخفىٰ ما في الحديث من فضل العلم وأهله ، والحث علىٰ تعلُّمه وتعليمه ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ وكفىٰ بذلك شرفاً لأهل العلم وفضلاً وإجلالاً ونبلاً ، حيث بدأ الله سبحانه بنفسه ، وثنَّىٰ بملائكته ، وثلَّث بأولي العلم خاصة من دون سائر عباده المؤمنين .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ فسَّروه بأن المعنىٰ : يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة ، والذين أوتوا العلم درجات كثيرة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : (يرفع الله العلماء يوم القيامة علىٰ سائر المؤمنين بسبع مئة درجة ، ما بين الدرجتين خمس مئة عام) .

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يُرد اللهُ به خيراً . . يفقهه في الدين » رواه البخاري ومسلم .

وقد جعل صلى الله عليه وسلم التفقهَ في الدِّين دليلاً علىٰ إرادة الله بعبده الخير .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علماً . . سهّل الله له به طريقاً إلى

الجنة ، وإن الملائكة لتَضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العالم يستغفر له مَنْ في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه . . أخذ بحظ وافر » رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في « صحيحه » .

وقد شَهِد صلى الله عليه وسلم بأن طلب العلم موصل إلى الجنة ، وأن الملائكة الكرام تعظِّم طالب العلم إكراماً للعلم ، ولا تعظم الملائكة الكرام إلا من كان عظيماً في ملكوت السماء .

وسمعت بعض مشايخنا يقول : ورد علينا رجل سِنْديٌّ من أهل الكشف ، وكان لا يقوم لأحد إلا لطالب العلم ويقول : إنما أقوم إذا رأيت الملائكة تقوم ، مع أنه كان لا يعرف الناس!

وشهد أيضاً صلى الله عليه وسلم بأن العالِم يستغفر له مَنْ في السماوات والأرض ، وأيُّ منصبٍ أعظم من منصب من تشتغل ملائكة السماوات والأرض بالاستغفار له ؟ فهو مشغول بما هو فيه ، وهم مشغولون بالدعاء له .

وشهد صلى الله عليه وسلم بأن العالم أفضل من العابد بدرجات كثيرة ، مع أن العابد لا يخلو أيضاً من علم بعبادته ، وإلاّ . . لم تُسمَّ عبادة ، وبأن العلماء ورثة الأنبياء ، ومعلوم : أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل أهل الجنة ، وهو الأنيس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدِّث في الخلوة ، والدليل على السراء

والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ؛ يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة ؛ تُقتص آثارهم ، ويُقتدىٰ بأفعالهم ، ويُنتهىٰ إلىٰ رأيهم ، ترغب الملائكة في خُلتهم[1] ، وبأجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامّه ، وسباع البر وأنعامه ؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العُلىٰ في الدنيا والآخرة ، والتفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به تُوصَل الأرحام ، وبه يُعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعه ، يُلهَمُهُ السعداء ، ويُحرَمُهُ الأشقياء » رواه ابن عبد البر وحسَّنه .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم : أن المطلوب من هـٰذا الباب معرفة فضيلة العلم ، وما لم تُفْهَم الفضيلة في نفسها ولم يُتَحقق المراد منها . . لم يمكن أن يُعلم أن وجودها صفةُ فضلٍ للعلم أو لغيره ؛ فلقد ضل من طمع أن يعلم أن زيداً حكيم أم لا ، وهو بعد لم يعرف معنى الحكمة وحقيقتها ، فالفضيلة مأخوذة من الفضل ، وهو الزيادة ، فإذا تشارك اثنان في أمر واختص أحدهما بمزيد . . يقال : فَضَله ، وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء ، كما يقال : الفرس أفضل من الحمار ، بمعنىٰ أنه يشاركه في الحيوانية وفي الحمل ، ويزيد عليه بقوة الكرّ والفرِّ وشدة العدْوِ وحسن الصورة ، فلو فُرِض حمار اختص بزيادة سِلْعة[2] . . لم يُقَل : إنه أفضل من الفرس ؛ لأن تلك الزيادة في الجسم نقص في المعنىٰ ، فإذا فهمت هـٰذا . . لم يَخْفَ عليك أن للعلم فضيلة في نفسه على الإطلاق من غير إضافة ؛ فإنه وصفُ كمال الله سبحانه وتعالىٰ ، وبه تشرفت الملائكة الكرام والأنبياء جميعاً عليهم السلام .

واعلم : أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلىٰ ما يُطلب لغيره ، وإلىٰ

---

(١) **الخُلَّة** : الصداقة المختصة التي لا خلل فيها .

(٢) **السِّلعة** : زيادة في البدن كالغدة .

ما يطلب لنفسه ، وإلىٰ ما يُطلب لغيره ولنفسه .

فالذي يُطلب لغيره كالدراهم والدنانير ؛ فإنهما حجران لا منفعة فيهما ، لولا أنهما يتوصل بهما إلىٰ قضاء الحوائج .

والذي يُطلب لنفسه كالسعادة في الدنيا والآخرة .

والذي يُطلب لنفسه ولغيره فكالسلامة من الآفات والآلام ؛ فإنها مطلوبة من حيث إنها سلامة من الألم ، ومطلوبة للتوصل بها إلى الخيرات في الدنيا والآخرة .

ولا شك أن ما يُطلب لنفسه أفضل مما يُطلب لغيره ، وما يُطلب لنفسه ولغيره أفضل مما يُطلب لغيره فقط! وبهـٰذا الاعتبار إذا نظرتَ إلى العلم. . وجدته كمالاً في نفسه ، فيكون مطلوباً لنفسه ، ووجدته أيضاً وسيلة إلى القرب إلى الله تعالىٰ ، وسعادة الدنيا والآخرة ؛ إذ لا يُتوصل إلىٰ ذلك إلاَّ بالعلم والعمل ، ولا يُتوصل إلى العمل إلا بالعلم . فأصل السعادات كلها في الدنيا والآخرة : العلم ، فهو إذاً أفضل الأشياء .

هـٰذا ، ومما تُعرف به فضيلة الشيء أيضاً ثمرته ، ومعلوم أن ثمرة العلم القرب من الله تعالىٰ ، ومشابهة الملائكة والسعادة الأبدية في الأخرىٰ ، والعزُّ والوقار ونفوذ التصرف حتىٰ على الملوك في الدنيا .

هـٰذه فضيلة العلم مطلقاً ، ثم تتفاوت أيضاً درجات العلوم في نفسها بحسب شرف معلوماتها وثمراتها .

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم ... وعنه فسائل كلَّ مَنْ عندَه فهمُ

ففيه جِلاء القلبِ من شدة العمَى ... وفيه الغنىٰ والكنز إن خُشِيَ العُدْمُ

ألم تر أن الجهلَ يُزْرِي بأهله ... وذا العلمِ في الأقوام يرفعه العلمُ

يُعَدُّ كبيرَ القومِ وهو صغيرهم ... وينفذ منه فيهمُ الأمر والحُكْمُ

فهل أبصرَتْ عيناك أقبحَ منظراً ... مِنَ اشْيَبَ لا حِلْمٌ لديه ولا علمُ

هو السوأة السُّوأىٰ فحاذر سماتها   فــأولُهــا خــزيٌ وآخــرهــا ذمُّ
فخالط رواة العلم وٱصْحَبْ خيارهم   فصحبتهــم زيــنٌ وخلطتهــم غُنْــمُ
ولا تَعْـدُوَنْ عينـاك عنهـم فـإنهـم   نجـومٌ إذا مـا غـاب نجـمٌ بـدا نجـمُ

* * *

بَابُ الاثْنَيْنِ

وَبَادِرْ صِحَّةً لَكَ وَٱلْفَرَاغَا فَكَمْ غُبِنَ ٱمْرُؤٌ بِهِمَا فَرَاغَا
وَأَصْبَحَ نَادِماً عِنْدَ ٱلْحَصَادِ

يجوز أن يقرأ قوله : (**فراغا**) بالراء وبالزاي ، وهما متقاربان في المعنىٰ ، إلا أن الزيغ عن الطريق يكون من غير قصد ، والروغ : ميل بقصد ، وفيه نوع خداع للغير . وكنىٰ بـ(**الحصاد**) عن جزاء الأعمال يوم يكشف الغطاء .

وأصل البيت : قوله عليه الصلاة والسلام : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحّة والفراغ » رواه البخاري ـ رحمه الله تعالىٰ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل أن يحول بينه وبينها شاغل من سقم أو هَرَم أو أمر يشغله عنها فيندم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً ، أو غنىً مُطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنِّداً ـ أي مخلاً بالعقل ـ أو موتاً مُجْهِزاً ـ أي مسرعاً ـ أو الدجال ؛ فشرُّ غائب يُنتظر ، أو الساعة ؛ فالساعة أدهىٰ وأمرُّ ؟! » رواه الترمذي وحسَّنه .

وعن معقِل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول ربكم : يا ابن آدم ؛ تفرَّغ لعبادتي . . أملأ قلبك غنىً ويديك رزقاً ، ولا تباعد عني . . أملأ قلبك فقراً ويديك شغلاً » رواه الحاكم وصححه .

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : « من كانت الدنيا أكبر هَمِّهِ . . فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له منها ، ومن كانت الآخرة أكبر هَمِّهِ . . جمع الله تعالىٰ له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » رواه ابن ماجه ورواته ثقاتٌ ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » بنحوه .

وكتب الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ برسالة إلى الشيخ الكبير أحمد بن سلامة الموصلي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فقال فيها : (ولقد وعظتُ نفسي فقبلت وصدَّقتْ قولاً واعتقاداً ، وتمرَّدتْ تحقيقاً وفعلاً ، فقلتُ لها : هَبي أنكِ ملتِ إلى العاجلة أولستِ مصدِّقةً بأن الموت يأتيكِ لا محالة ، قاطعاً عليكِ ما أنتِ متمسكة به ، وسالباً منكِ ما أنتِ راغبة فيه ؟! وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ فقالت : صدقتَ ، فكان ذلك منها قولاً لا تحصيل وراءه ، ولم تجتهد في رضا الله تعالىٰ كاجتهادها في رضا الخلق ، ولم تشمِّر للاستعداد للآخرة كتشميرها في الصيف لأجل الشتاء ، مع أن الموت ربما اقتطفها قبل أن يدركها الشتاء ، والآخرة عندها يقين لا شك فيه .

فطال تفتيشي عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها ، فإن ذلك من العجائب العظيمة ، حتىٰ علمتُ أن سببه : اعتقاد تراخي الموت ، وعدم اعتقاد هجومه على القرب ، فذلك هو الداء العضال ، الداعي إلى الغرور والإمهال ، فلو أخبره صادق بأنه يموت علىٰ رأس أسبوع أو شهر . . لاستقامَ على الصراط المستقيم ، وترك جميع ما يتعاطاه مما يظن أنه لله ، وهو مغرور فيه ، فضلاً عما ليس لله .

وهـٰأنا موصٍ نفسي وإياك بالحذر منه ، وأوصي نفسي وإياكَ بما أوصىٰ به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « صلِّ صلاة مودِّع » .

ولقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فمن غلب علىٰ ظنه في كل صلاة أنها آخر صلاته . . حضر معه خوفه من الله تعالىٰ ، وإلا . . فلا يزال في غفلة وفتور ، فأوصيك ألاَّ ترضىٰ من نفسك إلا بهـٰذه المنزلة ، واحذر من

خداع النفس ؛ فإنه لا يقف عليه إلا الأكياس . . . والسلام) .

يسعى ابنُ آدمَ في قضا أوطاره ... والموتُ يطلبه علىٰ آثارهِ
ويْحَ ابنِ آدمَ كيف يأمن قلبُه ... أو يطمئن بليله ونهارهِ
يُمسي وقد أمن الدواهي ليلَه ... ولربما طرقته في أسحارهِ
يا ليت شعري كيف يضحك لاهياً ... ويجرُّ بالخُيَلاءِ فَضْلَ إزارهِ
ولعل أيدي الموت قد أخذت له ... ثوباً يُكَفَّن فيه من قَصَّارهِ[1]
لو كان عقلٌ لابن آدم لم يكن ... متشاغلاً باللهو عن تذكارهِ
ما بالُه يُصْفِي الزمانَ ودادَه ... والدهرُ مطبوع علىٰ أكدارهِ
طوبىٰ لعبدٍ لم يجاوزْ حدَّه ... فأثابه الرحمنُ فَضْلَ جِوارهِ
سَلِمَ الورىٰ منه فعاش مسلَّماً ... ومسلِّماً لله في أقدارهِ
فخذ الكفاف وكُفَّ عما فوقَه ... ذخراً فإن الفقرَ في إذخارهِ
من صام عن دنياه لم يَكُ مفطراً ... إلاّ على الفردوس في إفطارهِ
يا رب صبِّرنا علىٰ عمل به ... ترضىٰ وصيِّرنا إلىٰ مختارهِ
فالعبدُ ليس ينالُ ما لم يُعطِهِ ... مولاه والتوفيقُ قطبُ مدارهِ

* * *

---

(١) **القصَّار** : محور الثياب ومبيضها .

وَفِي ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّةِ إِنْ زَهِدْتَا ... وَفِيمَا عِنْدَ أَهْلِيهَا ظَفِرْتَا
مِنَ ٱلْمَوْلَىٰ وَمِنْهُمْ بِٱلْوِدَادِ

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « ازهد في الدنيا . . يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس . . يحبك الناس » قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : هو حديث حسن .

وفيه الحث على التقلُّل من الدنيا والزهد فيها ، وعلى اليأس مما في أيدي الناس ، وقطع الطمع عن الاستعانة بهم في مال أو جاه ، والإرشاد إلىٰ أن الغِنَىٰ عنهم موجب لبقاء ودهِّم ، كما أن في إظهار الحاجة إليهم موجباً لبغضهم إياه ، وإلىٰ أن الزهد في الدنيا موجب لحب الله إياه ؛ لأن الزهد فيها رأس كل حسنة ، كما أن حبها رأس كل خطيئة ، والله يحب المحسنين .

وأما الزهد في الدنيا . . فسنذكره في الباب العاشر .

وأما الزهد فيما في أيدي الناس . . فلأنَّ مَن شاركهم فيما في أيديهم . . أبغضوه ، وسقط من عين الله أيضاً ، حيث لم يُنزِل حاجته به سبحانه ، ويرغب إليه فيما في خزائنه ليغنيَهُ ، ويستغني بفضله عما سواه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس . . لم تُسدَّ فاقته ، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله . . فيوشك الله له برزق عاجلٍ وآجلٍ » رواه أبو داوود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

و(يوشك) أي : يسرع ، وزناً ومعنىً .

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليد العليا خير من اليد السفلىٰ ، وابدأ بمن تَعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنىً[1] ، ومن يستعفف.. يُعِفَّهُ الله ، ومن يَسْتَغْنِ.. يُغْنِهِ الله » رواه البخاري ومسلم .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد ؛ عِشْ ما عشتَ.. فإنك ميت ، واعمل ما شئتَ.. فإنك مَجْزِيٌّ به ، وَأَحْبِبْ من شئت.. فإنك مفارقه ، واعْلَم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزَّه استغناؤه عن الناس » رواه الطبراني بإسناد حسن .

وعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليك باليأس عما في أيدي الناس ، وإياك والطمع ؛ فإنه فقر حاضر ، وإياك وما يُعتَذَر منه » رواه البيهقي والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

وعن الزُّبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحُزمة حطب علىٰ ظهره فيبيعها ، فيكف بها وجهه.. خير له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه » رواه البخاري .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم أن الزمان قد أصبح في فساد عظيم ، وأصبح الناس في ضرر كثير ، فعليك بالتفرُّد عن الخلق ؛ لأنهم يشغلونك عن عبادة الله تعالىٰ ، ويفسدون عليك أيضاً ما حصل لك منها بالرياء والسمعة والتصنّع لهم ، بل يوقعونك في الشر والهلاك ، كما قال حاتم الأصم رحمه الله : طلبتُ من الخلق العبادة والزهادة والطاعة.. فلم يفعلوا ،

---

(١) يعني : أن أفضل الصدقة ما أبقت بعدها غنىً يعتمده صاحبها ويستظهر به علىٰ مصالحه وحوائجه .

فقلت : أعينوني عليها . . فلم يفعلوا ، فقلت لهم : ارضَوْا مني بها إن فعلتُ . . فلم يفعلوا ، فقلت : لا تمنعوني إذاً . . فمنعوني ، فقلت : لا تَدْعوني إلىٰ سخط الله تعالىٰ . . فدَعَوْني ، فتركتهم ، واشتغلت بخاصة نفسي .

ثم اعلم أن نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم وصف زمان العزلة ، وأمر فيه بالتفرد ، وكان لا محالة أنصح لنا منا لأنفسنا ، وجميعُ ما ذُكر قد وُجد منذ زمان!

ثم إن السلف ـ رضي الله عنهم ـ قد أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله ، وآثروا العزلة وأمروا بها ، ولا شك أن الزمان لم يَصِر بعدهم خيراً مما كان ، بل شراً منه ، وكان لهم من العلم ما ليس لنا ، فكيف بنا علىٰ قلة علم ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ؟! فَلزِمَتك العزلة والتفرد عن الناس .

ثم اعلم ـ رحمك الله ـ أن الناس رجلان :

رجل لا حاجة للخلق إليه في علم أو بيان حُكم ، فالأولىٰ بهٰذا الرجل التفرد عن الناس ، فلا يخالطهم إلا في جمعة أو جماعة أو مجلس عِلم ، أو حاجة لا بد له منها في معيشته .

والثاني : **رجل** يحتاج إليه الناس في أمر دينهم لبيان حق أو ردّ علىٰ مبتدع أو دعوة إلى الخير بقول أو فعل أو نحو ذلك ، فلا يسع هٰذا الرجل الاعتزالُ عن الناس ، بل يُنَصِّب نفسه بينهم ناصحاً لخلق الله تعالىٰ ، ذاباً عن دين الله ، مبيِّناً لأحكام الله ، ومثل هٰذا الرجل يَحتاج في صحبة الناس إلىٰ أمرين شديدين :

أحدهما : صبر طويل ، وحلم عظيم ، ونظر لطيف ، واستعانة بالله دائمة .

وثانيهما : أن يكون معهم بشخصه ، ومنفرداً عنهم بقلبه ؛ فإن كلموه . . كلمهم ، وإن زاروه . . عظمهم علىٰ قدرهم وشكرهم ، وإن سكتوا وأعرضوا

عنه . . استغنم ذلك منهم ، وإن كانوا في حق وخير . . ساعدهم ، وإن صاروا إلىٰ شرّ وباطل . . خالفهم وهجرهم ؛ بل زجرهم وردَّ عليهم إن رجا قبولهم ، ثم يقوم بجميع حقوقهم من الزيارات والعيادات وقضاء الحاجات ما أمكنه ، ولا يطالبهم بالمكافأة ، ولا يرجو ذلك منهم ، ولا يُريهم من نفسه انقباضاً لذلك ، ويباسطهم بالبذل إذا قدر ، وينقبض عنهم في الأخذ إذا أُعْطِيَ ، ويتحمل الأذىٰ منهم ، ويُظْهر لهم البِشر ، ويتجمل بظاهره لهم ، ويكتم عنهم حاجاته ، فيقاسيها ويعالجها في سره وباطنه ، ويرفعها إلى الله تعالىٰ .

ثم يحتاج أيضاً أن ينظر لنفسه خاصة ، فيجعل لها حظاً من العبادة الخالصة ، كما قال عمر رضي الله عنه : إن نمت الليل . . ضيّعت نفسي ، وإن نمت النهار . . ضيَّعت الرعية ، فكيف لي بالنوم بين هاتين ؟!) .

وفي هٰذا المعنىٰ قلت :

فإن كنتَ في هَدْيِ الأئمة راغباً	فوطِّنْ علىٰ أن ترتَكِبك الوقائعُ
بنفس وقُور عند كل كريهة	وقلبٍ صبور وهو في الصدر مائعُ
لسانك مخزونٌ وطرفك مُلْجَمٌ	وسرُّك مكتوم لدى الربِّ ذائعُ
وذكرك مهجور وبابك مغلَق	وثغرك بسَّام وبطنك جائعُ
وقلبك مجروح وسُوقك كاسد	وفضلك مدفون وطعنك شائعُ
وفي كل يوم أنت جارعُ غصّةٍ	من الدهر والإخوانِ والقلبُ طائعُ
نهارُك شغل الناس من غير مِنَّةٍ	وليلك شوق غاب عنه الطلائعُ
فدونك هٰذا الليل خذه ذريعة	ليومٍ عَبوسٍ عزَّ فيه الذرائعُ

* * *

وَلاَ تَبْخَــلْ بِهَــا وَتَسُــوءَ خُلْقَــا فَمَــا اجْتَمَعَــا مَــعَ الإِيمَــانِ حَقَّــا
وَكُــنْ سَمْحاً بِهَـا سَلِسَ الْقِيَـادِ

أي : واحذرْ كل الحذرِ أن يجتمع فيك البخل وسوء الخلق ؛ فإنهما لا يجتمعان مع الإيمان الحقيقي ؛ إذ البخل نتيجة سوء الظن بالله وعدم الوثوق بضمانه ، وسوء الخلق نتيجة ضيق الصدر ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ .

والواو في قوله : (**وتسوء خلقاً**) بمعنىٰ (مع) فالفعل منصوب بها .

و(**السَّمْحُ**) : السهل الجواد . و(**السَّلِسُ**) : اللَّيِّن .

و(**القياد**) : ما تُقاد به الدابة من عِنان أو خِطام ، ولينُه دليل علىٰ عدم صعوبتها ، وكنَىٰ به عن لِيْن الأخلاق .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « خَصلتان لا تجتمعان في قلب مؤمن : البخل وسوء الخلق » رواه الترمذي ـ رحمه الله ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وفي الحديث غاية التحذير من كل من هاتين الخصلتين ؛ فإن ما ينتفي معه كمال الإيمان . . فإيمان صاحبه ناقص ضعيف ، ويخشىٰ عليه ـ والعياذ بالله ـ أن يؤول إلىٰ سلب أصل الإيمان عند استحكام تلك الصفة ، ويؤدي ذلك إلى الخوف من سوء الخاتمة ، نسأل الله العافية .

أما ذم البخل ومدح السخاء . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا وملكان يناديان فيقول أحدهما : اللهم ؛ أعط

منفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم ؛ أعط ممسكا تَلَفاً » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم ؛ إنك أَنْ تبذُلَ الفضل خيرٌ لك ، وأَنْ تُمسكهُ شرٌّ لك ، ولا تُلام علىٰ كفافٍ » رواه مسلم .

و(الكفاف) : قدر الحاجة ، و(الفضل) : الزائد .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : « بعث[1] الله إلىٰ عبدين من عباده بعد موتهما ، كان أكثرَ لهما من المال والولد ، فقال لأحدهما : كيف صنعتَ فيما آتيتك ؟ قال : تركتُه لولدي مخافة الفقر عليهم . قال : أما وثقتَ لهم بطَولي ؟ فإن الذي تخوفتَ عليهم قد أنزلتُهُ بهم . وقال للآخر : كيف صنعتَ فيما آتيتك ؟ قال : أنفقتُه في طاعتك ، ووثقت لولدي بحسن طَوْلك . قال : فإن الذي وثقتَهُ لهم قد أنزلتُهُ بهم » رواه الطبراني .

و(الطول) بفتح الطاء : الغنىٰ والمقدرة والسعة .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم : أن البخل من المهلكات العظيمة ، وأصل البخل حبُّ المال ، إمَّا بالإمساك في حق من له مال ، وإما بحبه في حق من لا مال له .

واعلم : أن المال ليس وجوده مذموماً من كل وجه ؛ إذ العبد مسافر إلى الله تعالىٰ ، وبدنُه مركبه ، ولا بد له من مطعم وملبس ومسكن ، لٰكن مَن فَهِم المقصودَ من المال . . لم يأخذ منه إلا قدر الزاد ؛ فإن زاد . . كان كالمسافر إذا حمل أثقالاً لا يحتاج إليها . . هلَك تحت أثقالها ، ولم يكن يبلغ المقصد ، فكذلك الزيادة علىٰ قدر الكفاية مَهلكة ؛ لأنها تدعو النفس إلى المعاصي ؛ لأنها تمكن منها ، ومن العصمة ألاَّ تقدر ، والصبر مع القدرة شديد ، ولأنها

---

(١) البعث هنا : الإحياء من الله تعالىٰ لهما .

أيضاً تلهي عن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ وعبادته التي فيها سعادة الأبد ، وفي تضييعها خسران الأبد ، ولهٰذا قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ وذلك لما يزدحم على القلب من خصومة الأُجَراء ومحاسبة الشُّركاء ، والفكر في أخذ الحذر منهم ، وتدبير استنماء المال ، وكيفية تحصيله أولاً ، ثم حفظه ثانياً ، ثم إخراجه ثالثاً ، وكل ذلك شاغل للقلب والبدن عن عبادة الله تعالىٰ ، صارفٌ لوجه القلب إلى الدنيا ، بِحُكْمِ تَعَلُّقِهِ بِهَا ، وذلك سبب لكراهة الموت الذي فيه لقاء الله ، ومن كره لقاءَ الله . . كره الله لقاءه ، هٰذا مع ما يترتب علىٰ ذلك في الدنيا عند طلب المال والجاه من التودد إلى الناس ، والرياء والتصنع والنفاق والمحاباة في دين الله ، ثم من العداوة والبغضاء عند المنافسة ، ويتشعب من ذلك آفات كثيرة من المهلكات) .

وأما حُسْن الخلق . . فقد قال الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مظهراً للمِنَّة علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق ، مكمِّلاً له أيضاً بأحسن الآداب : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ فلما تأدب بآداب مولاه تعالىٰ . . أثنىٰ عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحِّشاً ، وكان يقول : « إن من خياركم عند الله أحسَنكم أخلاقاً » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله تعالىٰ يُبغِض الفاحش البذيء » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

و(البذيء) بالباء الموحدة والذال المعجمة : الذي يتكلم بالقبيح وما يُسْتَحْيَىٰ من ذكره .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها ، وخالقِ الناس بخُلُق حسن » رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن المؤمنَ ليُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِهِ درجةَ الصائم القائم » رواه أبو داوود وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرطهما .

وروى الترمذي عن ابن المبارك رحمه الله تعالىٰ قال : (حُسن الخلق : طلاقة الوجه وبذل المعروف ، وكف الأذىٰ) .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (قد كَثُرت الأقاويل في حقيقة حسن الخلق ، والأكثرون تعرضوا لبعض ثمراته .

والذي يُطلعك علىٰ حقيقته أن تعلم أن الخَلْق والخُلُق عبارتان عن الصورة الظاهرة والباطنة ؛ لأن الإنسان مركب من جسم يُدرك بالبصر ، ونفس تُدرك بالبصيرة ، ولكل منهما صورة : إما حسنة ، وإما قبيحة .

وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم إلا بحسن أركانه من العين والأنف والفم وغيرها ، فلا يوصف الظاهر بالحسن إلا بحسن جميعها . . فكذلك الصورة الباطنة لها أركان لا يتم حُسن الخُلُق إلا بها ، وهي أربعة :

قوة العقل[1] ، وقوة العدل ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، فإذا اعتدلت هٰذه الأربعة . . تم حسن الخلق .

أما قوة العقل . . فاعتدالها وحسنها : أن تصير بحيث يدرك بها الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، فإذا صلحت هٰذه القوة كذلك . . أثمرت الحكمة ، وهي أسُّ الفضائل ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

---

(١) عبر الغزالي عنها في « الإحياء » بقوة العلم .

وأما قوتا الغضب والشهوة. . فاعتدالهما : أن يكون انقباضهما وانبساطهما مقصوراً علىٰ موجب إشارة الحكمة والشرع .

وأما قوة العدل. . فهي في ضبط هٰذه القوى الثلاث تحت إشارة الدِّين والشرع ؛ فإن العقل منزلته منزلة الوزير ، وقوة العدل منزلتها منزلة المنفِّذ الممضي لإشارة الشرع ، والغضب والشهوة هما اللذان تنفذ بهما الإشارة ، وهما كالكلب والفرس للصياد ، ولا يتم حسن الخلق إلا باعتدالهما من غير مَيل إلىٰ إفراط ولا تفريط ، فلو حَسُن بعضها دون بعض . . كان كما لو حَسُن بعض أعضاء الوجه دون بعض ، وذلك يمنع إطلاق اسم الحُسْنِ عليه .

ثم إذا حَسُنت هٰذه واعتدلت . . أثمرت جميعَ الأخلاق المحمودة ، وإن مالت عن حد الاعتدال بإفراط أو تفريط . . تولَّد منها كلُّ خلق مذموم .

أما قوة العقل. . فيصدر من اعتدالها : حسن التدبير ، وثقابة الرأي ، وجودة الذهن وإصابة النظر ، والتفطن لدقائق الأمور وآفات النفس وغير ذلك ، فإن مالت إلى الإفراط . . تولد منها : المكر والخداع والدهاء ، أو إلى التفريط . . تولد منها : الحُمق والغباوة والبَلَه .

وأما قوة الغضب. . فيحصل من اعتدالها : الشجاعة والكرم والنجدة والشهامة والثبات والحلم والاحتمال وكظم الغيظ والوقار ، ومن إفراطها التهور والعجب والكبر ، ومن تفريطها : الجبن والخساسة وقلة الغَيرة وضعف الحمية وصغر النفس .

وأما قوة الشهوة. . فيُثْمِر من اعتدالها : العفة والسخاء والحياء والصبر والسماحة والورع والقناعة ، ومن إفراطها : الشره والحرص والوقاحة والمجانة[1] والمَلق[2] والحسد ، ومن تفريطها : التبذير والتذلل والجمود وغير ذلك .

---

(١) **المجانة** : عدم المبالاة قولاً وفعلاً .

(٢) **الملق** : التودد واللطف ، وأن يعطي باللسان ما ليس في القلب .

ومعنىٰ حُسْن الخُلُق في الجميع : توسط واعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وقال الله تعالىٰ : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ومهما مالت واحدة من هٰذه الأخلاق إلىٰ إفراط أو تفريط . . مُنع إطلاق حُسْن الخُلُق ، وطريق إصلاح هٰذه الأخلاق كلها بالرياضة والمجاهدة ، كما ذكرناه في كتاب رياضة النفس من « الإحياء » على التفصيل) اهـ

* * *

بَابُ الثَّلَاثَةِ

> وَصِلْ وَٱسْمَحْ لِمَنْ أَوْلَاكَ قَطْعًا ... تَفُزْ بِمَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ جَمْعًا
> وَثَالِثُهَا ٱعْفُ عَنْ ظُلْمِ ٱلْمُبَادِي

أي : وصل واسمح لمن أولاك القطيعة والحرمان ، ففيه اللف والنشر والاكتفاء .

ومن **اللف والنشر** قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

ومن **الاكتفاء** قوله تعالىٰ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ أي : والبرد ، فتركه للعلم به .

و(**المُبَادِي**) : هو المجاهر بالسوء .

وأصل البيت : قوله صلّى الله عليه وسلّم : « ثلاثٌ من كنَّ فيه . . فقد جمع مكارم الأخلاق : أن تصِلَ من قطعك ، وتُعطيَ من حرمك ، وتَعفوَ عمن ظلمك » كذا هو في رواية ، وفي « الترغيب والترهيب » للحافظ عبد العظيم المنذري ـ رحمه الله ـ عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلك علىٰ أكرم أخلاق الدنيا والآخرة ؟ أن تصلَ من قطعك ، وتعطيَ من حرمك ، وتعفوَ عمن ظلمك » أخرجه الطبراني .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كُنَّ فيه . . حاسبه الله حساباً يسيراً ، وأدخله الجنة برحمته : أن تصلَ من قطعك ، وتعطيَ من حرمك ، وتعفوَ عمن ظلمك » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي : واتقوا

الأرحام فصلوها ولا تقطعوها ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ إن لي قرابة أصِلهم ويقطعوني ، وأُحسن إليهم ويُسيئون إليّ ، وأَحلُم عنهم ويجهلون عليّ! فقال : « لئن كنتَ كما قلت . . فكأنما تُسِفهم الملَّ ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علىٰ ذلك » رواه مسلم .

و(تُسِفُّهم) بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء ؛ أي : فكأنما تطعمهم الملَّ ، وهو الرماد الحار ، وهو كناية عما يلحقهم من الإثم بإدخالهم الأذىٰ علىٰ مَن يُحسن إليهم .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله للرحم : مَن وصلكِ . . وصلته ، ومَن قطعكِ . . قطعته » رواه البخاري .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الرحم معلقة بالعرش تقول : مَن وصلني . . وصله الله ، ومَن قطعني . . قطعه الله » رواه البخاري ومسلم .

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة : الصدقُة علىٰ ذي الرحم الكاشح » رواه ابن خزيمة في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم .

و(الكاشح) : المضمر العداوة تحت كشحه ، وهو خَصره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي بعثني بالحق نبياً ؛ لا يقبل الله صدقةً من رجل وله قرابة محتاجون إلىٰ صلته ويصرفها إلىٰ غيرهم ، والذي نفسي بيده ؛ لا ينظر الله إليه يوم القيامة » رواه الطبراني ، ورواته ثقات .

* * *

وَإِنْ حَدَّثْتَ فَٱصْدُقْ أَوْ وَعَدْتَا   فَلاَ تُخْلِفْ بِهِ وَإِذَا ٱئْتُمِنْتَا
فَصُنْ حِفْظَ ٱلأَمَانَةِ بِٱفْتِقَادِ

أي : بتعهد ومراعاة .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث . . كذب ، وإذا وعد . . أخلف ، وإذا ائتمن . . خان وإن صام وصلىٰ وزعم أنه مسلم » رواه البخاري ومسلم ـ رحمة الله عليهما ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

و(آية المنافق) أي : علامته الظاهرة التي يُستدل بها علىٰ نفاقه في الباطن ، وإن تظاهر بشعائر الإسلام ، وفي ذلك غاية الزجر عن هٰذه الخصال لمن وفقه الله تعالىٰ .

وقد جاء أيضاً في ذمّها ومدح أضدادها المأمور بها في النظم ، وهي : الصدق ، والوفاء ، وحفظ الأمانة . . . أدلة كثيرة .

أما مدح الصدق وذم الكذب . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدُقُ حتىٰ يكتبَ عند الله صدِّيقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذِبُ حتىٰ يكتبَ عند الله كذَّاباً » رواه البخاري ومسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما كان من خُلقٍ أبغض إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة ، فما تزال في نفسه حتىٰ يَعلم أنه قد أحدث فيها توبة) رواه الإمام أحمد ، وابن حِبان في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كذب العبد . . تباعد المَلَك عنه ميلاً من نَتْنِ ما جاء به » رواه الترمذي وحسنه .

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ويلٌ للذي يحدِّث بالحديث الكذب ليُضْحِك به القوم! ويلٌ له ، ويل له » رواه أبو داوود والترمذي وحسنه .

وعن صفوان بن سُلَيم رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ؛ أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : « لا » ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ رواه الإمام مالك .

وأما مدح الوفاء وذم الخُلْف . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اضمنوا لي ستّاً . . أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا الأمانة إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم » رواه الإمام أحمد وابن حِبان في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وأما مدح أداء الأمانة وذم الخيانة . . فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُطبَع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب » رواه الإمام أحمد .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم « أربع إذا كن فيك. . فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظُ أمانة ، وصدقُ حديث ، وحسنُ خليقة ، وعفةٌ في طُعمة »[1] رواه الإمام أحمد وغيره بأسانيد حسنة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (يؤتىٰ بالعبد يوم القيامة وقد قُتِل في سبيل الله شهيداً فيقال له : أَدِّ أمانتك ، فيقول : أيْ ربِّ ؛ كيف وقد ذهبت الدنيا عني ؟ فيُنْطَلَقُ به إلى الهاوية ، وتُمثَّل له الأمانة كهيئتها يوم دُفعت إليه ، فيراها فيعرفها ، فيهوي في أثرها حتىٰ يدركها فيحملها علىٰ عنقه ، حتىٰ إذا ظن أنه خارج. . زلت عن منكبيه ، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين) رواه الإمام أحمد وجوَّد إسناده .

* * *

(١) **الطُّعْمَة** : وجه المكسب .

وَعَاصِ ٱلْمُهْلِكَاتِ أَيِ ٱتِّبَاعَا هَوىً وٱلْعُجْبَ وَٱلشُّحَّ ٱلْمُطَاعَا
لِتَنْجُوَ بِٱلْفَلَاحِ وَبِٱلرَّشَادِ

أي : خالف مقتضاها واعمل بضده ، وذلك بأن تخالف الهوىٰ وتتبع السُّنة ، وتستعمل التواضع ، وترى المنة لله تعالىٰ بدل الإعجاب ، وتسمح بما يجب عليك شرعاً ومروءة بدل الشح ؛ لتنجو من المهلكات ، وتحوز الفلاح إذا عصيت الشح ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وتحوز الرشاد إذا خالفت الهوىٰ ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىٰ متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبراني .

و(الشح) هو البخل ، وقيل : (الشح) البخل بما عندك مع زيادة الحرص علىٰ ما ليس عندك .

وعن أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىٰ متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه . . فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام » رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجه .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكونَ هواه تبعاً لما جئتُ به » حسنه النووي .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظُّلْمَ ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك مَن كان قبلكم ، حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يجتمع شحٌّ وإيمان[1] في قلب عبدٍ أبداً » رواه النسائي وابن حِبان في « صحيحه » ، والحاكم بإسناد علىٰ شرط مسلم .

وقد سبق في ذم البخل في الباب الثاني ما فيه كفاية ، ويأتي في (باب العشرة) ذم العجب إن شاء الله .

وأما مخالفة الهوىٰ باتباع السنة : فقد سبق فيه بعض الأدلة .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وعن عمرو بن عوف رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني أخاف علىٰ أمتي من ثلاث : من زلة عالم ، ومن هوىً متبع ، ومن حكم جائر » رواه البزار والطبراني .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تحت ظل السماء من إلـٰه يُعبد أعظم عند الله من هوىً متبع » رواه الطبراني .

وإنما جعل الهوىٰ إلـٰهاً ؛ لأن من أطاع هواه . . فقد عبده من دون الله ، ولهـٰذا قال الله تعالىٰ : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ الآية .

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجِلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ؛ كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي ، وإنه من يعش منكم . . فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » رواه أبو داوود والترمذي وصححه ، وابن حبان في « صحيحه » .

و(**النواجذ**) بالنون والجيم والذال المعجمة : الأنياب .

---

(١) أي : إيمانٌ كاملٌ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم : أن مفتاح السعادة اتباع السنة ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع مصادره وموارده وحركاته وسكناته ، حتىٰ في هيئة أكله وشربه وقيامه وقعوده ونومه ، ولست أقول ذلك في أمور العبادات فقط ، بل وفي أمور العادات ، فبذلك يحصل الاتباع المطلق ، ولعلك تشتهي الوقوف على السبب المرغِّب في اتباع السنة . . فاعلم أن شرح ذلك يطول ، لـٰكن ينبغي أن تفهم أن ذلك ينحصر في ثلاثة أنواع :

الأول : اعلم أن القلب كالمرآة ، ولا تتجلىٰ فيه الحقائق إلا بتصقيله وتنويره وتعديله ، أما تصقيله . . فبإزالة الأخلاق المذمومة ، وأما تنويره . . فبأنوار الذكر ، وأما تعديله . . فباتباع السنة ؛ فإن ذلك يُحدث فيه هيئة معتدلة يستعد بها لقبول الحقائق علىٰ ما هي عليه ، كما تستعد المرآة المعتدلة لمحاكاة الصور من غير اعوجاج .

الثاني : اعلم أن تأثير الأعمال ينقسم إلىٰ : ما يُفهم منه وجه المناسبة في السعادة والشقاوة ، وإلىٰ ما لا يوقف عليه إلا بنور النبوة ، وهـٰذا كما أن تأثير الأدوية في البدن منه ما يعقل تأثيره بنوع من المناسبة إلى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، ومنه ما لا يُدرك بالقياس ، بل بخاصية وقف عليها ، إما بطول تجربة أو إلهام .

فإذا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد عدل عن أحد أمرين إلىٰ آخر مع استوائهما عندك . . فاتبعه ، واعلم أنه قد اطلع بنور النبوة علىٰ سِرٍّ فيه ، وكوشف به من عالم الملكوت ، وأنت إذا أتيت بذلك . . انتفعتَ به وإن لم تعلم أسراره ، كما ينتفع شارب الدواء بشربه وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه ، ولا تَرضَ لنفسك أن تصدِّق الطبيب النصراني فتقلده في خواص الأدوية والأحجار ، ولا تصدق النبي صلى الله عليه وسلم المختار المكاشَف بالأسرار .

الثالث : اعلم أن سر سعادة الإنسان في التشبه بالملائكة الكرام ، وشقاوته بالتشبه بالبهائم ؛ لأن الملائكة خلقوا من عقل مَحْض ، والبهائم من شهوة محضة ، والإنسان مركب من عقل وشهوة ، ومن صفات الملائكة أنهم ينقادون لأمر الله ونهيه ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومن طبع البهائم أنها مهملة سُدىً ، تسترسل في اتباع شهواتها بحسب ما يقتضيه طبعها ، ومهما أَلِفَ الإنسان اتباع هواه . . غلبت عليه صفة البهيمية ، فسعادته حينئذ في الاقتداء بالسنة في حركاته وسكناته ، وتحت هٰذا سِر عظيم في تزكية النفس ، وتكفيك هٰذه التنبيهات في سرِّ اتباع السنة .

ثم هٰذا التحريض إنما هو في أمور العادات ، وأما أمور العبادات . . فلست أعرف لإهمال السنن الواردة فيها من غير عذر إلا كفراً خفياً أو حُمقاً جلياً ؛ إذ لا مَحْمِلَ له سواهما) اهـ

ولي من قصيدة :

عِلم المحجة واضح لمن اهتدى ... فحذارِ من سبُلِ الغَواية والرَّدىٰ
هٰذي شريعةُ أحمد الغراءُ قد ... جُليت كإسفار الصباح إذا بدا
بيضاءَ كالشمس المنيرة ليلُها ... كنهارها فتوخَّها لك مقصَدَا
واستَن سُنَّتَهُ القويمةَ واعتصم ... بكتابه وحديثِه تلقَ الهُدىٰ
وإذا أَظَلَّك ليلُ شبهَةِ بدعة ... حار القَويُّ بِتَيْهِها وترددا[1]
فبأي أنجمِ صحبِ أحمدَ تقتدي ... تُهدىٰ وحُقَّ بمثلهم أن يُهتدىٰ

* * *

---

(١) في (ب) : (حار الغوي) .

بَابُ الأَرْبَعَةِ

وَكُـنْ بِكِتَـابِ عُمْـرٍ ثُـمَّ رِزْقٍ ... وَسَعْـيٍ وَٱلَّـذِي يُـدْنِـي وَيُشْقِـي
عَلِيْمـاً مُـوْقِنـاً بِـالِاعْتِقَـادِ

المراد بـ(**العمر**) : الأجل . وبـ(**السعي**) : العمل .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم يُجمَع خلقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملَكَ فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بِكَتْبِ رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، فوَالذي لا إلـٰه غيره ؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلُها! وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخلُها » رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وهـٰذا الحديث أصلٌ في الإيمان بالقدَر ، ومعناه : أن الله سبحانه وتعالىٰ قدر الأشياء كلها في الأزل ، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة ، وعلىٰ صفات مخصوصة ، فهي واقعة علىٰ وفق ما عَلِمَها ، وعلىٰ حسب ما قدرها ، والإيمان بذلك واجب ، وعليه أجمع أهل السنة ، خلافاً للقدَرية المبتدعة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ وقال

تعالىٰ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ وقال : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « يا غلام ؛ إني أعلمك كلمات : احفظ الله . . يحفظك ، احفظ الله . . تجده تجاهك ، إذا سألتَ فاسأَلِ الله ، وإذا استعنت . . فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء . . لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء . . لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية غير الترمذي : « احفظ الله . . تجده أمامك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء . . يَعرِفْك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

واعلم أن مذهب أهل السنة : أن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالىٰ ، وأنه تعالىٰ أوجدها وأبدعها وحده لا شريك له ولا معين ، وأنه تعالىٰ خلق الخلق وأعمالهم وقدَّر أرزاقهم وآجالهم ، وأنه تعالىٰ مريد لجميع الحادثات ، مدبر لكل الكائنات ، فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكران ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان . . إلا بقضائه وقدَره وحكمه وإرادته ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا يخرج عن مشيئته فَلْتَةُ خاطر ، ولا لفتة ناظر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته وعصمته ، ولا قوة له علىٰ طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ، ولو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين علىٰ أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته . . لعجزوا عنه : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ .

بل هو سبحانه الذي له الخلق والأمر ، وله الملك وله الحمد في الدنيا والآخرة ، له الملك كله وله الأمر كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، يدبر الأمر ، ويؤتي الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويداول الأيام بين الناس ، ويقلب الليل والنهار ، كلَّ يوم هو في شأن : يغفر ذنباً ، ويفرج هماً ، ويكشف كرباً ، ويجبر كسيراً ، ويغني فقيراً ، ويهدي ضالاً ، ويعلِّم جاهلاً ، وينصر مظلوماً ، ويقصم ظالماً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

قلوب العباد ونواصيهم بيده ، فما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها ، وأزمَّة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء ، على الوصف الذي يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تقدم ولا تأخر ، أمره وسلطانه نافذ في السماوات وأقطارها ، والأرض وبحارها . ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

ثم اعلم أيضاً أنه ليس معنى القدَر إجبار الله العبد وقهره علىٰ كل ما قضاه وقدره عليه ، بل للعبد أفعال اختيارية تسمىٰ : كسباً ، وهي مناط التكليف عند استطاعته وصرف الموانع عنه ، وعليها يترتب المدح والذم ، والثواب والعقاب ، وهي ـ أيضاً ـ مخلوقة لله تعالىٰ ، واقعة بإرادته ومشيئته تعالى ؛ لأن العبد عند استطاعته إذا قصد الفعل وأراده وصمم عزمه عليه . . أحدث الله فيه قدرة مقارنة للفعل تسمىٰ عند قصد الطاعة : توفيقاً ، وعند قصد المعصية : خذلاناً ، ويكون العبد مضيعاً للتوفيق عند عزمه على المعصية فاستحق العقاب ، ولا يفيده الاعتلال بأن ذلك وقع بمشيئة الله تعالىٰ وقضائه وقدَره ؛ لأن قضاء الله ومشيئته عليه بأن يفعله باختياره ، محقق لوجود الاختيار موجب ، وتعلله بالقدر مع الإصرار على الذنب ذنب آخر أعظم من الذنب ،

ولذلك لم ينفع إبليس قوله : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ ولا أتباعَه قولُهم : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ .

نعم ؛ يجوز الاعتذار بالقدر بعد التوبة والإقلاع عن الذنب علىٰ وجه الإخبار بالحق .

وبالجملة : فإن مَن سبقت له من الله الشقاوة . . فهو صائر إليها ، محجوج بحجة الله البالغة ، ومن سبقت له منه الحسنىٰ . . فأولـٰئك عنها مبعدون « وكل ميسر لما خلق له » ، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ .

فأعمال الخير دلالة ظاهرة على الخير ، لا موجبة له ، وأعمال الشر دلالة ظاهرة على الشر لا موجبة له! كما أن الغيم المتراكم دلالة على المطر لا موجب له ، ولـٰكن من لطف الله تعالىٰ أن المختوم لهم من أهل أعمال الشر بالخير كثير لا يحصىٰ ، والعكس قليل جداً .

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : (واتفق الأئمة علىٰ أن سبيل المعرفة في هـٰذا الباب : التوقُّف مع الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقل ، فمن عدل عن ذلك . . ضل وتاه في مفاوز الحَيرة ، ولم يبلغ شفاء النفس ولا وصل إلىٰ ما يطمئن إليه القلب ؛ لأن القدَر سر من أسرار الله تعالىٰ ، ضرب دونه الأستار ، وحَجَبَهُ عن عقول الأغيار .

فمن استمسك بكتاب الله ، واقتدىٰ بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، واتبع آثار أصحابه رضي الله عنهم . . اتضح له بالبرهان ، بل بالكشف والعِيان ، أن جميع الموجودات من المخلوقات كلها أفعال الله تعالىٰ ، وأنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله ، وأن الكل مسخَّر مقهور تحت قهره ، مردَّد تحت نهيه وأمره ، وكل عطاء ومنع ، وخلق ورزق ، وموت وحياة ، وغير ذلك . . فلا فاعل له على الحقيقة إلا الله ، ومن أيقن بذلك . . لم يلتفت حينئذ إلىٰ سواه ، سبحانه وتعالىٰ ، وكان به ثقته ورجاؤه واعتماده ، وإليه ملجؤه وتفويضه واستناده ، والله ولي التوفيق .

يــدبِّــر المــرءُ أمــراً ثــم يُبْــرِمــه حتمــاً فتصــرفــه عنــه المقــاديــرُ
لِيَعلــم المــرءُ أنَّ الأمــرَ ليــس لــه ولا لــه فيــه تقــديــمٌ وتــأخيــرُ
وللمهيمــنِ فــي أحــوالنــا نظــرٌ وفــوق تــدبيــرنــا للــه تــدبيــرُ

* * *

وَلِلْخُلَفَاءِ فَاْعْتَقِدَنَّ فَضْلاَ   وَتَرْتِيباً وَعُمَّ ٱلصَّحْبَ كُلاَّ
بِحُبٍّ وَٱحْتِرَامٍ فِي ٱقْتِصَادِ

أي : فاعتقد معتقد أهل السنة والجماعة : أن للخلفاء الأربعة ـ وهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ـ فضلاً علىٰ سائر الصحابة ، وأنهم مرتبون في الفضل أيضاً ، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضلهم ، بل أفضل الأمة ، بل أفضل الأولين والآخِرين إلا النبيين ، ثم يليه في الفضل عمر ، ثم عثمان ، ثم عليّ .

ثم يجب علىٰ كل مسلم محبة جميع الصحابة رضي الله عنهم ، واحترامهم من غير غلوّ في ذلك ، كما غلت الروافض والشيعة في حب علي رضي الله عنه[1] .

أما تفضيل الخلفاء الأربعة علىٰ سائر الصحابة . . فبالإجماع ، ولكل منهم ـ رضي الله عنهم ـ من الفضائل ما ذاع وشاع .

أما سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه : فمن مناقبه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أَمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر » رواه البخاري ومسلم .

وناهيك بهٰذه الفضيلة ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم له المنة في عنق كل من أنقذه من النار بالهدىٰ والإيمان ، ثم يعترف بأن للصديق عليه المنة .

ولا شك أن منته صلى الله عليه وسلم على الصديق لا تعدلها منة ؛ ولٰكن

---

(١) ولقد حملهم غلوهم في ادعاء المحبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ على انتقاص الصحابة والطعن فيهم ، بل والإسراف في الطعن والافتراء عليهم ـ رضي الله عنهم ـ وعلىٰ وضع أحاديث لتأييد مفترياتهم ، وشحن كتبهم بما يَبرأ منه إلى الله كل مسلم ، بل كل عاقل ، عاملهم الله بما يستحقون .

أراد إظهار شكره علىٰ صنائعه الجميلة رضي الله عنه ، ويوضح ذلك قوله أيضاً صلى الله عليه وسلم : « ما لأحد عندنا يد إلاّ وقد كافأناه ما خلا أبا بكر ؛ فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة » رواه الترمذي .

قال السهيلي وجماعة من المفسرين : وفيه رضي الله عنه نزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ فوعده الله بالرضا مكافأة له عن نبيه ، وشهد له ـ وكفىٰ بالله شهيداً ـ أنه الأتقىٰ بعد قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، فصار حُكماً منه أنه أكرم الأمة عنده .

وسئل صلى الله عليه وسلم : أيُّ الناس أحب إليك ؟ فقال : « عائشة » . قيل : فمن الرجال ؟ قال : « أبوها » قيل : ثم مَنْ ؟ قال : « عمر بن الخطاب » رواه البخاري ومسلم .

وأوذي أبو بكر فغضب صلى الله عليه وسلم لذلك غضباً شديداً وقال : « هل أنتم تاركون لي صاحبي ؟ هل أنتم تاركون لي صاحبي ؟ هل أنتم تاركون لي صاحبي ـ كررها ثلاثاً ـ إن الله بعثني إليكم . . فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدقتَ ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لي صاحبي ؟ » فما أوذي بعدها أبداً . رواه البخاري .

وقال له أيضاً : « أبشِر فأنت عتيق الله من النار » فسمِّي من يومئذٍ : عتيقاً . رواه الترمذي .

وقال له أيضاً : « أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » أخرجه أبو داوود .

وقال : « ما طلعت شمس ولا غربت علىٰ أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر » رواه المحب الطبري .

وقال : « لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره » رواه الترمذي .

ولما ثَقُل صلى الله عليه وسلم في مرضه . . قال : « مروا أبا بكر فليصل

بالناس » وكان غائباً فقدموا عمر رضي الله عنه ، فلما سمع صوته.. تغيرت حالته ، وأطلع رأسه صلى الله عليه وسلم من الحجرة وهو يقول : « يأبى الله ذلك والمسلمون ـ قالها ثلاثاً ـ مروا أبا بكر فليصل بالناس » رواه البخاري ومسلم .

ووجد خفَّة في مرضه ، فخرج وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكر.. استأخر ، فأومأ إليه : أنْ مكانك ، فلم يستطع ذلك إجلالاً لمنصب النبوة ، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلكَ . رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وزاد : فقال له : « ألست أحقَّ بها ؟ ألست أولَ من أسلم ؟ ألست صاحبَ كذا ؟ ألست صاحبَ كذا ؟ » .

وقد كان فضله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً ، يعلمه الخاص والعام ، حتىٰ إن النبي صلى الله عليه وسلم نصب يوماً لحسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه منبراً فأجلسه عليه وقال : « أسمعني ما قلتَ في أبي بكر » في مشهد عظيم ، فأنشده أبياتاً منها قوله :

إذا تذكرتَ شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خيرَ البرية أتقاها وأعدلَها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
الثانيَ التاليَ المحمودَ سيرتُه ... وأولَ الناس طراً صَدَّق الرسلا
وكان صحبُ رسول الله قد علموا ... من البرية لم يعدِل به رجلا

وأما سيدنا عمر ، وكذلك سيدنا عثمان ، وكذلك سيدنا علي رضي الله عنهم.. فلهم مناقب وفضائل لا تحصر ، ومع ذلك ففضل الصديق أشهر ، وفضل الله عليه أكثر ، كما قال تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

وروى البخاري ومسلم : أنه صلى الله عليه وسلم كان علىٰ حِراء ؛ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ـ وزاد مسلم : وعلي وطلحة والزبير وسعد بن

أبي وقاص ـ فتحرك بهم الجبل ، فركضه النبي صلى الله عليه وسلم برجله وقال : « اسكن حِراء ؛ فما عليك إلا نبي أو صدِّيق أو شهيد » .

وأما ترتيب الخلفاء الأربعة في الفضل : فقد سبق ما يدل تصريحاً وتلويحاً بأن الصديق أفضلهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نفاضل بينهم . أخرجه البخاري .

وللترمذي وأبي داوود : وكنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي : أفضل أمة النبيّ بعده أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان .

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله : إنما لم يذكروا علياً ؛ لصغر سنه يومئذٍ .

وعن محمد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : قلت لأبي : أيُّ الناس أفضل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ـ وفي رواية : سألت أبي عن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أبو بكر . قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر ، قال : وخشيت أن يقول : ثم عثمان فقلت : ثم أنت ؟ فقال : ما أنا إلا رجل من المسلمين » رواه البخاري والإمام أحمد .

وعن علقمة قال : سمعت علياً رضي الله عنه وهو على المنبر يقول : (بلغني أن أناساً يفضلونني علىٰ أبي بكر وعمر ، فمن أُتِيتُ به وقد قال شيئاً من ذلك . . جلدته جلد المفتري ، ألا إن خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم أنا ، وقد رميت بها في رقابكم ، فلا حجة لكم عند الله) رواه المحب الطبري .

وأما تفضيل سائر الصحابة علىٰ سائر الأمة . . فلثناء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم بأبلغ الثناء ، كقوله تعالىٰ : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ

جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

فانظر إلىٰ هـٰذا الثناء العظيم في سورة واحدة من الرب الكريم ، العالم بالسرائر وخفيات الضمائر ، المطلع علىٰ عواقب الأمور ، العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور في كتابه المجيد ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي لا يتصور أن يُبَدَّلَ القول لديه ـ كيف أعدَّ لهم الفلاح ، والجنات والخيرات والرضوان ، ووصفهم بأجل الصفات ، فمَن سَبَّ أحداً منهم أو احتقره أو انتقصه . . فقد زعم أن مدح الله ـ تعالىٰ عن ذلك ـ انقلب ذماً ، وتحول رضاه سُخطاً ، وكذّب بنص القرآن ، وافترىٰ على الله الزور والبهتان .

ومن ذلك : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » رواه البخاري ومسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً . . ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه » رواه البخاري ومسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الله الله في أصحابي ، فمن أحبهم . . فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم . . فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني . . ومن آذاني فقد آذى الله . . ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » رواه البخاري .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اختارني ، واختار لي أصحاباً ، فمن سبهم . . فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرفاً ولا عَدْلاً »[1] رواه المحب الطبري .

واذكر ـ أيضاً ـ ثناءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وتحذيرَه من احتقارهم وسبهم ، وهو صلى الله عليه وسلم الصادق الذي لا ينطق عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحىٰ .

فأيُّ دِين يبقىٰ لمن حادَّ الله ورسوله ، ونسبَهم إلىٰ باطل ؟! أيقول هٰذا الشقي : إن الله أثنىٰ علىٰ من ليس أهلاً للثناء ؟! أم كان غير عالم لما يؤول إليه حالهم ؟! أو عالم به ورضي لرسوله أن يصحبه من يخونه بعده ولا يقوم بطاعته ؟! وأيُّ ظلم أعظم ممن زعم أن أصحاب الرسول منسوبون إلىٰ ظلم أو عدوان ؟! بل أيُّ كفر أعظم من كفره ؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

❊ ❊ ❊

---

(١) **الصرف** : التوبة . **والعدل** : الفدية .

وَوِرْدَ ٱلْبَـاقِيَـاتِ ٱلصَّـالِحَـاتِ فَـرِدْ وَٱلْهَـجْ بِهِـنَّ إِلَـى ٱلْمَمَـاتِ
تَرَى ٱلرِّيَّ ٱلْهَنِيءَ وَأَنْتَ صَادِي

(الورد) : ما يعتاده العبد من صلاة أو قراءة أو ذكر في وقت مخصوص ، مأخوذ من ورد الإبل الماء بحسب عادتها .

و(**الباقيات الصالحات**) : الأعمال الحسنة ، وتسمى الأربع الكلمات الآتية : الباقيات الصالحات أيضاً ، وهن المراد في النظم .

فعن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الكلام إلى الله تعالىٰ أربع كلمات ، لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا جُنَّتكم من النار : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر ؛ فإنهن يأتين يوم القيامة معقِّبات ، وهن الباقيات الصالحات » رواه النسائي والبيهقي والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم .

و(جُنّتكم) بضم الجيم وتشديد النون ؛ أي : ما يستركم ويقيكم منها .

وقد يزاد معهن : (ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » رواه الإمام أحمد وابن حِبان في « صحيحه » والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وقوله في البيت : (فَرِدْ) هو أمر من : ورود الماء ، استعارة لاتخاذهنّ شراباً وغسلاً ، وملازمتهن كما يلازم الماء الذي به حياة الأبدان ، ولهـٰذا قال : (**والهج بهن إلى الممات**) يقال : لهج بكذا : إذا ولع بذكره .

والمراد بـ(**الري الهنيء**) : ما يعود عليه من بركات ذكر الله في الدنيا والآخرة .

و(**الصادي**) : الظمآن ، وذلك يوم عطش الأكباد في القيامة .

وقد جاء في فضل الذكر عموماً ، وفضل هٰذه الكلمات خصوصاً ، ما لا يحصر من آي الكتاب والسنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله . قال : « ذكر الله » رواه الترمذي وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أيُّ العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً » ، قيل : يا رسول الله ؛ ومِنَ الغازي في سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه حتىٰ ينكسر ويختضب دماً . . لكان الذاكر لله أفضل منه وأرفع درجة » رواه الترمذي .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عمل ابن آدم عملاً أنجىٰ له من عذاب الله من ذكر الله » رواه الطبراني وغيره بإسناد حسن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر . . أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقيتُ إبراهيم عليه السلام ليلة أُسري بي فقال : يا محمد ؛ أقرىء أمتك مني السلام ، وأخبرهم : أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان[1] ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلاَّ الله ، والله أكبر » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : (إن العبد إذا قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر . . قبض عليهن ملَك ، فضمهن تحت جناحه وصعد بهن ، لا يمر علىٰ جمع من الملائكة . . إلا استغفروا لقائلهن ، حتىٰ يجيء بهن وجهَ الرحمـٰن جلَّ وعلا ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، ينعطفن حول العرش لهن دَوِيٌّ كدوي النحل تذكِّر بصاحبها ، أما يحب أحدكم أن يكون له مَن يُذَكِّر به ؟ » رواه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما علىٰ وجه الأرض أحد يقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر . . إلا كُفِّرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبد البحر » رواه الحاكم وصححه .

قال الحافظ ابن قيِّم الجوزية رحمه الله : إنما قيّد سبحانه في قوله : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ الذكر بالكثرة ؛ لشدة حاجة العبد إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله . . كانت عليه حسرة يوم القيامة .

---

(١) **قيعان** : أرض سهلة مطمئنة لا جبال فيها ولا آكام .

وفي « البيهقي » عن عائشة رضي الله عنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكرِ الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة » .

وعن معاذ يرفعه : « ليس يتحسر أهل الجنة إلا علىٰ ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها » .

وقال أبو الدرداء : (لكل شيء جِلاء ، وجِلاء القلوب ذكر الله) .

وفي البيهقي مرفوعاً : « لكل شيء صِقالة ، وإن صقالة القلب ذكر الله » .

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس وغيره ، وجِلاؤه ذكر الله ؛ فإنه يجلوه حتىٰ يدعه كالمرآة البيضاء ، فإذا ترك الذكر . . صَدِىء .

وصَدَأ القلب من أمرين : الغفلة والذنب ، وجِلاؤه بأمرين : الذكر والاستغفار ، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته . . كان الصدأ متراكماً علىٰ قلبه ، وإذا صَدِىء القلب . . لم تنطبع فيه صور المعلومات علىٰ ما هي عليه ، فيرى الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، فإن تراكم عليه الصدأ . . أظلم واسْوَدَّ ، وركبه الران الذي قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وحينئذ يفسد تصوره ، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً ، وذلك أعظم عقوبات القلوب : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

وأصل ذلك كله من الغفلة عن ذكر الله ، واتباع الهوىٰ في سخط الله ؛ فإنهما يطمسان نور البصيرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .

فإذا أردت أن تقتدي برجل . . فانظر هل الغالب عليه الذكر أو الغفلة ، وهل الحاكم عليه اتباع الهوىٰ أم السنة ؟ فإن كان من أهل الغفلة والهوىٰ . . فلا تقتد به ولا تتبعه ؛ فأمره فُرُط ـ ومعناه : مضيَّع ؛ أي : أمرُه الذي يجب عليه أن يقوم به ويلازمه وبه رشده وفلاحه . . ضائعٌ ؛ لأنه قد فرط فيه ـ وقد نهى الله سبحانه عن طاعته .

وفي الذكر أكثر من مئة فائدة :

منها : أنه يطرد الشيطان ويقمَعه[1] ، فيحرِّز[2] العبد نفسه منه ، ولو لم يكن في الذكر إلا هـٰذه الخصلة . . لكان حقيقاً بالعبد ألا يفتُر لسانه عن ذكر الله ؛ فإنه لا يدخل عليه العدوُّ إلا من باب الغفلة عن ذكر الله ؛ لأنه جاثم علىٰ قلب ابن آدم ، فإذا غفل . . وسوس ، وإذا ذكر الله تعالىٰ . . انخنس[3] وتصاغر عدوُّ الله حتىٰ يصير كالذباب ، وبهـٰذا سمّي : الوسواس الخناس .

ومنها : أنه يُرضي الرحمـٰن عز وجل ، ويزيل الهم والغم ، ويجلب الفرح والسرور . ويقوي القلب والبدن ، وينوِّر القلب والوجه ، ويجلب الرزق ، ويكسو الذاكر الهيبة والوقار .

ومنها : أنه يوصل العبد إلى المقامات الرفيعة ، كمقام المحبة التي هي قطب رحى الدين ، ومدار السعادة ، فقد جعل الله لكل شيء سبباً ، وسبب المحبة دوام الذكر ، وكما أن الدرس والمذاكرة باب العلم . . فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم .

وكمقام المراقبة والإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه .

وكمقام الإنابة إلى الله ، فمتىٰ لازم العبد ذكر الله تعالىٰ . . أورثه رجوعَه بقلبه إليه في كل أحواله ، فيكون الله لا غيره مفزعه عند النوازل .

وكمقام المعرفة ؛ فإنه كلما أكثر من ذكر الله . . فتح الله له باباً عظيماً من المعرفة .

وكمقام القرب ؛ فإنه علىٰ قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وفي الحديث : « أنا جليس من ذكرني » .

وكمقام الخشية لله ؛ فإنه علىٰ قدر ذكر الله وحضور قلبه فيه تكون خشيته

---

(١) **قمعه** : قهره وأذله .

(٢) **يحرِّز** : يحصِّن ويمنع .

(٣) **انخنس** : تأخر ورجع .

منه ، بخلاف الغافل فإن حجاب الخشية في قلبه رقيق .

ومنها : أنه يورث ذكرَ الله للعبد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ ولو لم يكن في الذكر إلا هـٰذه وحدها . . لكفىٰ بها شرفاً .

ومنها : أنه يؤمِّن العبد من نسيان الله له الذي هو سبب شقاوة العبد في الدنيا والآخرة ، فإن من نسي الله . . نسيه الله ، ومن نسيه . . الله أنساه الله نفسه ومصالحها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ وإذا نسي العبد نفسه . . أعرض عن مصالحها فهلكت ، وصار أمره فُرطاً ، فانفرط عليه أمره وأحاطت به أسباب الخيبة والحرمان والهلاك في معاشه ومعاده ، كما أن من نسي بستانه ومزارعه فلم يقم بها ولم يتعاهدها . . ضاعت وفسدت وهلكت ، ولـٰكن أين هلاك الدين من هلاك المال ؟ فإن هلاك الدين لا صلاح بعده ولا فلاح ، والعياذ بالله تعالىٰ .

ولو لم يكن في الذكر إلا هـٰذه الفائدة . . لكفى! فمن نسي الله . . أنساه نفسه ومصالحها في الدنيا ، ونسيه في العذاب في القبر وفي العقبىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ أي : تُنسىٰ في العذاب ، فلا أمان للعبد من ذلك كله إلا بذكر الله تعالىٰ .

ومنها : أنه يتيسر للعبد وهو علىٰ فراشه أو في سوقه ، فيسبق الصائمَ القائمَ مع الغفلة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فالفضل الذي يترتب عليه لم يترتب علىٰ غيره مع أنه أيسر العبادات! وفي الحديث : « من شغله ذكري عن مسألتي . . أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » وفي « الصحيحين » : « من قال لا إلـٰه إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير في يومه مئة مرة . . كانت له عِدل عشر رقاب[1] ، وكُتِبَتْ له مئة حسنة ، ومحيت عنه مئة سيئة ، وكانت له حِرزاً من

(١) **العدل** : المثل والنظر ؛ أي : معادلٌ ثواب عتقها .

الشيطان يومه ذلك ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ». .

وفيهما : « من قال : سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة . . حُطت خطاياه وإن كانت مثل زبَد البحر » .

وفي « الترمذي » : « من دخل السوق فقال : لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير . . كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة » .

فالذكر يعدل عتق الرقاب وإنفاق الأموال ، والجهاد في سبيل الله ، والصيام والقيام ، والحج والعمرة ، وينوب عن الطاعات النفلية كلها ، سواء كانت بدنية أو مالية ، أو بهما معاً كحج التطوع ، كل ذلك قد جاء في الحديث الصحيح .

ومنها : أنه طريق طائفة أهل الله ، ومنشور الولاية ، فهو باب الدخول على الله ، وهو في طريق القوم بمثابة الطهارة للصلاة ، فمن تطهر . . وجد ربه وناجاه ، ومن وجده . . وجد عنده كل شيء ، كما أن من فقده . . فقد كل شيء !

فالذكر أصل موالاة الله تعالىٰ ، كما أن الغفلة رأس معاداته ، فمن أكثر من ذكر الله . . أحبه ، ومن أحب الله . . أحبه الله ، ومن أحبه الله . . كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ؛ فيسمع بالله ، ويبصر بالله ، وينطق بالله .

ومَن غفَل عن الله وأعرض عن ذكره . . أدّىٰ ذلك إلىٰ أن يكرهَ ذكرَ الله ، وتنفر نفسه عن مجالس ذكر الله وعن الذاكرين الله ، وذلك علامة عداوته لله من حيث لا يشعر . والعياذ بالله .

ومنها : أن مجالس الذكر رياض الجنة ، فمن شاء أن يرتع في رياض

الجنة . . فليذكر الله ، وهي أيضاً مجالس الملائكة الكرام عليهم السلام .

وفي « صحيح مسلم » : « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالىٰ . . إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وفي « الصحيحين » : « إن لله ملائكة يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله . . تنادوا : هلموا إلىٰ حاجتكم ، فتحفهم الملائكة بأجنحتها إلىٰ سماء الدنيا . . . » الحديث .

ومنها : أن الأعمال كلها إنما شرعت لإقامة ذكر الله ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ أي : لأجل ذكري ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أي : أكبر من كل عمل ، والله أعلم .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم أن ما ورد في فضل الذكر من الآيات والأخبار والآثار لا يُحصىٰ ، بل قد انكشف لأرباب البصائر أن ذكر الله تعالىٰ بشروطه وآدابه أفضل الأعمال .

فإن قلت : ما باله مع خفته على اللسان ، وقلة التعب فيه أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ فاعلم : أن تحقيق ذلك لا يليق إلاَّ بعلم المكاشفة ، والقدر الذي يُسمح لك بذكره في علم المعاملات : أن تعلم أن المؤثر النافع للقلب هو الذكر على الدوام مع حضور القلب مع الله ، فأما ذكر اللسان والقلبُ لاهٍ . . فهو قليل الجدوىٰ ، وفي الأخبار ما يشهد لذلك .

فحضور القلب مع الله على الدوام هو المقدم علىٰ سائر العبادات ، بل به شرف سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية .

وللذكر أول وآخر ؛ فأوله يوجب الأنس بالله ، وآخره يوجب الحب لله ، والمطلوب : ألا يَذكُرَ إلا مع الأنس بالله ، والذاكر يكون في البداية متكلفاً لصرف قلبه عن الوسواس ، ولسانه عن اللغو . . إلىٰ ذكر الله ثم يأنس بذكر الله تعالىٰ ، وينغرس في قلبه حب المذكور ، ثم يصير مضطراً إلىٰ كثرة ذكر الله

تعالىٰ ، فإن مَنْ أحب شيئاً . . ولع بذكره ولم يصبر عنه .

وهٰذا معنىٰ قول بعضهم : (كابدت القرآن ثم تنعّمت به) ولا يحصل الأنس إلا بالمداومة والتكلف مدة حتىٰ يصير التكلف طبعاً وعادة ، ثم إذا حصل الأنس بذكر الله . . انقطع عن غير الله تعالىٰ ، وغير الله هو الذي يفارقه عند الموت ، ويبقىٰ معه الأنس بالله تعالىٰ عند الموت وبعده ، فتعظم به سعادته .

ولأجل شرف ذكر الله عظمت مرتبة الشهادة ؛ لأن المقصود حُسن الخاتمة ، ومعنىٰ حسن الخاتمة : أن يودِّع الدنيا وقلبه مستغرق بالله ، والشهيد في صف القتال قد قطع الطمع عن نفسه وماله وأهله وولده ، وعن الدنيا كلها ؛ لأنه إنما يريد الدنيا لحياته ، وهو قد هوَّن علىٰ قلبه الحياة في حب الله وطلب رضاه ، فلا انقطاع إلى الله أعظم من حالة الشهيد إن قتل فيها ، فلو جرح ولم يقتل إلا بعد مدة . . فربما عادت شهوات الدنيا إلىٰ قلبه ، فيقصر عن تلك الرتبة ، وكذلك القلب وإن أُلزم ذكر الله من غير استيلاء . . فهو متقلِّب لا يخلو عن فترة تعتريه ، ولهٰذا عظم خوف أهل المعرفة من سوء الخاتمة ؛ لأن من تمثل في قلبه عند الموت حب الدنيا ومات علىٰ تلك الخاتمة . . فذلك لقلة حظه في الآخرة ؛ فإن المرء يُحشر علىٰ ما مات عليه .

فأسلم الأحوال خاتمة الشهادة إذا كان قصد الشهيد حب الله وإعلاء كلمته ، وهٰذه الحالة هي التي عبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ وحالة الشهيد تلك توافق التحقق بمعنىٰ قول : (لا إلـٰه إلا الله) فإن معناه في الحقيقة : لا معبود إلا الله ؛ ولا مقصود سوى الله ، إذ كل مقصود فهو معبود في المعنىٰ .

فالشهيد قائل بلسان حاله : (لا إلـٰه إلاَّ الله) إذ لا مقصود له سوى الله ، ومَنْ قال ذلك بلسان المقال ولم يساعده لسان الحال . . فهو تحت مشيئة الله ، ولم يؤمَنْ في حقه الخطر ؛ فإن لسان الحال أغلب من لسان المقال ؛ ولهٰذا المعنىٰ فُضِّل قول : (لا إلـٰه إلا الله) علىٰ سائر الذكر ، ثم ورد ذكرها في

بعض الأخبار غير مقيد للترغيب ، وفي بعضها الآخر مقيداً بمن قالها صادقاً مخلصاً من قلبه ونحو ذلك ، وهو المطلوب ، ومعنى الصدق والإخلاص : مساعدة الحال للمقال .

جعلنا الله وإياكم من أهل (لا إله إلا الله) حالاً ومقالاً . آمين ، والله أعلم .

* * *

بَابُ الخَمْسَةِ

وَخَمْسَ قَوَاعِدِ ٱلإِسْلَامِ فَٱعْلَمْ بِهَا وَٱعْمَلْ وَكَمِّلْهَا لِتَسْلَمْ
مِنَ ٱلنُّقْصَانِ وَٱرْقَ لِلازْدِيَادِ

المراد بـ(**الخمس القواعد**) : هي المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم : « بُنِيَ الإسلام علىٰ خمس : شهادة أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

والمراد **بالعلم** بها : اعتقاد وجوبها ، ومعرفة شروطها وأركانها ، وتكميلها بالمحافظة علىٰ فروضها ورواتبها وسننها وآدابها ؛ لأن النوافل جوابر الفرائض ، وبالرقي للزيادة التطلع إلىٰ فهم أسرارها .

أما الشهادتان : فهما أصل الأصول الذي من حُرمها . . فهو من رحمة الله محروم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ .

ومعنىٰ (**لا إلـٰه إلا الله**) : نفي الألوهية عما سوى الله وإثباتها له وحده ، والألوهية : استحقاق صفات الكمال كلها ؛ فلا معبود إلا الله ، ولا خالق ولا رازق إلا الله ، ولا معطي ولا مانع إلا الله ، ولا ضارَّ ولا نافع إلا الله ، وهـٰكذا في جميع الملك والملكوت ، لا يملك أحد مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ولو أمكن أن يكون له سبحانه شريك في الألوهية . . لوجب أن يتصف ذلك الشريك بصفات الألوهية : من نفاذ القدرة ، وشمول العلم ، ولأدىٰ ذلك إلى اختلاف الإرادات ؛ فيريد أحد الإلـٰهين مثلاً وجود شيء ، ويريد الآخر عدمه!

ومحال أن يحصل المرادان معاً ؛ لاستحالة اجتماع الضدين . وكذلك محال ألا يحصل شيء منهما ؛ إذ يؤدي ذلك إلىٰ فساد العالم ، وعدم وجود شيء فيه وهو باطل ، ولم يبق إلا أن يحصل مراد أحدهما فقط ، وذلك دليل علىٰ نفاذ قدرته واستحقاقه الألوهية ؛ فدل ذلك بطريق العقل على امتناع الشريك في الألوهية ، ولهـٰذا قال الله تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ .

ومعنىٰ (**محمد رسول الله**) : أن تعتقد أن الله تعالىٰ أرسل النبيَّ الأميَّ ، العربي القرشيَّ الهاشميَّ ، محمداً صلى الله عليه وسلم إلىٰ كافة الإنس والجن ، وأيده بالوحي ، وألزم الخلق طاعته فيما أمر به ونهىٰ عنه ، وتصديقه فيما أخبر به ، ومنع كمال شهادة التوحيد بلا إلـٰه إلا الله ما لم تقترن بها شهادة الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الصلاة : فالمراد من العلم بها : اعتقاد أن الله تعالىٰ فرض علىٰ عباده خمس صلوات في كل يوم وليلة : هي الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والصبح .

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ أي : فرضاً موقتا بالأوقات المخصوصة .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ أي : فسبحوه حين تمسون .

و(التسبيح) هـٰهنا : الصلاة ، و(المساء) يشمل المغرب والعشاء ، و(حين تصبحون) : صلاة الصبح ، و(عَشياً) : العصر ، و(حين تظهرون) : الظهر .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ أي : أقم الصلاة من دلوك الشمس ـ وهو زوالها ـ إلىٰ

غسق الليل ، وهو اشتداد ظلمته ؛ أي : إن هـٰذا الوقت كله وقت إقامة الصلاة من غير فاصل ، ويشمل ذلك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم قال : ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ سمّىٰ صلاة الفجر قرآناً لاختصاصها بطول القراءة فيها ؛ أي : وصلِّ صلاة الفجر .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك . . عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » رواه البخاري ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فرض الله علىٰ أمتي ليلة الإسراء خمسين صلاة ، فلم أزل أراجعه وأسأله التخفيف حتىٰ جعلها خمساً في كل يوم وليلة » وقال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « أخبرهم أن الله تعالىٰ فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » رواهما البخاري ومسلم .

واعلم : أن أعمال الصلاة أركان ، وأبعاض تشبه الأركان ، وسنن .

فـ(**الأركان**) : تكبيرة الإحرام قاصداً بها الدخول في الصلاة التي يريد فعلها ، والقيام في حق القادر عليه ـ وكذا سائر الأركان ـ والقراءة ، والركوع ، والاعتدال منه ، والسجود مرتين ، والجلوس بينهما ، والقعود في آخر الصلاة ، والتشهد الأخير ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، والسلام ناوياً به الخروج من الصلاة ، وترتيب أفعال الصلاة .

والأبعاض : التشهد الأول ، والقعود فيه ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، والقنوت في اعتدال ثانية الصبح ، والقيام فيه ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه .

والسنن : سائر الهيئات المشروعة فيها من أفعال وأقوال .

وحكم هـٰذه الثلاثة الأقسام : أن الأركان لا بد منها ، ولا تصح الصلاة بدونها ، والأبعاض سنن مؤكدة جداً ؛ فإن من أخل بها . . صحت صلاته ،

وندب له أن يجبر نقصانها بسجود السهو في آخر الصلاة ، والسنن إذا أخلَّ بها . . لم تبطل الصلاة ، ولم يندب له سجود السهو ، لـٰكنه يفوته كمال الفضيلة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قمتَ إلى الصلاة . . فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتىٰ تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتىٰ تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتىٰ تطمئن ساجداً ثم ارفع حتىٰ تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتىٰ تطمئن ساجداً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها » رواه البخاري ومسلم .

وقد اشتمل هـٰذا الحديث الشريف علىٰ أكثر شرائط الصلاة وأركانها ، إلا أنه لم يوجب فيه قراءة (الفاتحة) بعينها ، ولا ذَكَر فيه التشهد ، وبظاهره أخذ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، فقراءة (الفاتحة) بعينها والتشهد الأخير عنده سنتان مؤكدتان .

وقال الأئمة : الشافعي ومالك وأحمد بوجوبهما ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » رواه البخاري ومسلم ، ولِـمَا روى النسائي والبيهقي والدارقطني ـ وقال : إسناده صحيح ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نقول قبل أن يُفرَض علينا التشهد : السلام على الله ، السلام علىٰ فلان ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « قولوا التحيات لله . . . » إلىٰ آخره .

والتشهد الأول ، والتكبيرات كلها ـ سوىٰ تكبيرة الإحرام ـ والتسبيحات . . سنة عند الأئمة : الشافعي ومالك وأبي حنيفة رحمهم الله ، وواجبة كلها عند الإمام أحمد رحمه الله ، لا تصح الصلاة بدونها ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » رواه البخاري .

فمن أراد الاحتياط لدينه . . حافظَ علىٰ جميع أعمال الصلاة ، ولم يتساهل بشيء منها ، وإن قيل بأنه سنة ، خوفاً من الوقوع في خطر البطلان .

قال الإِمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في (أسرار الصلاة) : (اعلم أن لكل واحدة من سنن الصلاة وأذكارها وتسبيحاتها تأثيراً في تنوير القلب ، فحافظ عليها جميعاً ؛ فإن لكل واحدة منها سراً ، وشرح ذلك يطول ، وأنت إذا أتيت بذلك . . انتفعتَ به وإن لم تعلم أسراره كما ينتفع شارب الدواء به ، وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجه مناسبته لمرضه .

واعلم في الجملة : أن الصلاة صورة صوَّرها الله تعالىٰ ، فروحها : النية وحضور القلب ، وأعضاؤها الأصلية : الأركان ، وأعضاؤها الكمالية : الأبعاض .

فالنية تجري منها مجرى الروح ، والأركان تجري منها مجرى الرأس والقلب والكبد ، والأبعاض تجري مجرى اليد والرِّجل والعين والأذن ، وتحسين الهيئات وإكمال الركوع والسجود تجري مجرىٰ حسن الأعضاء وأشكالها وألوانها ، والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجري مجرىٰ آلات الحس المودعة في الأعضاء ، وفهم معاني الأذكار وأسرارها تجري مجرىٰ قوة الحس المودعة في آلات الحسِّ كقوة السمع والبصر .

ثم اعلم : أن تقربك بالصلاة إلى الله سبحانه كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة إلى السلطان ، وقول الفقيه لك في الصلاة الناقصة الأبعاض والسنن : إنها صحيحة ، هو كقول الطبيب لك في الوصيفة المقطوعة الأطراف ، المفقوءة العينين ، المجدوعة الأنف والأذنين : إنها حية غير ميتة ، ولٰكن لا يخفىٰ عليك أن من أهدىٰ وصيفة بهٰذا الوصف كيف يكون حاله عند السلطان ، أيكون ذلك كافياً في التقرب إلى السلطان ونيل الكرامة عنده ؟! أم هو إلى البعد والطرد أقرب ؟!

وفي الحديث : « إن الصلاة قد تُرَدُّ على المصلي فتُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخلق ، ويُضرب بها وجه صاحبها » : لأن المقصود الأصلي من الصلاة التعظيم ، وإهمال آدابها مناف له .

ثم اعلم : أن روح الصلاة هو حضور القلب فيها ، واتصاف القلب بمعانيها ، فلا تركع ولا تسجد إلا وقلبك خاضع متواضع موافقةً لظاهرك ؛ فإن المراد من خضوع البدن خضوع القلب ، وكذلك لا تقل : « الله أكبر » وفي قلبك كبير غير الله ، ولا تقل : « وجهت وجهي » إلا وقلبك متوجه إلى الله غير معرض عنه ؛ فإن المقصود إقبال القلب على الله ، لا الوجه الظاهر ؛ فإنك إنما وجهت وجهك إلى الكعبة ، والذي فطر السماوات والأرض منزّه عن الجهات ، ولا تقل : « الحمد لله » إلا وقلبك طافح بشكره ، ولا : « إياك نعبد » إلا وأنت غير ملتفت إلىٰ سواه ، فإن من رجا غير الله فقد أشرك به . ولا : « وإياك نستعين » إلا وأنت معترف بعجزك ، وأنه ليس لك من الأمر شيء .

وكذلك في جميع الأذكار والأعمال ، وقد شرحنا بعض ذلك في « كتاب الإحياء ») .

وأما الزكاة : فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ وهي أخت الصلاة ، ولهٰذا جاءت مقرونة بها في مواضع من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ ؛ ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ .

وظاهره : أن من لم يُقِم الصلاة ويُؤتِ الزكاة لا يُخَلَّىٰ سبيله ، بل يُقَاتَل ؛ وأنه ليس من إخوان المسلمين في الدين ، ولهٰذا قال الصديق رضي الله عنه : (والله ؛ لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة) رواه البخاري ومسلم ، وقد سبق ـ أيضاً ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس . . . » الحديث .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فقال : « ادعهم إلىٰ شهادة أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأني رسول الله ، فإن

هم أطاعوك لذلك . . فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك . . فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم ، تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم » رواه البخاري ومسلم .

واعلم : أن الزكاة نوعان : زكاة أموال ، وزكاة أبدان .

أما زكاة الأموال : فتجب في خمسة أشياء : النقدين : (الذهب والفضة) ، وعروض التجارة ، والثمار (الرطب والعنب) ، والزروع المقتاتة ، والأنعام : (الإبل والبقر والغنم) .

والأصل في مقدار ما يجب في كل من هٰذه : ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب له : (هٰذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ؛ والتي أمر الله بها رسوله :

في أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلىٰ خمس وثلاثين . . ففيها بنت مخاض أنثىٰ ، فإن لم تكن فابن لبون ذكر ، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلىٰ خمس وأربعين . . ففيها بنت لبون أنثىٰ ، فإذا بلغت ستاً وأربعين إلىٰ ستين . . ففيها حِقة طروقة الجمل ، فإذا بلغت واحدة وستين إلىٰ خمس وسبعين . . ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستاً وسبعين . . إلىٰ تسعين ففيها بنْتا لبون ، فإذا بلغت إحدىٰ وتسعين إلىٰ عشرين ومئة ففيها حِقتان [طروقتا الجمل] فإذا زادت علىٰ عشرين ومئة ففي كل أربعين بنت لبون ، وفي كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل . . فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، [فإذا بلغت خمساً من الإبل . . ففيها شاة] .

وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلىٰ عشرين ومئة شاةٌ ، فإذا زادت علىٰ عشرين ومئة إلىٰ مئتين . . ففيها شاتان ، فإذا زادت علىٰ مئتين إلىٰ ثلاث مئة . . ففيها ثلاث شياه ، فإذا زادت علىٰ ثلاث مئة . . ففي كل مئة شاةٌ ،

فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة . . فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن ، فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعاً أو تبيعة[١] ومن كل أربعين مسنة[٢] ، رواه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وحسنه الترمذي ، وصححه ابن حبان والحاكم .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كانت لك مئتا درهم وحال عليها الحول . . ففيها خمسة دراهم ، وليس عليك شيء[٣] حتىٰ يكون لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نصف دينار ، فما زاد فبحساب ذلك » رواه أبو داوود ، وهو حديث حسن .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس فيما دون خمسة أوسق[٤] من ثمر ولا حب صدقة » رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرياً العشر ، وفيما سقي بالنضح[٥] نصف العشر » رواه البخاري .

و(العثري) بفتح الثاء المثلثة : ما يشرب بعروقه[٦] لقرب ماء أرضه .

وأما زكاة الأبدان : فهي الفطرة ، والأصل فيها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير . . على العبد والحر

---

(١) **التَّبيع** : ما له سنة .
(٢) **المسنَّة** : ما لها سنتان .
(٣) أي : في الذهب .
(٤) **الوسق** : ستون صاعاً .
(٥) أي : بآلة كالسَّانية .
(٦) أي : من غير سقي .

والذكر والأنثىٰ والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدىٰ قبل خروج الناس إلى الصلاة) .

وأما صيام رمضان : فهو أحد قواعد الإسلام ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابياً أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ دُلَّني علىٰ عمل إذا عملتُهُ دخلتُ الجنة ؟ قال : « تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئاً ، وتقيمُ الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصومُ رمضان » قال : والذي بعثك بالحق نبياً ؛ لا أزيد علىٰ هـٰذا ولا أنقص ، فلما ولّىٰ . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « من سرَّه أن ينظر إلىٰ رجل من أهل الجنة . . فلينظر إلىٰ هـٰذا » رواه البخاري ومسلم .

وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض . . لم يقضِ عنه صوم الدهر كله وإن صامه » رواه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة في « صحيحه » .

وعن أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « من لم يُبيِّتِ الصيام قبل الفجر . . فلا صيام له » رواه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب . . فليتم صومه ؛ فإنما أطعمه الله وسقاه » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً . . غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخاري ومسلم .

وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ لم يدَع قولَ الزور والعملَ به . . فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تسحروا ؛ فإن في السحور بركة » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر علىٰ رُطَباتٍ قبل أن يصلي ؛ فإن لم تكن . . فتمرات ؛ فإن لم تكن . . حسا حسوات من ماء » رواه أبو داوود والترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء رمضان . . فتحت أبواب الجنة ، وغلِّقت أبواب النار ، وصفِّدت الشياطين »[1] رواه البخاري ومسلم .

وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ؛ فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنة[2] ، فإذا كان يوم صوم أحدكم . . فلا يرفُث[3] ، فإن شاتمه أحد : فليقل : إني صائم ، والذي نفس محمد بيده ؛ لَخُلوف[4] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر . . فرح ، وإذا لقي ربه . . فرح بصومه » رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبع مئة ضعف ، قال الله تعالىٰ : إلاّ الصوم ؛ فإنه لي وأنا أجزي به ؛ يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي » .

---

(١) **صفِّدت** : قيّدت بالأصفاد .

(٢) أي : وقاية مما يضر .

(٣) **الرفث** : الكلام الفاحش ؛ ويطلق على الجماع ومقدماته وعلىٰ ذكر ذلك مع النساء ، أو مطلقاً .

(٤) **الخُلوف** : تغير رائحة الفم .

وأما الحج : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرىٰ عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتىٰ جلس إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه ، ووضع كفيه علىٰ فخذيه وقال : يا محمد ؛ أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام : أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيمَ الصلاة ، وتؤتيَ الزكاة وتصومَ رمضان ، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً » قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه!

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتُؤْمِنَ بالقدَر خيره وشره » قال : صدقت!

قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك » .

قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : « أن تلد الأمة ربتَّها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان » .

ثم انطلق ، فلبثت مليّاً ، ثم قال : « يا عمر ؛ أتدري مَنِ السائل ؟ » قلت : الله ورسوله أَعلم . قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم أمر دينكم » رواه مسلم .

و(تلد الأمة ربتها) أي : تلد سيدتها ، ومعناه : أن يكثر السراري فتلد الأمة بنتاً لسيدها ؛ وبنت السيد كالسيد .

و(العالة) بالتخفيف : الفقراء ، ومعناه : أن أراذل الناس يصيرون أهل الثروة .

و(ملياً) أي : مدة ، وفسَّرها في رواية أبي داوود والترمذي : (ثلاثاً) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العَمَلِ أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور » رواه البخاري ومسلم .

و(المبرور) : الذي لا إثم فيه .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حج فلم يرفُث ولم يفسُق . . رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » رواه البخاري ومسلم .

و(الرفث) : الجماع ومقدماته .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ملكه الله زاداً وراحلة تبلغه إلىٰ بيت الله ولم يحج . . فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالىٰ يقول في كتابه : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ » رواه الترمذي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ؛ ما السبيل ؟ قال : « الزاد والراحلة » صححه الحاكم .

واعلم أن أعمال الحج ثلاثة أقسام : أركان ، وواجبات ، وسنن .

فالأركان خمسة : الإِحرام ، والوقوف ، والحلق ، وطواف الإِفاضة والسعي .

وفي الحلق قول : أنه ليس بركن .

والواجبات ستة : الإِحرام من الميقات ، ورمي الجمار الثلاث ـ وهـٰذان لا خلاف في وجوبهما ـ والجمع بين الليل والنهار في الوقوف بعرفة ـ بأن

يمكث بعد الغروب لحظة ـ والمبيت بمزدلفة ، والمبيت بمنىٰ ليالي التشريق ، وطواف الوداع ؛ وهٰذه واجبة على الأصح ، وقيل : إنها سنن .

وأما السنن : فسائر ما يشرع للحاج من قول أو فعل ؛ كالتلبية والأذكار والأدعية ، وكطواف القدوم واستلام الحجر والرمَل وغير ذلك .

وحكم هٰذه الأقسام : أن الأركان لا يتم الحج إلا بها ، ولا يجبر شيء منها بدم ، بل لا بد من فعلها .

وأما الواجبات : فمن ترك شيئاً منها . . جبره بدم ، وصح حجه بدونه ، سواء تركه عمداً أو سهواً ، لٰكن العامد يأثم أيضاً .

وأما السنن : فلا إثم ولا دم علىٰ من ترك شيئاً منها ، ويصح حجه ، ولٰكن يفوته كمال الفضيلة .

وأجمع حديث لأعمال الحج حديث جابر رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حج ، فخرجنا معه حتىٰ أتينا ذا الحليفة ، فصلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، ثم ركب ناقته حتىٰ إذا استوت به على البيداء . . أهَلَّ بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » حتىٰ إذا أتينا البيت . . استلم الركن[1] فرمَل[2] ثلاثاً ، ومشىٰ أربعاً ، ثم أتىٰ إلىٰ مقام إبراهيم ؛ فصلىٰ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا . . قرأ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أبدأُ بما بدأَ الله به ، فرقي على الصفا حتىٰ رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحَّد الله وكبره وقال : « لا إلٰه إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ولَهُ الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير ، لا إلٰه إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب

---

(١) أي : الحجر الأسود ، واستلامه : مسه وتقبيله بالتكبير والتهليل إن أمكنه ذلك من غير إيذاء أحد ، وإلا . . فبالإشارة من بعيد باليد .

(٢) أي : أسرع صلى الله عليه وسلم في مشيته وهز منكبيه .

وحده » ثم دعا بين ذلك ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة ، حتىٰ إذا انصبت قدماه في بطن الوادي . . رمَل ، حتىٰ إذا صعد . . مشىٰ إلى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

فلما كان يوم التَّروية . . توجهوا إلىٰ منىٰ ، وركب النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فصلىٰ بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث حتىٰ طلعت الشمس ، فأجاز حتىٰ أتىٰ عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل حتىٰ إذا زالت الشمس . . أتىٰ بطن الوادي فخطب الناس ، ثم أذن ، ثم أقام الصلاة فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب ناقته حتىٰ أتى الموقف فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، ثم استقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتىٰ غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً ، ودفع ، حتىٰ إذا أتى المزدلفة . . فصلىٰ بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يُصَلِّ بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتىٰ طلع الفجر ، فصلى الصبح ثم ركب حتىٰ أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة فدعا وكبر وهلل ، فلم يزل واقفاً حتىٰ أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس حتىٰ أتى الجمرة الكبرىٰ فرماها بسبع حصيات مثل حصى الخذْف ، يكبر مع كل حصاة رمىٰ بها من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ، ثم ركب فأفاض إلى البيت فصلىٰ بمكة الظهر . . . » رواه مسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : « نحرت هـٰهنا ، ومنىً كلها منحر ، ووقفت هـٰهنا ، وعرفة كلها موقف » رواه مسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : (رمىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمرة يوم النحر ضحىً ، وأما بعد ذلك . . فإذا زالت الشمس) رواه مسلم .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في (أسرار الزكاة) : (اعلم : أن إنفاق المال في الخيرات أحد أركان الدين ، وأن سر التكليف به بعد ما يرتبط به من سدّ الفاقات : أن المال محبوب إلى الخلق ، والمؤمن مأمور بحب الله تعالىٰ ، ومدَّع للحب بنفس الإيمان ، فجعل بذل المال المحبوب عندهم

معياراً لحبهم ، وامتحاناً لصدقهم في دعواهم ؛ فإن المحبوبات كلها تُبذَل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب ، فانقسمت القلوب فيه إلىٰ ثلاث طبقات :

الأولىٰ : الأقوياء ، وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوه ، ولم يدخروا لأنفسهم شيئاً ، فهـٰؤلاء رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب ، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذ جاء بماله كله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماذا أبقيت لنفسك ؟ » قال : الله ورسوله .

الثانية : المتوسطون ، وهم الذين لم يقدروا علىٰ إخلاء اليد عن المال بمرة ، ولـٰكن أمسكوه للإنفاق عند ظهور محتاج إليه ، فإذا ظهر . . بادروا إلىٰ سدِّ خلَّته ، ولم يقتصروا علىٰ قدر الواجب من الزكاة .

الثالثة : الضعفاء ، وهم المقتصرون علىٰ أداء الزكاة الواجبة .

فهـٰذه درجاتهم ، وبَذْل كلٍّ منهم المالَ علىٰ قدر حب الله تعالىٰ ، وما أراك تقدر على الدرجة الأولىٰ ولا الثانية ، فاجتهد أن تجاوز الدرجة الثالثة ؛ فإن مجرد الواجب حد البخلاء ، فاجتهد أن لا يمضي عليك يوم إلا وتتصدق بشيء ، فترتفع بذلك عن درجة البخلاء .

وحافظ في زكاتك وصدقتك علىٰ خمسة أمور :

الأول : الإسرار بها ، ففي الخبر : « صدقة السرِّ تطفىء غضب الرب » وبذلك تتخلص عن الرياء ؛ فإنه غالب على النفس ، وهو مهلك محبط للأجر .

الثاني : أن تحذر من المنِّ ، وحقيقته : أن ترىٰ نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً عليه ، وعلامته : أن تتوقع منه شكراً أو تستكثر تقصيره في حقك ، وعلاجه : أن تعلم أنه المحسن إليك بقبول حق الله منك ، وتطهيرك من رذيلة البخل ؛ فإن الزكاة كغسالة أوساخ الناس ، ولهـٰذا ترفَّع عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته .

الثالث : أن تخرجها من أجود مالك وأطيبه ، قال الله تعالىٰ : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

الرابع : أن تُعطيَ بوجه طلق[1] ، فدِرْهمٌ مع طِيْبِ نَفْسٍ يَسبقُ مئةَ درهم مع الكراهة .

الخامس : أن تتحرىٰ لصدقتك محلاً تزكو به ، وهو العالم التقي الذي يستعين بها علىٰ طاعة الله وتقواه ، والصالح المُعيل ، وذو الرحم ، فإن لم تجتمع كل هـٰذه الأوصاف . . فبأَحَدِها تزكو الصدقة أيضاً ، ورعاية التقوىٰ هي الأصل ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يأكل طعامك إلا تقيٌّ ، ولا تأكل إلاَّ طعام تقي ») اهـ

وقد عرفت أنه جعل الاقتصار علىٰ أداء الزكاة الواجبة حدَّ البخلاء ، ويلزم منه : أن منع الواجب حدُّ الأشقياء ، وقد سبق قوله تعالىٰ : ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وأَنَّ ظاهره : أن من لم يُقِمِ الصلاة ويؤتِ الزكاة ليس من إخوان المسلمين في الدين ، وفي ذلك غاية الزجر لمن أراد الله به خيراً : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ .

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقَّها . . إلا إذا كان يوم القيامة . . صفِّحت له صفائح من نار فأُحمِي عليها في نار جهنم ، فيُكوىٰ بها جبهته وجنبه وظهره ، كلما بردت . . أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؛ حتىٰ يقضي الله بين العباد فيرىٰ سبيله ؛ إما إلى الجنة ، وإما إلى النار » ومصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ الآية .

---

(١) طَلْق : ضاحك مشرق .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله . . إلا مُثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتىٰ يطوَّق به في عنقه » ثم قرأ علينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الآية . رواه ابن حبان والنسائي بإسناد صحيح ، وابن خزيمة في « صحيحه » .

و(الشجاع) : الحية ، و(الأقرع) : الذي ذهب شعر رأسه من السُّم .

قال الإمام الغزاليّ في (أسرار الصوم) : (اعلم : أن لكل شيء باباً ، وباب العبادات الصوم ؛ لأنه قهر لعدوِّ الله ، ففي الخبر : « إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيِّقوا مجاريه بالجوع » .

ثم الصوم بالنسبة إلىٰ مقداره علىٰ ثلاث درجات ، وبالنسبة إلىٰ أسراره علىٰ ثلاث درجات أيضاً :

أما درجات مقداره : فأقلها الاقتصار علىٰ صوم رمضان ، وأعلاها صوم داوود عليه السلام ، وهو أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ؛ فذلك أفضل من صوم الدهر .

وسرُّه : أن من صام الدهر . . كان الصيام له عادة ، فلا يحس لوقعه في نفسه الانكسار ، وفي قلبه بالصفاء ، وفي شهوته بالضعف ؛ فإن النفس إنما تتأثر بما يرد عليها لا بما تمرنت عليه ، ولا يُستبعد هـٰذا ؛ فإن الأطباء ينهون عن اعتياد شرب الدواء لغير علة ، وقالوا : من تعوَّد ذلك... لم ينتفع به إذا مرض ؛ إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به .

وأما الدرجة الوسطىٰ : فهي أن تصوم ثلث الدهر ، ومهما صمت الإثنين والخميس . . كان ذلك مع رمضان ثلث السنة ، فلا ينبغي أن يَنقُص صوم الناسك عن هـٰذا ؛ فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل .

وأما درجات أسراره . . فثلاث :

أدناها : أن يقتصر على الكف عن المفطرات من غير أن يكف جوارحه عن المناهي ، وذلك هو صوم العوام ؛ لقناعتهم بالاسم .

الثانية : أن يضيف إليه كف الجوارح ، فيحفظ اللسان عن الغيبة وغيرها ، والعين عن النظر ، وكذا سائر الأعضاء ، وذلك صوم الخواص .

الثالثة : أن يضيف إليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس ، ويجعله مقصوراً علىٰ ذكر الله ، وذلك صوم خواص الخواص ، وهو الكمال .

ثم للصوم خاتمة بها يكمل ، وهي : أن يفطر علىٰ طعام حلال ، ولا يستكثر من الأكل بحيث يتدارك ما فاته من الغداء ؛ فيكون قد جمع بين أكلتين في دفعة واحدة ، فتثقل معدته وتقوىٰ شهوته ، ويبطل سرُّ الصوم ، ويفضي إلى التكاسل عن التهجُّد ، وربما منع من اليقظة قبل الصبح ؛ وذلك خسران لا تفي به فائدة الصوم) .

وقال رحمه الله في (أسرار الحج) : (اعلم : أن أسراره الباطنة كثيرة ، ونحن نشير إلىٰ أمرين منها :

أحدهما : أن تعلم أنه وضع بدلاً عن الرهبانية التي كانت في الملل الأخرىٰ ، كما ورد به الخبر ، فجعل الله الحج رهبانية هـٰذه الأمة ، وشرَّف البيت العتيق وأضافه إلىٰ نفسه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره ، وجعل عرفة كالميزاب علىٰ فناء حوضه ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضَعه علىٰ مثال حضرة الملوك ؛ ليقصده الزوار من كل فج عميق شُعثاً غبراً متواضعين لرب العالمين ، خضوعاً لجلاله مع الاعتراف بتنزيهه سبحانه عن أن يحويه مكان ؛ ليكون ذلك أبلغ في عبوديتهم ، ولذلك وظَّف عليهم أعمالاً غريبة لا يأنس بها الطبع ولا يهتدي إليها العقل ؛ ليكون إقدامهم عليها بمحض العبودية ، ومجرد امتثال الأمر من غير مقارنة باعث آخر لو عقل معناه ؛ ولهـٰذا سر عظيم في العبودية .

الأمر الثاني : أن تعلم أن هـٰذا السفر وضع علىٰ مثال سفر الآخرة ، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازناً له ؛ فإن فيه تذكرة للمتذكرين ، وعبرة للمعتبرين ؛ فتذكرك من أول سفرك عند وداعك أهلَك وداعَ الأهل في سكرات الموت ، ومن مفارقة وطنك الخروجَ عن الدنيا ، ومن ركوب الراحلة ركوبَ النعش ، ومن لبس ثياب الإحرام الالتفافَ في الأكفان ، ومن دخولك البادية إلى الميقات ما بين خروجك من الدنيا إلىٰ ميقات يوم القيامة ، ومن هول قطاع الطريق سؤالَ منكر ونكير ، ومن سباع البوادي حيَّاتِ القبر وعقاربَه ، ومن انفرادك عن أهلك وحشةَ القبر ووحدتَك فيه ، ومن التلبية إجابةَ الداعي بعد البعث ، وكذلك سائر الأعمال ؛ فإن في كل عمل سرّاً يتنبه به كل عبد علىٰ قدر استعداده وصفاء قلبه وقصور همِّه علىٰ مهمّات الدين) .

* * *

وَزِدْ فِي خَمْسِ أَوْقَاتِ ٱلصَّلَاةِ مُحَافَظَةً لِتَظْفَرَ بِٱلصِّلَاتِ
إِذَا ٱنْفَصَمَتْ عُرَىٰ أَهْلِ ٱلْبِعَادِ

(**بالصِّلاتِ**) بكسر الصاد ، جمع صلة وهي : العطية .

و(**انفصمت**) بالفاء ؛ أي : انقطعت .

و(**أهل البعاد**) : قطاع الصلاة المطرودون عن باب الله تعالىٰ .

ولما كانت الصلاة أعظم شعائر الدين ، والوصلة بين العبد ورب العالمين ، فمن حافظ عليها ظفر من ربه بكل خير ، ومن ضيعها انقطع في الدنيا والآخرة من كل خير . . خصَّها في النظم بزيادة الحث على المحافظة عليها ؛ لعظم شأنها .

وأصل ذلك : قوله تعالىٰ : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ أي : مطيعين ، و(الوسطى) عند عليّ وابن عباس ومعاذ وابن عمر وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم : الفجر ، وهو قول الإمام الشافعي رحمه الله ؛ لأنها متوسطة بين الليل والنهار ؛ ولأنها أكثر الصلوات تفوت الناس ، ولذلك خصَّت في أذانها بتأكيد (الصلاة خير من النوم) ، وفي قيامها بالقنوت ، لـٰكن المختار من حيث الدليل : أنها العصر ، ففي الحديث الصحيح : أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم الخندق : « شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ صلاة العصر »[1] .

---

(١) وفي كتاب « التفسير الإشاري » للحبيب زين بن سميط ـ حفظه الله ـ ناقلاً عن الحبيب عبد الله بن محسن العطاس : (وقال رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ : معنى (الوسطى) المتوسطة التي ليست بالطويلة المملة ، ولا بالقصيرة المخلة ؛ أي : واظبوا على الصلوات حالة كونها وسطىٰ ، فالواو للحال) اهـ

وقد اختلِف في تعيين الصلاة الوسطىٰ على أقوال تبلغ العشرين قولاً ، نظمها الإمام أبو محمد عبد الواحد الونشريسي رحمه الله تعالى فقال :

كـلٌّ مـنَ الخمـس فهـيْ فـالجُمعَـةْ فـالـوتـر والظهـر وجمْعـة معَـه
فـالخـوف فـالعيـدان فهْـيَ مبهمـةْ في الخمس فالصبح ومَعْها القسمةْ =

وقد ورد في الترغيب في المحافظة على الصلاة عموماً ، وعلى الصبح والعصر خصوصاً أخبارٌ كثيرة ، وكذا في الترهيب والوعيد الشديد علىٰ تضييعها ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهنَّ . . كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهنَّ . . فليس له عند الله عهد » رواه الإمام مالك وأبو داوود والنسائي وابن حبان في « صحيحه » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » رواه الطبراني .

وعن عبد الله بن قُرْطٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاةُ ؛ فإن صلحت . . صلح سائر عمله ، وإن فسدت . . فسد سائر عمله » رواه الطبراني بإسناد لا بأس به .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ؟ فقال : « الصلاة » ، فقال : ثم مه[1] ؟ قال : « الصلاة » ، قال : ثم مه ؟ قال : « الصلاة » كررها ثلاثاً . رواه الإمام أحمد وابن حبان في « صحيحه » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صلى الصلوات الخمس لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها . . خرجت وهي بيضاء مُسْفِرة تقول : حفظك الله كما حفظتني ، ومَنْ صلاها لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها . . خرجت وهي سوداء مظلمة

= فصبحٌ أو عصر على التردُّدِ ثم صلاتنا على محمَّد
فالصبح مع عصر بوقف فالضحىٰ ثم الجماعة بها (الوسطىٰ) اشرحا

(١) أي : ثم ماذا ؛ أبدلت ألف (ما) هاءً ؛ للوقف والسكت .

تقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، حتىٰ إذا كانت حيث شاء الله . . لُفَّت كما يُلَفُّ الثوب الخَلَق ، ثم ضُرب بها وجهه » رواه الطبراني .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ترك الصلاة متعمداً . . فقد برئت منه الذمة » رواه ابن ماجه والبيهقي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ترك الصلاة متعمداً . . لقي الله وهو عليه غضبان » رواه الطبراني ، وإسناده حسن .

وفي رواية له عن أنس بن مالك : « مَنْ ترك الصلاة متعمداً . . فقد كفر جهاراً » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حافظ عليها . . كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، وكان يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولـئك رفيقاً ، ومن لم يحافظ عليها . . لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف لعنهم الله » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد وابن حبان في « صحيحه » .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ترك صلاة العصر . . فقد حبط عمله » رواه البخاري وغيره .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم وغيره .

وروى الترمذي : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ـ ورضي عنهم ـ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

وعن حماد بن زيد عن أيوب قال : « ترك الصلاة كفر لا يُختلف فيه » .

وعن إسحاق : أن ذلك كان رأي أهل العلم من لَدُن النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وفي « الترغيب والترهيب » للمنذري عن ابن حزم : أنه قد جاء عن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من

الصحابة رضي الله عنهم : أن من ترك صلاة فرضاً متعمداً حتىٰ يخرج وقتها . . فهو كافر مرتد . ولا نعلم لهٰؤلاء مخالفاً من الصحابة .

قال المنذري : وقد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلىٰ تكفير من ترك الصلاة متعمداً حتىٰ يخرج وقتها ، منهم : عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، ومعاذ ، وجابر ، وأبو الدرداء . ومن غير الصحابة : أحمد بن حنبل ، وإسحاق ، وابن المبارك ، والنخعي ، والحكم بن عيينة وغيرهم .



وَأَعْـدِدْ يَـوْمَ تُسْـأَلُ عَـنْ شَبَـابِ   وَعَـنْ عُمْـرٍ وَعِلْـمٍ وَٱكْتِسَـابِ
وَإِنْفَـاقٍ جَـوَابـاً لِلسَّـدَادِ

أي : للصواب ، وذلك يوم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن خمس : عن عمره فيمَ أفناه ، وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

و(**العمر**) : يعم زمن الشباب وغيره ، وخصَّ الشباب في النظم ؛ لأنه وقت قوة العمر ، فهو أولىٰ بالاجتهاد في الطاعة .

والمراد : الحث علىٰ إنفاق العمر في طاعة الله تعالىٰ ، والصبر علىٰ ذلك إلى الممات ، قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بادروا بالأعمال الصالحة فِتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرَض من الدنيا! » رواه مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل قال : « إذا تقرب العبد إليَّ شبراً . . تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إليَّ ذراعاً . . تقربت إليه باعاً ، وإذا أتاني يمشي . . أتيته هرولة » رواه البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص علىٰ ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء . . فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولـٰكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن بسر ـ بالسين المهملة ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وأما المال : فالمطلوب أن يكتسبه من حله وينفقه في الخيرات ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِيَ بالحرام ، فأنَّىٰ يستجاب لذلك ؟! » رواه مسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جمع مالاً من حرام ثم تصدَّق به . . لم يكن له فيه أجر ، وكان إصره[1] عليه » رواه ابن خزيمة وابن حبان في « صحيحيهما » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ؛ لا يكتسب عبد مالاً حراماً فيتصدق به فيُقبل منه ،

---

(١) الإصر : الإثم والعقوبة .

ولا ينفق منه فيبارَكَ له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره . . إلا كان زادَه إلى النار ، إن الله لا يمحو السيِّىء بالسيِّىء ، ولـٰكن يمحو السيِّىء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » رواه الإمام أحمد بإسناد حسن .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت »[1] رواه ابن حبان في صحيحه .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « من اشترىٰ ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام . . لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » ، ثم أدخل إصبعيه في أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم أكن سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقوله . رواه الإمام أحمد .

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال : من جعل الحلال قوته . . أُجيبت دعوته ، وكملت مروءته، وحسنت سريرته، وعلت كلمته، وحصلت أمنيته ، وطابت منيته ، وطهرت ذريته ، وتنورت نطفته ، ورقت دمعته ، وظهرت حكمته ، وقل غضبه ، ورق قلبه ، وخف ذنبه ، ورَدُّ درهم حرام أفضل عند الله من أربعة آلاف حجة مقبولة .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم : أن طيب المطعم له خاصيَّة عظيمة في تصفية القلب وتنويره ، واستعداده لقبول أنوار المعرفة ، وفيه سر لا يحتمل الكتاب ذكره ، ولـٰكن ينبغي أن تفهم أن درجات الورع أربع :

الأولىٰ : التورع عما يجب الفسق باقتحامه ، وتزول العدالة بارتكابه ، وهو الذي تحرمه فتوى الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم وإن أفتى المفتي بحله بناء على الظاهر ، وهو ما قال فيه صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك » .

---

(١) **السحت** : الحرام ، أو ما خبث من المكاسب .

الثالثة : ورع المتقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتىٰ يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس » .

الرابعة : ورع الصدِّيقين ، وهو الحذر عن كل ما لا يراد بتناوله القوة علىٰ طاعة الله تعالىٰ ، أو كان قد تطرق إلىٰ بعض أسبابه معصية ، كما كان بِشْر الحافي لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها السلاطين ، وهـٰذه رتبة قوم عَدُّوا كل ما لم يكن لله حراماً .

فاجتهد أن تفي بالدرجة الأولىٰ . وهي ورع العدول ، والذي يفتي به الفقهاء لـٰكن بشرطين .

أحدهما : أن تحذر مواقع الغرور فيما أفتوا به بحسب الظاهر ، كقولهم فيمن يسيء معاشرة زوجته حتىٰ تبرئه من المهر : إن الإبراء صحيح ؛ لأن مطمح الفقيه إلىٰ ظاهر الأمر ، وأما من أراد ما يبرىء ذمته غداً عند من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . . لم يلتفت إلىٰ هـٰذا ؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ وهـٰذه ليست بطيبة نفس ، وإنما تخلصت من شره ، فلا يحل له المهر بينه وبين الله تعالىٰ .

وهـٰذا باب طويل ، وأصله : ألاَّ تستحل مال غيرك إلا برضىً مطلق صادق ، وكذلك ينبغي ألا تأكل بالسؤال ، فإن سألت . . فاحذر أن يكون على الملأ ؛ فربما يعطيك بالحياء ، ولا فرق بين أن تأخذ مال إنسان بضرب ظاهره أو مع تألم باطنه ، وكل ذلك حرام عند ذوي البصائر ، وإن أفتى المفتي بحله ظاهراً .

الثاني : أن تراجع قلبك ؛ فإن الإثم حَزازُ القلوب[1] ، والذي يضرك ما حاك في صدرك ، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ») .

وهـٰذا الفن يطول ذكره ، ولـٰكن اعلم على الجملة : أن المحذور من

---

(١) **الحَزاز** : وجع في القلب من غيظ ونحوه .

الحرام هو إظلام القلب ، والمطلوب من الحلال تنويره ، وذلك إنما يتشعب من اعتقادك لا من نفس الشيء المعتقد ، فمن وطيء امرأة علىٰ ظن أنها أجنبية فإذا هي منكوحته . . أظلم قلبه ، بخلاف العكس ، فالاستشعار هو المؤثر في تنوير القلب وإظلامه وإن لم يكن علىٰ وفق الحال ، فأنت في الحلال متعبَّد بما يطمئن إليه قلبك لا بما يفتي به المفتي .

فاستفت قلبك ، وإياك أن تشدد علىٰ نفسك فتقول : أموال الدنيا كلها حرام ، لكثرة الأيدي الغاصبة والمعاملات الفاسدة ، بل اعلم قطعاً أن الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات ، كذلك كان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يكون أبد الدهر ، فاستمدّ مما ذكرناه أنك غير متعبَّد بما هو حلال في نفس الأمر ، بل بما هو في اعتقادك حلال ، لاتعرف سبباً ظاهراً في تحريمه .

وهٰذا الباب يستدعي شرحاً طويلاً ، فإن رغبت فيه فطالع (كتاب الحلال والحرام) من « الإحياء » ؛ لتستفيد عند مطالعته ؛ فإنه لم يصنف في فنه مثله في التحقيق والتحصيل ، والإحاطة بجميع التفاصيل) اهـ

وأما السؤال عن علمه ماذا عمل فيه : فقد ورد الوعيد الشديد فيمن لا يعمل بعلمه ، وخالف قوله فعله ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقىٰ في النار فتندلق أقتابه[1] ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحىٰ ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون :

(١) الاندلاق : خروج الشيء من مكانه ، يريد خروج أمعائه من بطنه ، والأقتاب : الأمعاء ، جمع قِتب بالكسر « النهاية » لابن الأثير .

ما شأنك ؟! ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » .

قال أسامة رضي الله عنه : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مررت ليلة أُسرىٰ بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : مَنْ هٰؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » رواه الطبراني .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم ؛ إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » رواه مسلم .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (اعلم : أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ما ترىٰ وتسمع ، من تصنيف المصنفين ، وتعليم المعلمين ، ووعظ الواعظين ، ونظر الناظرين ، بل لأجلهما أنزلت الكتب ، وأرسلت الرسل ، بل لأجلهما خلقت السماوات والأرض وما فيهما ، فتأمل آيتين في كتاب الله :

إحداهما : قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ وكفىٰ بهٰذه الآية دليلاً علىٰ شرف العلم ، ولا سيما علم التوحيد .

والثانية : قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وكفىٰ بهٰذه الآية دليلاً علىٰ شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها ، فأعظِم بأمرين هما المقصود من خلق الله ، فحُق للعبد ألا يشتغل إلا بهما ، ولا ينظر إلا فيهما .

واعلم : أن ما سواهما من الأمور لا خير فيه ولا حاصل تحته ، فإذا علمت ذلك . . فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما .

ومع ذلك فلا بد مع العلم من العمل به ، وإلا . . كان هباءً منثوراً ؛ فإن العلم بمنزلة الشجرة ، والعبادة بمنزلة الثمرةِ ، والشرفُ للشجرة ؛ إذ هي الأصل ، لـٰكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها .

فإذاً لا بد أن يكون لك من كلا الأمرين حظ ونصيب ، بل لا بدَّ للعبد من أربعة أشياء : العلم ، والعمل ، والإخلاص ، والخوف ، فيعلم الطريق أولاً ، وإلا . . فهو أعمىٰ ، ثم يعمل بعلمه ثانياً ، وإلا . . فهو محجوب ، ثم يخلص العمل ثالثاً ، وإلا . . فهو مغبون ، ثم لا يزال يخاف ويحذر من الآفات ، وإلا . . فهو مغرور ؛ فإن الأعمال بالخواتيم ، وما يدري ماذا يختم له به .



بَابُ السِّتَّةِ

> وَقُلْ آمَنْتُ بِٱلسِّتِّ ٱلأُصُولِ   إِلَٰهِيْ وَٱلْمَلاَئِكِ وَٱلرَّسُولِ
> وَكُتْبٍ وَٱلْقَضَاءِ وَبِٱلْمَعَادِ

هـٰذه الستة هي أصول الإيمان المذكورة في حديث جبريل عليه السلام حيث قال فيه : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره » ، قال : صدقت . رواه مسلم وقد تقدم بكامله في (الحج) .

ولفظ (**الرسول**) في النظم وإن كان مفرداً ، فاللام فيه إما للجنس كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ فوحَّد لفظ الكتاب ، والمراد جنس الكتب ، أو تكون اللام فيه للعهد ؛ أي : رسولنا صلى الله عليه وسلم ، ويلزم من الإيمان به تصديق سائر المرسلين ؛ لأنه مصدق لما بين يديه .

فَصْلٌ

أما الإيمان بالله تعالىٰ . . فهو علىٰ قسمين : قسم في سلب صفات النقص عن ذاته المقدسة ، وقسم في إثبات صفات الكمال لها .

القسم الأول : في تنزيه الباري تعالىٰ عن الكيف والزمان والمكان ومشابهة ما تُصوِّر في البال ، وعن الشبيه والشريك والولد والوالد والصاحبة ، وعن العرَض والجسم والجوهر ، وعن كل نقص مطلقاً .

والمراد من تنزيهه سبحانه عن الكيف : أنه منزه عن الحركة والسكون ، والانتقال والنزول ، والألوان من السواد والبياض وغيرهما ، والطعوم من الحلاوة والحموضة وغيرهما ، فيجب تنزيه الباري سبحانه وتعالىٰ عن جميع

ذلك ؛ لأن ذلك كله من توابع صفات الأجسام والتركيب ، ولوازم المزاج والتركيب[1] ، والجسمية مستحيلة في حقه .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن الزمان : أنه ليس لوجوده ابتداء ، ولا لبقائه انتهاء ، بل هو الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ؛ لأن الزمان حادث ، أحدثه هو سبحانه وتعالىٰ بقدرته ؛ لأنه عبارة عن تعاقب الليل والنهار ، وهما مرتبان علىٰ وجود الشمس والسماوات والأرض ، وهي حادثة ، وما ترتب على الحادث فهو حادث .

وإذا ثبت أنه القديم قبل كل شيء . . وجب استمرار بقائه ؛ إذ ليس معه تعالىٰ ضد يقهره فيُعدمه ، بل هو الواحد القهار .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن المكان : أنه غير مستقر بموضع من علوّ أو سفل ؛ لأن التمكن بالمكان من خواص الأجسام ، وهو تعالىٰ منزه عن الجسمية ولوازمها ، ولأن المكان كله مُحْدَث من عرش وفرش أحدثه الله سبحانه وتعالىٰ بعد العدم ، وقد كان تعالىٰ قبل خلق المكان غنياً عن المكان ، فيكون الآن كما كان ، وإذا استحال تمكّنه بمكان . . استحال أيضاً اختصاصه بجهة ؛ لأن الجهات أطراف الأمكنة من يمين وشمال وقدام ووراء ، واستحال أيضاً أن يكون تعالىٰ مقدَّراً أو محدوداً ، تعالى الله عن ذلك .

فعند ذلك تَعْلَمُ قطعاً أن ظواهر الأدلة الموهمة التمكن بمكان ، أو الاختصاص بجهة ، أو النزول أو المجيء أو الانتقال أو نحو ذلك . . غير مراد بها ظاهرها المتبادر إلى الفهم بحسب العرف ، بل هو محمول علىٰ ما يليق به سبحانه ، فنحو رفع الأيدي في الدعاء لا يلزم منه أنه تعالىٰ في السماء ، كما لا يلزم من التوجه إلى الكعبة كونه تعالىٰ فيها ، بل أَمَرَنا بجميع ذلك ، فوجب علينا الامتثال ، والدعاء قبلته السماء ، والصلاة قبلتها الكعبة ، فأينما تولوا . . فَثَمَّ وجه الله .

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : (. . . الأجسام والتراكيب ، ولوازم المزج والتركيب) .

وكذلك الفوقية في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ محمولة علىٰ فوقية الرتبة التي تكون للسيد القاهر على العبد المقهور ، كما في قوله تعالىٰ عن فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ وكما يقال : رتبة الوزير فوق رتبة الأمير .

وكذلك ما يفهم من قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ غير مراد ، بل هو استواء لائق بجلال الله تعالىٰ ، كما يقال : استوى الأمير على العراق ؛ أي : استولىٰ عليه ، فاستقلت فيه ولايته وزال اضطرابها ، ودان له أهلها بالطاعة والانقياد .

ومعلوم : أن العرش أعظم المخلوقات ، بل حاوٍ لها ومحيط بجميعها ، فالتمدح بكونه مقهوراً بالطاعة تحت قدرته تعالىٰ ، يدبر أمره فيه كيف شاء هو اللائق بجلال الله تعالىٰ ، بخلاف الاستواء الذي هو الجلوس على الشيء ؛ فذاك من صفات الأجسام ولا تمدُّح فيه ؛ لأن كل جسم يمكن منه ذلك ، والتمدح إنما يكون بصفة يختص بها المتمدَّح ويمتاز بها علىٰ من سواه .

هٰذا ؛ والعرش حادث بعد العدم ، وقد كان تعالىٰ غنياً عنه في القدم ، وكذلك يجب حمل أمثال ذلك علىٰ ما يليق بجلال الله تعالىٰ ، كأن يقال في : (وجاء ربك) و(ينزل ربنا) أي : أمره أو رحمته أو نحو ذلك ، ولا ينبغي أن يسبق الفهم إلىٰ ظاهره ، كما لا ينبغي عند قولنا : الكعبة بيت الله ، أن يتوهم أنه ساكن فيها .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن كل ما يتصور في البال : أن كل ما صوَّره الوهم والخيال فهو تعالىٰ بخلافه ؛ لأنه ليس كمثله شيء ، والوهم إنما يصور صورة يقيسها علىٰ ما يعهده .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن الشبيه : أنه ليس تُشْبِهُ ذاته ذاتاً ، ولا صفته صفة ، ولا فعله فعلاً ؛ إذ لو ماثله شيء . . لاتّصف بمثل صفاته ؛ من العلم المحيط والقدرة النافذة وغير ذلك ، وهو من المحال ، وكون العبد يسمىٰ حياً

قادراً عالماً ونحو ذلك ، فتلك مشاركة في مجرد الاسم فقط ، وإلا . . فمعلوم أن حياة الباري تعالىٰ أزلية أبدية ، وعلمه محيط بما كان وما يكون ، وقدرته نافذة في كل شيء ، والعبد حياته من عدم إلىٰ عدم ، وعلمه مكتسب مسبوق بالجهل مقرون به ، فإذا انتهىٰ في العلم . . فما جهله من الغيب أكثر مما علمه : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهٰكذا في سائر الصفات .

وكذلك في أفعال العباد إنما تكون بالجوارح والآلات ، والباري سبحانه وتعالىٰ منزّه عن ذلك ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن الشريك : أنه المنفرد سبحانه بالخلق والإيجاد والأمر والتصرف في الملك والملكوت : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن الوالد والولد : أنه لم يُحْدِثْهُ غيره ، ولا انفصل من ذاته المقدسة غيره ؛ بل هو الله الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وكذلك تنزيهه تعالىٰ عن الصاحبة ظاهر ؛ لأن ذلك من نتائج طبائع المخلوق المتضمنة لميل الشهوة ، وذلك مما يتقدس عنه الباري تعالىٰ ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ .

وأما المراد من تنزيهه تعالىٰ عن الجسم والجوهر والعرَض . . فاعلم أولاً : أن الجوهر في اصطلاح العلماء : كل جزء لطيف جداً لا يمكن أن يتجزأ أصلاً ، والجسم ما تركب من جوهرين فأكثر ، والعرَض صفات الجواهر والأجسام ، من الطول والقصر ، والصغر والكبر ، والحركة والسكون ، والسواد والبياض ، وغير ذلك .

فجميع المخلوقات لا تخلو من كونها إما جوهراً أو جسماً أو عرضاً ، وكل

ذلك مُحدَث ، والباري تعالىٰ ليس شيئاً من ذلك .

والمراد من تنزيهه تعالىٰ عن كل نقص مطلقاً : أن الإلـٰهية لا تكون لمن يتطرق إليه النقص ، بل لمن هو مُنزَّه عن كل نقص ، جامع لكل كمال ، وذلك هو الله الذي لا إلـٰه إلا هو ، له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ ، وله الحمد في الآخرة والأولىٰ .

القسم الثاني : في إثبات صفات الكمال للباري تعالىٰ ، وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

فهـٰذه الصفات السبع تسمَّى المعنوية[1] ؛ أي : أن معانيها ثابتة لذات الباري تعالىٰ ، قديمة بقدمه ، وثبوتها له تعالىٰ واجب ببديهة العقل ؛ لأنها صفات كمال ، وأضدادها نقص يجب تنزيه الباري عنه .

كيف . . وقد ثبتت له بتواتر النقل كما وصف نفسه بها ، ووصفته بها رسله فقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ، ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ؟

ثم اعلم : أن علم الباري سبحانه وتعالىٰ متعلق بجميع الجائزات والواجبات والمستحيلات مما كان منها وما سيكون ، وما لا يكون لو كان كيف يكون ، كما في ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، و﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾ .

وسمعه وبصره متعلقان بجميع الموجودات قديمها وحادثها ، سواء كانت

---

(١) يسميها بعض متأخري علماء الكلام : صفات المعاني ، ويسمون لوازمها ـ ككونه تعالىٰ حيّاً وعالماً وقادراً ومريداً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً ـ : صفات معنوية .

من قبيل الأصوات والمرئيات أو غيرها ، فلا يعزب عن سمعه وبصره شيء ، وليس ذلك علىٰ ما يفهم من صفات المخلوقين ، بل كما هو فاعل بلا جارحة . . فهو عالم بلا قلب ، بصير بلا حدقة وأجفان ، سميع بلا أصمخة وآذان ؛ إذ كل ذلك من صفات خلقه التي أجراها فيهم بحسب العادة ، ولو شاء أن يجعل العيون سامعة ، والآذان مبصرة وغير ذلك . . لَفَعَلَ ، فهو علىٰ كل شيء قدير ، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وكذلك لا يدخل التعقيب والترتيب علىٰ صفاته سبحانه ، فلا يقال قط : إنه علم شيئاً بعد أن لم يعلمه ، ولا نظر إلىٰ شيء بعد أن لم ينظر إليه ، ولا سمع شيئاً بعد أن لم يسمعه ؛ إذ كل ذلك من لوازم صفات الخلق ، وهو مباين لخلقه بصفاته كما باينهم بذاته .

وقدرته وإرادته تعالىٰ تتعلقان بجميع الممكنات ، ولـٰكن القدرة تؤثر في إيجاد الشيء وإعدامه، والإرادة تخصص الأشياء بأوقاتها وصفاتها المخصوصة بها ، والقدرة فرع الإرادة[1] فإذا أراد الله شيئاً أوجده بقدرته ، والإرادة فرع العلم ، إذ لا يريد الله تعالىٰ إلا ما سبق به علمه القديم من إيجاد وإعدام[2] .

ومذهب أهل السنة : أن كلام الله تعالىٰ صفة معنوية قديمة ، قائمة بذاته المقدسة ثابتة لها ، قديمة بقدمها ؛ لأن أصل صفة الكلام في المخلوق إنما هو المعنى النفساني ، وإنما يدل عليه باللسان ، ولهـٰذا يقول : في نفسي كلام أريد أن أذكره لك ، قال الشاعر[3] :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعِلَ اللسان على الفؤاد دليلا

(١) أي : في التصور فقط ، وإلا . . فلا أصلية ولا فرعية في صفاته تعالىٰ .

(٢) والحاصل : أن صفات المعاني السبعة تنقسم إلى أربعة أقسام :
- قسم لا يتعلق بشيء ، وهو الحياة .
- وقسم يتعلق بالممكنات ، وهو القدرة والإرادة .
- وقسم يتعلق بالموجودات ، وهو السمع والبصر .
- وقسم يتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، وهو العلم والكلام .

(٣) هو الأخطل .

ولـٰكن لا يفهم أيضاً من صفة كلام الباري مشابهة كلام المخلوقين ، بل كما هو عالم بلا قلب ، سميع بلا أذن ، بصير بلا حدقة وجفن ، فهو أيضاً متكلم بلا لسان ولا حرف ولا صوت .

والقرآن المقروء بالألسنة ، المسموع بالآذان ، المحفوظ بالقلوب ، المكتوب في المصاحف يُسمَّىٰ أيضاً كلامَ الله بحسب الحقيقة الشرعية ؛ لدلالته على الصفة المعنوية من غير حلولها فيه ، ولا حدوثها بحدوث تلك الأصوات والحروف ، بل كلامه قديم قبل تكوين الحروف والأصوات بِقِدَمِ ذاته المقدسة .

وهـٰذا كما أن اسمه (الرحمن الرحيم) مكتوب منطوق به ، مسموع محفوظ ، ومع ذلك فلا يلزم من ذلك كله تصور حدوثه ولا حلوله ؛ لأن الذي في الذهن يدل عليه باللسان ، والكتابة تدل على المنطوق به ، وليس شيئاً من ذلك حقيقة الشيء في نفس الأمر .

وكلامه تعالىٰ صفة من صفاته ، ولا يجوز على الصفات القديمة ما لا يجوز على الذات من سمات الحدوث . والله ولي التوفيق .

فَصْلٌ

وأما الإيمان بالملائكة عليهم السلام : فالمراد بذلك الإيمان بأنهم الوسائط بين الله تعالىٰ وبين رسله إلى البشر في إنزال كتبه ، وتبليغ نهيه وأمره ، فهم رسل الله إلىٰ رسله ، ومن لم يؤمن بهم كذلك . فقد كفر بكتب الله ورسله .

فالإيمان بهم مقدم على الإيمان بالكتب والرسل ، ولهـٰذا جاء ذكرهم مقدماً عليهما في القرآن والحديث .

ويجب الإيمان أيضاً بأنهم عباد مكرمون ، معصومون عن المعصية ، مطبوعون على الطاعة ، يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا يُحصي عددهم إلا الله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ .

وثبت في « صحيح مسلم » في حديث الإسراء به صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه » .

وروى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني أرىٰ ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطَّت السماء[1] وحُقَّ لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع . . إلا ملك واضع جبهته ساجداً » .

قال الإمام الجليل القصريُّ في « شعب الإيمان » : (اعلم ـ رحمك الله ـ أن الإيمان بالملائكة واجب كالإيمان بالرسل ، فالجاحد للملائكة كافر لا يقبل الله إيمانه ؛ لأنه مكذب بكتب الله ورسله .

وعددهم لا يحصيه إلا الله تبارك وتعالى ؛ فإن الملك كله معمور بهم ، فمنهم ملائكة موكلون بالأرض ، ومنهم الموكلون بالجبال ؛ كما جاء في الحديث الصحيح : (أن ملك الجبال ناداه وقال : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين)[2] .

ومنهم ملائكة موكلون بالبحر ، ومنهم السياحون في الأرض ، يتتبعون مجالس الذكر كما في « صحيح مسلم » ، ومنهم الذين يبلغونه صلى الله عليه وسلم صلاة من يصلي عليه ، ومنهم سكان السماوات السبع ، وصفهم صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء به ، ومنهم خزنة الجنة وخزنة النار ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم الموكلون بالحُجُب ، ومنهم الموكلون بالمطر حتىٰ قد ورد : « أنه لا تنزل قطرة من السماء إلا ومعها ملك »

ومنهم الموكلون بالأرحام وخلق النطف ونفخ الروح في الأجساد ، ومنهم الموكلون بخلق النبات وتصريف الرياح والأفلاك والنجوم ، ومنهم الحفظة على الأعمال ، ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم يحفظونه من أمر الله ؛ أي : بأمر الله .

---

(١) **أطَّت** : صوتت .

(٢) **الأخشبان** : هما جبلا مكة : أبو قبيس والأحمر .

وعلى الجملة : فهم عمَّار الملك كله ، حتىٰ إنه ليس في العالم شبر إلا وهو معمور بهم ، مشحون من أسفله إلىٰ أعلاه ، ولذلك أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم ألا نستقبل القبلة ولا نستدبرها ببول ولا غائط ؛ إكراماً للمصلين منهم إليها ، والإيمان بجميعهم واجب) اهـ

واعلم : أن الملائكة كلهم على اختلاف طبقاتهم روحانيون ، ولسنا نعلم كيف هيئتهم التي خلقوا عليها ، بل لا ندركها بأعين البصر الظاهر ، ولٰكنهم قد جعل الله لهم قوة التَمَثُّل في صور مختلفة ، كما أتىٰ جبريل النبيَّ صلى الله عليه وسلم في صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرىٰ عليه أثر السفر ، وكان يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم غالباً في صورة دحية الكلبي ، ورآه مرة قد سد الأفق بجناحيه ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

قال المحققون : وليس ما يتمثلون فيه من هٰذه الصور عين حقائقهم ، إنما هو تخييل لتدركها الأبصار ، وحقائق خلقتهم الأصلية : أرواح لطيفة تصل إلى القلوب ، وتجري مجرى الدم ، وتدخل في الثرىٰ ، وتَرىٰ ولا تُرىٰ ، ولذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ أي : لأن حواسكم لا تدرك هيئة الملائكة إلا بالشكل في الصورة المحسوسة . وقال الله تعالىٰ في إبليس : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ ﴾ أي : قبيلته ، وهم الجن ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ أي : إنكم لا تدركون هيئاتهم ؛ لأن الجن أيضاً أرواح ، إلا أن الملائكة من نور والجن من نار ، والله أعلم .

فصل

وأما الإيمان بكتب الله تعالىٰ . . فيجب الإيمان بها إجمالاً وتفصيلاً :

أما الإجمال : فكما قال تعالىٰ : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ ، ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ أي : القرآن ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ والظاهر أنها صحف إبراهيم ، وهٰؤلاء هم آل إبراهيم

﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ أي : التوراة والإنجيل وصحف موسىٰ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ .

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ كم كتاباً أنزل الله تعالى ؟ قال : « مئة كتاب وأربعة كتب : أنزل الله علىٰ شيث خمسين صحيفة ، وعلىٰ إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلىٰ إبراهيم عشر صحائف ، وعلىٰ موسىٰ قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » ، قلت : فكم الأنبياء ؟ قال : « مئة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي » ، قلت : فكم الرسل من ذلك ؟ قال : « ثلاث مئة وثلاثة عشر » ، قلت : من كان أولهم ؟ قال : « آدم » قلت : فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كانت عبراً كلها » : عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب[1]! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأن إليها! وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل! » رواه ابن حبان في « صحيحه » .

ويُغني عن ذلك كله الإيمان بالقرآن العظيم تفصيلاً بجميع سوره وآياته وكلماته وحروفه .

فَصْلٌ

وأما الإيمان بالرسل : فذلك واجب ، لا يقبل الله إيمان عبد شهد له بالتوحيد حتىٰ يؤمن بالرسل ، ويشهد لهم بالرسالة ، ومن لم يفعل ذلك ، أو آمن ببعض دون بعض . . فهو كافر ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ .

فيجب الإيمان بهم إجمالاً ، وبمن ذكرهم الله تعالىٰ في القرآن بأعيانهم تعييناً ؛ كآدم وإدريس ونوح ، وهود وصالح ، وإبراهيم وإسماعيل ،

(١) أي : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو يتعب ويضجر إذا لم يحصل له ما يطلبه .

وإسحاق ويعقوب ويوسف ، ولوط وأيوب وشعيب ، وموسىٰ وهارون ويونس ، وداوود وسليمان ، وزكريا ويحيىٰ ، وعيسىٰ وإلياس ، واليسع وذي الكفل ، ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ .

فمن كذب واحداً منهم . . فقد كذب جميعهم ؛ ولذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ وقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم تكذب كل أمة إلا رسولها فقط ، لٰكن يلزم من تكذيب الواحد تكذيب الكل ؛ لأنهم كلهم مصدِّقون لبعضهم بعضاً ، ويغني عن ذلك كله التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به .

فَصْلٌ

وأما الإيمان باليوم الآخر : فالمراد به يوم القيامة ، وذلك بعث الأجساد والأرواح ، وحشرها إلى الموقف للحساب والميزان والصراط والجنة والنار .

وأول منزل من منازل الآخرة : القبر وما فيه من السؤال والفتنة والنعيم والعذاب ، ثم البعث بعد فناء الخلق كلهم ، ثم الوزن ، ثم الصراط ، ثم الحوض ثم الدار ـ الجنة أو النار ـ ثم الرؤية للأبرار في دار القرار ، والشفاعة بأنواعها ، والإيمان بجميع ذلك واجب .

أما القبر : فقد تواتر النقل عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعيذ من عذاب القبر وفتنته .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال : « نعم ، عذاب القبر حق » وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدُ يصلي صلاة إلا استعاذ من عذاب القبر » رواه البخاري ومسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحدكم إذا مات . . عرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ ؛ إن كان من أهل

الجنة. . فمِن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار . . فمِن أهل النار ، فيقال : هـٰذا مقعدك حتىٰ يبعثك الله إليه يوم القيامة » رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، قال : يأتيه ملكان فيقولان له : ما كنت تقول في هـٰذا الرجل ؟ فأما المؤمن. . فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً .

وأما الكافر والمنافق. . فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » رواه البخاري ومسلم .

وروىٰ مسلم : « لولا أخاف ألا تدافنوا . . لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر » .

وأما البعث : فقال الله تعالىٰ : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يقول : « يا أيها الناس ؛ إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ » رواه البخاري ومسلم .

و(الغرل) بضم الغين المعجمة وإسكان الراء : جمع أغرل ، وهو الأقلف الذي لم يُختَن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتىٰ يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ، وإنه يلجمهم حتىٰ يبلغ آذانهم » رواه البخاري ومسلم .

وأما الوزن : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ

نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : « أما في ثلاثة مواضع . . فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتىٰ يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند تطاير الصحف حتىٰ يعلم أين يقع كتابه في يمينه أو شماله أم وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتىٰ يجوزه » رواه أبو داوود ، والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرطهما .

وأما الصراط : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾(١) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الورودُ : الدخولُ ، لا يبقىٰ بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت علىٰ إبراهيم ، حتىٰ إن للنار ـ أو قال لجهنم ـ ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثياً » رواه الإمام أحمد والبيهقي بإسناد حسن .

وعن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس ، ويُرسِل الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً ؛ فيمر أولكم كالبرق الخاطف ، ثم كمرِّ الريح ، ثم كمر الطير ، ثم كشدِّ الرجال ـ أي عدوهم ـ تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سَلِّمْ سَلِّمْ ، حتىٰ تعجز أعمال العباد ، حتىٰ يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة

(١) جثياً : جالسين علىٰ ركبهم .

تأخذ من أمرت به ؛ فمخدوش ناج ، ومكدوس في النار »[1] رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « يوضع الصراط علىٰ سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مَدحَضة[2] مزلقة عليه كلاليب من نار » الحديث رواه الطبراني بإسناد حسن .

وأما الحوض : فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه[3] كنجوم السماء ، من شرب منه . . فلا يظمأ أبداً » رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية لهما : « وزواياه سواء » أي : طوله كعرضه .

وأما الجنة والنار : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ ، ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « . . . ويؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » رواه مسلم وغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ناركم هـٰذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » رواه البخاري ومسلم .

وعنه أيضاً قال : كنا عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فسمعنا وَجْبَة[4] فقال صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما هـٰذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ،

---

(١) **مخدوش** : أي : تأخذ الخطاطيف من لحمه لتعسفه في النار ، ثم ينجو . **ومكدوس** : مدفوع مطروح في النار .

(٢) **مدحضة** : مزلة .

(٣) كيزانه ـ جمع كُوزٍ ـ أي : آنيته التي يشرب بها منه .

(٤) **الوجْبَة** : السقطة مع الهدة .

قال : « هـٰذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن انتهىٰ إلىٰ قعرها » رواه مسلم .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ علىٰ أخمص قدميه جمرتان ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرْجَل » رواه البخاري ومسلم . ولفظه : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة من له نعلان وشِراكان من نار ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرىٰ أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ[1] في النار صبغة ثم يقال : يا بن آدم ؛ هل رأيت نعيماً قط ؟ هل مر بك خير قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ؛ ويؤتىٰ بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له : يا بن آدم ؛ هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرت بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب » رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول زمرة يدخلون الجنة علىٰ صورة القمر ليلة البدر ، علىٰ خلق رجل واحد ، علىٰ صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء ، لايبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يبصقون فيها ، ولا يتمخطون ، آنيتهم فيها الذهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الأَلوَّة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يُرىٰ مخ ساقيهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض . قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبِّحون الله بكرة وعشياً » رواه البخاري ومسلم .

و(الأَلوَّة) بفتح الهمزة وضمها وضم اللام وتشديد الواو المفتوحة : من أسماء العود الذي يُتبخر به .

---

(١) يصبغ : أي يغمس .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة ليتراءَون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءَون الكوكب الدري لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله ؛ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلىٰ والذي نفسي بيده ؛ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « إن للمؤمن في الجنة لخَيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم فلا يَرىٰ بعضهم بعضاً » رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ، وإن شئتم فاقرؤوا : ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ » رواه البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالىٰ : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لوِ ٱطَّلَعَتِ امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض. . لملأت ما بينهما ريحاً ، ولأضاءت ما بينهما ، ولنَصيفها علىٰ رأسها خير من الدنيا وما فيها » رواه البخاري ومسلم .

و(النصيف) : الخمار .

وأما الرؤية : فقال الله تعالىٰ : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .

قال أئمة التفسير : (الحسنى) : الجنة . و(الزيادة) : النظر إلىٰ وجه الله الكريم .

وقال تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أناساً قالوا : يا رسول الله ؛ هل نرىٰ ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « نعم ، هل تضارون[1] في رؤية القمر ليلة البدر ؟ » قالوا : لا . قال : « هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فإنكم ترونه كذلك . . . » فذكر الحديث بطوله . رواه البخاري ومسلم .

وعن صُهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة . . يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيِّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجِّنا من النار ؟ قال : فيَكشِف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلىٰ ربهم » ، ثم تلا هـٰذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ رواه مسلم .

وأما الشفاعة : فهي أربعة أقسام :

الأولىٰ : في الاستراحة من هول الموقف ، وتعجيل فصل القضاء وتلكم المقام المحمود الموعود به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

والثانية : في قوم استوجبوا النار ، فيشفِّع الله فيهم من أكرمه من عباده النبيين والصديقين والعلماء والشهداء والصالحين ، فيدخلون الجنة برحمة الله .

والثالثة : في إخراج قوم من الموحِّدين من النار ، فيُشَفِّع الله فيهم من يشاء من عباده حتىٰ لا يبقىٰ في النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان .

---

(١) بتخفيف الراء مع ضم أوله : من الضير ، وبتشديدها مع الفتح : من المضارّة ، ومعناهما واحد ؛ أي : لا يضايق بعضهم بعضاً في رؤيته ولا ينازعه ولا يخالفه بل يكونون متفقين في رؤيته تعالىٰ .

والرابعة : في زيادة الدرجات لأقوام قصرت أعمالهم عن اللحاق بأهلهم ، فيُلحِق الله بهم ذرياتهم وغيرهم .

وكل ذلك قد وردت فيه النصوص الصريحة والأحاديث الصحيحة ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة . . ماج الناس بعضهم علىٰ بعض فيأتون آدم فيقولون : اشفع لذريتك . فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بإبراهيم ؛ فإنه خليل الله ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بموسى ؛ فإنه كليم الله ، فيأتون موسىٰ فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بعيسى ؛ فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسىٰ فيقول : لست لها ، ولـٰكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه حبيب الله ، فيأتوني فأقول : أنا لها ، أنا لها . . . » الحديث رواه البخاري ومسلم مطولاً .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي دعوة قد دعا بها فاستُجِيب له ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » رواه أبو داوود وابن حبان في « صحيحه » .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشفعُ لأمتي حتىٰ ينادي ربي تعالىٰ فيقول : قد رضيتَ يا محمد ؟ فأقول : أي ربِّ ؛ قد رضيتُ » رواه الطبراني ، وإسناده حسن .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « توضع للأنبياء منابر من نور يجلسون عليها ، ويبقىٰ منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقىٰ أمتي بعدي ؛ فأقول : يا رب ؛ أمتي أمتي ، فيقول عز وجلَّ : يا محمد ؛ ما تريد أن أصنع بأمتك ؟ فأقول : يا رب ؛ عجل حسابهم ، فيدعىٰ بهم فيحاسبون ؛ فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ، فما أزال أشفع

حتىٰ أُعطَىٰ صِكاكاً برجال قد بُعث بهم إلى النار ، حتىٰ إن مالكاً خازن النار ليقول : يا محمد ؛ ما تركتَ لغضب ربك في أمتك من نقمة » رواه الطبراني والبيهقي بإسناد غير متروك .

و(الصِّكاك) : جمع صك ، وهو الكتاب .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليشفع في الرجلين والثلاثة » رواه البزار برواة الصحيح .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لَيَدْخُلنّ الجنَةَ بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يشفِّع الله تعالىٰ آدم عليه السلام يوم القيامة من جميع ذريته في مئة ألف ألف ، وعشرة آلاف ألف » رواه الطبراني .

وعن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول إبراهيم يوم القيامة : يا رباه ؛ فيقول الرب جل وعلا : يا لبَّيكاه! فيقول إبراهيم : يا رب ؛ حرقتَ ذريتي بالنار ، فيقول الرب تعالىٰ : أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرة أو شعيرة من إيمان » رواه ابن حبان في « صحيحه » .

قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في تنزيه الباري تعالىٰ : (كل من خطر بباله أن الله تعالىٰ جسم مركب . . فهو كعابدِ صنَم ؛ فإن كل جسم حادثٌ مخلوق ، وعبادة الحادث المخلوق كفر ، وعبادة الصنم إنما كانت كفراً ؛ لكونه مخلوقاً ، وإنما كان مخلوقاً ؛ لكونه جسماً ، ومَن عَبَد جسماً . . فهو كافر بالإجماع ، صغيراً كان ذلك الجسم كالذرة أو كبيراً كالعرش ، جماداً كان كالحجارة أو حيواناً كالإنسان ، لطيفاً كان كالهواء والماء أو كثيفاً كالتراب ، مشرقاً كان كالشمس والنجوم أو مظلماً كالأرض .

قال : وأما ما ورد في الكتاب والسنة من الألفاظ المشكلة الموهمة

بظواهرها اتصاف الباري تعالىٰ بما هو من سمات الحدوث والجسمية وتوابعها ، كالاستواء والمجيء والنزول ، واليد والقدم ، والصورة ونحو ذلك . . فيجب عند سماعها أمور :

أحدها : تنزيه الباري تعالىٰ عن الجسمية وتوابعها .

ثانيها : التصديق بها ، وهو أن يعتقد قطعاً أن هـٰذه الألفاظ أريد بها معنىً يليق بجلال الله وعظمته ، وأن ما وَصَف الله به نفسَه ووصفه به رسلُه . . صِدْقٌ وحق ، على الوجه الذي قاله والمعنى الذي أراده .

ثالثها : الاعتراف بالعجز علىٰ كل من لم يقف علىٰ كنه هـٰذه المعاني وحقيقتها ، ولم يعرف تأويلها ، مع اعتقاد أن ما خفي عليه من معاني هـٰذه الظواهر ، وانطوىٰ عنه من أسرارها ليس منطوياً عن الرسول ، ولا عن الصدِّيق وأكابر الصحابة والأولياء والعلماء الراسخين في العلم ، وأنه إنما انطوىٰ عنه لعجزه وقصور قوته ، فلا ينبغي أن يقيس بنفسه غيره .

رابعها : الإمساك عن التصرف في تلك الألفاظ بتفسير أو تصريف أو تفريع ، فلا يبدِّل شيء منها بلفظ آخر ، ولا يترجم بلغة أخرىٰ ولو أدىٰ معناه ، بل يقتصر علىٰ إيراد اللفظ الوارد بصيغته كما ورد ، ولأجل ذلك بالغ السلف في الجمود والاقتصار علىٰ موارد التوقيف كما ورد على الوجه الذي ورد باللفظ الذي ورد .

والحقُّ ما قالوه ؛ إذ أحق المواضع بالاحتياط ما هو تصرف في ذات الله وصفاته ، وأحق الأعضاء بإلجامه وتقييده اللسانُ عن الإطلاق فيما يعظم فيه الخطر ، وأيُّ خطر أعظم من الكفر ؟) .

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ في « شرح أسماء الله الحسنى » بعد أن ذكر كيفية تخلُّق العبد بأسماء الله تعالىٰ : (اعلم أن مما حملني علىٰ ذكر هـٰذه التنبيهات ردفَ هـٰذه الأسماء والصفات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تخلَّقوا بأخلاق الله تعالى » مع القصد إلى التنبيه علىٰ ما تداولته ألسنة الصوفية من أن

الأسماء التسعة والتسعين قد تصير أوصافاً للعبد ؛ حذراً من أن يتوهَّم الغبي بأحوال القوم أن في ذلك شيئاً من معنى الحلول والاتحاد ؛ فإن ذلك غير مظنون صدوره من عاقل عَرَف ما يجب للرب سبحانه وتعالىٰ من التنزيه والتقديس ، وما يستحيل في حقه من مشابهة المخلوقين ، وإنما مرادهم : أنه يحصل للعبد ما يناسب تلك الأوصاف علىٰ نحو ما أوردناه من التنبيهات ، ولا يجوز لمسلم أن يظن بهم إلا ذلك ، ويكون في اللفظ نوع من التوسع والاستعارة ، كما يقال : أبو يوسف أبو حنيفة ، وكذلك قولهم : اتصف العبد بصفات الرب ، ليس مرادهم : أن صفات الرب صارت أوصافاً للعبد ، وإنما مرادهم أنه يحصل للعبد نوع من المماثلة بصفات الرب سبحانه ، فإن ظنّ ظانٌّ غير ما ذكرناه . . فهو باطل قطعاً) .

وقال رحمه الله تعالىٰ : (اعلم : أن إثبات النبوة أعظم أركان الإيمان بعد إثبات التوحيد .

وعلى الحقيقة : فلا يُدرِكُ بالذوق شيئاً من معنى النبوة من لم يَذُق شيئاً من معنى السلوك والرياضة ؛ لأن نهايات الأولياء على التحقيق بدايات الأنبياء ، فَمَن مارس تلك الطرائق . . اتضح له بالكشف والعِيان شيء من حقيقة النبوة وخاصيتها ، ولـٰكن لا بد من التنبيه علىٰ أصلها بإقامة البرهان العقلي ؛ لشدة مسيس الحاجة إليها . . فنقول :

اعلم : أن الإنسان يُخلق خالياً عن جميع الإدراكات لا شعور له بشيء ، فأول ما يحصل له الشعورُ بواسطة الحواس الخمس ، فيدرك بكل واحدة شيئاً لا يدركه بالأخرىٰ ، ثم إذا بلغ نحو سبع سنين . . خُلق فيه التمييز ـ وهو طور آخر يدرك فيه أموراً زائدة على المحسوسات ـ ثم يترقىٰ مع البلوغ إلىٰ طور العقل فيدرك به الجائز والمحال ، وكما أن طور الحواس قاصر عن طور التمييز . . فكذلك طور التمييز قاصر عن طور العقل ، ويلزم من ذلك أن وراء العقل أطواراً أُخر ، يُدرَك فيها ما لا يدرك في طور العقل من الاطلاع على الغيب ، وأموراً أُخَر العقلُ معزول عنها .

ولـٰكن العقل لا يحيل أن يترقى الإِنسان الكامل إلىٰ طور فوق العقل ، يفتح الله له فيه عيناً يُدرِكُ بها ما لا يدركه العقل ، كما يرقى الصبي المميّز إلىٰ طور العقل ، والطفلُ إلىٰ طور التمييز ، والله قادر علىٰ أن يخلق في قلوب عباده المعرفة به ابتداءً بغير واسطة وبواسطة ، وإذا جاز هـٰذا في العقل وجاءت الرسل بما دل علىٰ صدقهم من المعجزات . . وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به ، فإذا وقع الشك في شخص معين أنه نبي أم لا . . عُرِض حاله علىٰ خاصّية النبوة ؛ فإنك إذا عرفت خاصية الفقيه مثلاً . . أمكنك أن تميز بين الفقيه وغير الفقيه ، سواء شاهدت أحواله أو سمعتها بنقل ؛ فإن مَن تعلَّم مثلاً طَرَفاً صالحاً من الفقه ثم طالع كتب الإِمام الشافعي ونظر في تصانيفه . . حصل له العلم الضروري بحاله ، وكذلك إذا فهمت معنى النبوة وخاصيتها ، وأكثرت النظر في القرآن وفي السنة . . حصل لك لا محالة العلم القطعي والإِيمان القوي بأن نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وسلم في أعلىٰ درجات النبوة) اهـ

ومراده بخاصية النبوة : أن الأنبياء بشر كغيرهم ، ولا يتميزون عن سائر أبناء جنسهم إلا بالمعجزات الخارقة للعادات ، التي يقطع العقل بأن مثل ذلك خارج عن طوق البشر ، فكل ما أظهره الله تعالىٰ من خوارق العادات علىٰ أيدي الأنبياء عليهم السلام مما يعجز البشر عن الإِتيان بمثله . . فهو من دلائل نبوتهم وبراهين صدقهم ؛ لأنه لمَّا كان لا يمكن أن يفعل ذلك الفعل إلا الله . . كان ظهوره بمثابة التصديق منه لهم ، فهو قائم مقام قوله تعالىٰ : صدق عبدي فاتبعوه .

واعلم : أن المعجزة التي يتحدىٰ بها ، وتقترن بدعوى الرسالة لا تكون غالباً إلا من جنس ما يزعم أهل ذلك العصر أنهم في نهاية العلم به ، وبلوغ غاية المعرفة فيه ، ثم يعجزون عن معارضتها ؛ ليكون ذلك أبلغَ في إلزام الحجة .

ولهـٰذا لما كان زمنُ موسىٰ عليه السلام غايةُ علم أهله السحر والتفننُ فيه ، حتىٰ إنه اجتمع عند فرعون من مدائن الشام ومصر لا غير نحوٌ من سبعين ألف ساحر . . جعل الله معجزة موسىٰ من جنس علمهم الذي يدَّعون كمال المعرفة

فيه ، فألقوا حبالهم وعِصِيَّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ ، فألقىٰ عصاه فتلقفت ما صنعوا وبطل سحرهم ، وهو رجل واحد بعصاً واحدة ، وهو لم يعرفه أحد منهم أنه طلب علم السحر ، أو قرأه علىٰ أحد منهم أو علىٰ غيرهم ، فخرق بذلك عاداتهم ، وعلموا علماً يقيناً أن ذلك مما لا يدخل تحت طوق البشر ، وأن مثله لا يكون إلا بقدرة الله تعالىٰ ، وأنه إنما أظهره علىٰ يده حجة وبرهاناً لتصديقه ، فآمنوا به لما أراد الله بهم السعادة ، وصدقوه فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ .

وكذلك أيضاً ، لما كان زمنُ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام غايةُ علم أهله التفننُ في علم الطب ، بل وإلىٰ هـٰذا التاريخ أكثر علم النصارى الطب ، كما أن أكثر علم اليهود السحر . . فبعث الله عيسىٰ ، وجاءهم بمعجزة من جنس علمهم ، لـٰكنهم يقطعون بالاتفاق أن درجة الطب لا تنتهي إلىٰ ذلك ، لا سيما من رجل لم يُعرَف بذلك العلم أصلاً ، وهو إحياء الموتىٰ ، وإبراء الأكمه ـ وهو الذي خُلِق أعمى ـ والأبرصِ في ساعته من غير علاج ، فأعجزهم وأبطل به عذر من لم يؤمن به .

وهـٰكذا لما بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم . . كان منتهىٰ علم قومه في عصره أمرين :

أحدهما : فصاحة المنطق ، وبلاغة القول ، والتفنن فيه نظماً ونثراً في أشعارهم وخطبهم ومساجلاتهم .

وثانيهما : علم الكهانة والإخبار عن بعض الحوادث .

فجعل الله معجزته العظمى التي تحداهم بها في دعوى الرسالة « القرآن العظيم » ، علىٰ هـٰذا الأسلوب الغريب ، والنمط العجيب ، فأعجز بفصاحته البلغاء وَبَهَرَ به اللُّدَّ الفصحاء ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُوَر من مثله ، ثم بسورة من مثله ، ثم بآية . . فلم يقدر واحد منهم أن يعارضه ، وهم قريش وأهل بطحاء مكة الذين كان يرتجل أحدهم الخطبة ارتجالاً ، ولا يُحْصَر

ولا يتوقف فيها ولا يتقهقر ، مع شدة حرصهم وتهالكهم علىٰ إفحامه وإعجازه وتكذيبه .

ثم جعله أيضاً مشتملاً على الإخبار بالمغيَّبات ، مما قد كان ومما هو آت ، وقصص الأولين ، وشرائع المرسلين التي كانت لا توجد القصة منها إلا عند الفذ من الأحبار والرهبان ، ولا ينالها بالتعلم إلا من قطع العمر وأفنىٰ في طلبها الأزمان ، إلىٰ ما احتوىٰ عليه من بليغ المواعظ والحكم ، وكريم الأخلاق والشيم ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وإثبات النبوة والتوحيد ، إلىٰ غير ذلك مما لا ينفد من الغرائب ، ولا يحصر من العجائب ، فأبطل بذلك الكهانة التي تصدُق مرة وتكذب ألفاً .

هـٰذا وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، من أنفُسِهم ، نشأ بين أظهرِهم ، غير معروف بمطالعة سير الأولين ، ولا مُتَّهم بكذب ، بل يُسمىٰ عندهم إلىٰ أن بلغ الأربعين : الصادق الأمين .

فمن أراد الله له الهداية . . علم قطعاً أن ذلك لا يكون إلاّ من عند الله ، وأنه صادق فيما ادعاه ؛ إذ العقل يقطع بأن ذلك خارج عن طوق البشر ، وأن مثل ذلك لا يكون إلا للأنبياء المؤيدين بالوحي .

هـٰذا إلىٰ ما اشتهر له وشاع عنه عندهم ، وشاهدوه في المجامع والمحافل ، من المعجزات الظاهرة ، والخوارق الباهرة ، كانشقاق القمر ، وتسليم الحجر ، وإجابة الشجر ، وحنين الجذع ، وتسبيح الحصىٰ بكفه الشريفة ، وتفجير الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل ببركته ، وشهادة الذراع المسموم ، وتكليم الضب والظبية والبعير والذئب ، إلىٰ غير ذلك مما يتعذر حصره .

هـٰذا مع ما هو مجبول عليه من ملازمة الصدق من صغره إلىٰ أن فارق الدنيا ، بحيث لم يجد أعداؤه سبيلاً إلىٰ أن يجربوا عليه كذبة خفيفة قط ، حتىٰ في المزاح ، فقد كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، ومع نهاية الجود والكرم ،

والزهد في الدنيا مع تمكنه منها ، وغير ذلك من الأوصاف الحميدة التي يستحيل أن يجمع الله بعضها في كذَّاب يفتري عليه ، ثم يظهر دينه على الأديان ، وينصره علىٰ مرّ الدهور والأزمان .

فهل للنبوة والرسالة خاصية يتميز بها الرسول غير هـٰذا ؟ وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فاعتبروا يا أولي القلوب والأبصار ، قال الله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وإذا ثبتت رسالته وصدقه ، وقد نطق كتابه الحق المبين بأنه رسول إلى الناس أجمعين ، وأنه خاتم النبيين ، وناسخ لشرائع المتقدمين . . كان من زعم خلاف ذلك من الكاذبين ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

* * *

وَشَمِّتْ عَاطِساً وَٱنْصَحْ وَسَلِّمْ   وَعُدْ وَٱتْبَعْ جَنَازَةَ كُلِّ مُسْلِمْ
تَقُمْ بِٱلْحَقِّ وَٱسْتَجِبِ ٱلْمُنَادِي

أي : الداعي .

و(تَقُمْ بالحق) أي : الواجب عليك لكل مسلم .

وأصل البيت : قوله صلى الله عليه وسلم : « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته . . فسلِّم عليه ، وإذا دعاك . . فأجبه ، وإذا استنصحك . . فانصحه ، وإذا عَطسَ فحمِد الله . . فشمِّته ، وإذا مرض . . فعُده ، وإذا مات . . فاتبعه » رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه وجوب القيام بحقوق المسلمين عموماً ، وحسن الصحبة معهم .

وقد جاء في فضل هٰذه الست الخصال خصوصاً ، وفضل القيام بحقوق المسلمين عموماً . . آياتٌ وأخبار كثيرة .

أما السلام : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام علىٰ مَن عَرَفتَ ومن لم تعرف » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابُّوا ، أوَلا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن سَلاَم ـ بالتخفيف ـ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس ؛ أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام . . تدخلوا الجنة بسلام » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وأما إجابة الداعي : ففيه الحديث السابق : « حق المسلم على المسلم ست » .

وقد جاء في « الصحيحين » : « حق المسلم على المسلم خمس. . . » وذكرها بحذف : « وإذا استنصحك . . فانصح له » .

وفيهما أيضاً من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع : بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، ونصرة الضعيف ، وعون المظلوم ، وإفشاء السلام ، وإبرار المقسِم » .

وقد يحتمل أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « وإذا دعاك. . فأجبه » : إجابة الداعي إلى الوليمة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من لم يجب الدعوة. . فقد عصى الله ورسوله » أخرجه مسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا دُعي أحدكم. . فليُجِب ؛ فإن كان صائماً . . فَلْيُصَلِّ[1] ، وإن كان مفطراً . . فليَطْعَم » أخرجه مسلم أيضاً .

وأما النصيحة : فقال الله تعالىٰ إخباراً عن عباده المرسلين عليهم السلام : ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحةُ » ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « للهِ ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصحِ لكل مسلم) . رواه البخاري ومسلم .

---

(١) الصلاة هنا بمعنى الدعاء ؛ أي : فليدعُ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا . . فليس منَّا » رواه مسلم .

وأما تشميت العاطس : ففيه أيضاً ما سبق .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب ، فإذا عطس أحدكم وحمد الله . . كان حقاً علىٰ كل مسلم سمعه أن يقول له : يرحمك الله ، وأما التثاؤب . . فإنما هو من الشيطان[1] ، فإذا تثاءب أحدكم . . فليرده ما استطاع ؛ فإن أحدكم إذا تثاءب . . ضحك الشيطان منه » رواه البخاري .

وعنه ـ أيضاً ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا عطس أحدكم . . فليقل : الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له : يرحمك الله . . فليقل له : يهديكم الله ويصلح بالكم » رواه البخاري .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا عطس أحدكم فحمد الله . . فَشَمِّتوه ، فإن لم يحمد الله . . فلا تشمتوه » رواه مسلم .

وأما عيادة المريض وتشييع الجنازة : ففيهما أيضاً ما سبق .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا بن آدم ؛ مرضتُ فلم تعدني . قال : يا رب ؛ كيف أعودك وأنت رب العالمين! قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدْتَهُ . . لوجدتَني عنده . . . » الحديث رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله : (أضيف التثاؤب إلى الشيطان ؛ لأنه يدعو إلى الشهوات ؛ إذ يكون عن ثقل البدن واسترخائه وامتلائه ، والمراد : التحذير من السبب الذي يتولد منه ذلك ، وهو التوسع في المأكل) « فتح الباري » (١٠/ ٦١٢) .

وسلم : « عُودُوا المرضىٰ ، واتبعوا الجنائز ؛ تذكركم الآخرة » رواه الإمام أحمد وابن حِبان في « صحيحه » .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمسٌ من فعل واحدة منهن . . كان ضامناً على الله عزّ وجل : من عاد مريضاً ، أو خرج مع جنازة ، أو خرج غازياً ، أو دخل علىٰ إمامه يريد تعزيره وتوقيره ، أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس » رواه الإمام أحمد وابن حبان وابن خزيمة في « صحيحيهما » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « من أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « من تبع منكم اليوم جنازة ؟ » قال : أبو بكر : أنا . قال : « من عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعت هٰذه الخصال قط في رجل . . إلا أدخله الله الجنة » رواه ابن خزيمة في « صحيحه » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً . . ناداه منادٍ من السماء : طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلاً » رواه الترمذي وحسنه ، وابن حِبان في « صحيحه » .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد الجنازة حتىٰ يُصَلَّىٰ عليها . . فله قيراط من الأجر ، ومن شهدها حتىٰ تدفن . . فله قيراطان » ، قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين » رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية للبخاري : « من اتبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً ، وكان معها حتىٰ يُصَلَّىٰ عليها ويُفرَغ من دفنها . . فإنه يرجِع من الأجر بقيراطين ، كل قيراط مثل جبل أُحُد ، ومَنْ صلىٰ عليها ثم رجع قبل أن تُدفَن . . فإنه يرجِع بقيراط » .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (القيام بحقوق المسلمين وحسن

الصحبة معهم ركن من أركان الدين ؛ إذ الدِّين معناه السفر إلى الله تعالىٰ ، ومن آداب السفر حسن الصحبة في منازل السفر مع المسافرين ، والخلْق كلهم سَفْرٌ يسير بهم العمر سيرَ السفينة براكبها .

واعلم : أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع خواصه ، من أهل وقريب وجار ، أو مع عموم الناس ؛ فهٰذه ثلاثة أحوال ، وعليه حسن الصحبة وأداء الحقوق في جميع هٰذه الأحوال :

الأولىٰ : أن يكون وحده ؛ فليعلم أنه بنفسه عالَم مستقل ، وأن باطنه مشتمل علىٰ أصناف من الخلق مختلفي الطباع والأخلاق ، فإن لم يكن يحسن صحبتهم ، ولم يقم بحقوقهم . . هلك ، وأصناف جنودِ الباطن كثيرة ، وقد استقصينا منه بعضاً في كتاب عجائب القلب من « الإحياء » .

الثانية : صحبته مع عموم الخلق ؛ وأقل درجات حسن الصحبة : كف الأذىٰ عنهم ، وفوق ذلك : أن تنفعهم وتحسن إليهم ، وفوق ذلك : أن تحتمل الأذىٰ منهم ، وفوق ذلك : أن تحسن إلىٰ من أساء إليك منهم ، فتلك درجة الصديقين .

وتفصيل هٰذه الحقوق كثير ، ويجمع هٰذا كله : أن تعمل في حقهم ما تُحِب أن يُعمَل في حقك ، من كف الأذىٰ وإحسان واهتمام .

واعلم : أن العبد في حق نفسه : إما سالم ، وهو المقتصر علىٰ أداء الفرائض وترك المعاصي ، أو رابح ، وهو المتطوِّع بالقربات والنوافل ـ أي : مع ترك المناهي ـ أو خاسر : وهو المقصِّر عن اللوازم ؛ فإن لم تقدر أن تكون رابحاً . . فاجتهد أن تكون سالماً ، وإياك ثم إياك أن تكون خاسراً .

والعبد في حق سائر العباد له أيضاً ثلاث حالات :

الأولىٰ : أن ينزل في حقهم منزلة الكرام البَررة من الملائكة ، وهو أن يسعىٰ في مصالحهم رفقاً بهم ولإدخال السرور علىٰ قلوبهم .

الثانية : أن ينزل في حقهم منزلة البهائم فلا ينالهم خيره ، ولٰكن يكفُّ عنهم شرَّه .

الثالثة : أن ينزل في حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات ، لا يُرجىٰ خيره ، ولٰكن يتّقىٰ شرُّه .

فإن لم تقدر أن تلحق بأفق الملائكة . . فاحذر أن تنزل عن درجة البهائم إلىٰ حال العقارب والحيات ، وإذا رضيت لنفسك النزول من أعلىٰ علِّيين . . فلا ترضىٰ لها بالهَوِي إلىٰ أسفل السافلين ؛ فلعلك أن تنجو كَفافاً لا لك ولا عليك .

فإن عجزت عن القيام بحفظ دينك مع خِلْطة الناس وكنت لا تسلم . . فالعزلة أولىٰ لك ؛ ففيها السلامة .

❊ ❊ ❊

وَآتِ ٱلْحَقَّ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ وَأَصْلاً وَجِيْرَاناً وَمَمْلُوكاً وَأَهْلاً
وَأَصْحَاباً بِبِشْرٍ وَٱنْقِيَادِ

ذكر في هذا البيت حقوق مَنْ يُدْلي بسبب زائد على عموم الإسلام : من قرابة أو ولادة ، أو مجاورة ، أو ملك يمين ، أو نكاح أو صحبة ، فهم ستة .

والأصل فيهم : قوله تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ، ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ، ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ ، ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ، ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

أما القرابة : فهم سائر الأرحام ، وقد سبق ذكر صلة الرحم في الباب الثالث .

وأما الأصول : فهم الآباء والأمهات ، وقد قرن الله تعالىٰ برّهم بعبادته ، فقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة لأول وقتها » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : « أمّك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك أدناك » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَغِم أنف ، ثم رَغِمَ أنف ، ثم رغِمَ أنف من أدرك أبويه عند الكبر ـ أحدَهما أو كلاهما ـ ثم لم يدخل الجنة » رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنه في الجهاد ، فقال : « أَحيٌّ والداك ؟ » قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يسبَّ الرجل والديه » ، قالوا : وكيف يسبُّ الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » رواه البخاري ومسلم .

وأما الجار : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي : الذي قَرُب جواره ، وقيل : الذي له قرابة أيضاً ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ أي : البعيد ، وقيل : الذي لا قرابة له ولا رحم .

وعن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سَيُورِّثه » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » ، قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه »[1] رواه البخاري ومسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ إن لي جارين ، فإلىٰ أيهما أُهدي ؟ قال : « إلىٰ أقربِهما منكِ باباً » رواه البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قالوا : يا رسول الله ؛ إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولـٰكنها تؤذي جيرانها ؟ قال : « هي في النار » رواه الإمام أحمد وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

---

(١) **البوائق** : الغوائل والشرور .

وأما المملوك : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ أي : وبما ملكت أيمانكم .

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنهم إخوانكم ، فضَّلكم الله عليهم ، وجعلهم تحت أيديكم ، فمن جُعِل أخوه تحت يده . . فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا يكلِّفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلَّفه ما يغلبه . . فليُعِنْه عليه » رواه البخاري ومسلم وأبو داوود وزاد : « فمن لاءَمَكم منهم . . فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ومن لا يلائمكم . . فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قذف مملوكه بزناً . . أقيم عليه الحدُّ يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : كنت أضرب غلاماً لي بالسَّوط ، فسمعت صوتاً من خلفي ، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اعلم يا أبا مسعود : أن الله أقدر عليك منك علىٰ هـٰذا الغلام » ، فقلت : لا أضرب مملوكاً بعده أبداً وفي رواية : فقلت : هو حرٌّ لوجه الله تعالىٰ ـ فقال : « أما إنك لو لم تفعل . . لَلَفحتك النار » رواه مسلم .

وأما الأهل ـ وهي الزوجة ـ : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استوصُوا بالنساء خيراً ؛ فإن المرأة خلقت من ضِلَع أعوج ، وإن أعوج ما في الضِلَع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه . . كسرتَه ، وإن تركتَه . . لم يزل أعوج ، فاستوصُوا بالنساء خيراً » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَفْرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خُلقاً . . رضي منها آخر غيره » رواه مسلم .

(يفرك) بفتح الراء : يبغض .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » رواه ابن حبان في « صحيحه » .

وأما الأصحاب : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثل الجليس الصالح وجليس السُّوء كحامل المسك ونافخ الكِير ؛ فحاملُ المسك إما أن يُحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه رائحة منتنة » رواه البخاري ومسلم .

و(يحذيك) بالحاء المهملة والذال المعجمة ؛ أي : يعطيك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرجل علىٰ دِين خليله ؛ فلينظر أحدكم من يخالِلُ » رواه أبو داوود والترمذي بإسناد صحيح .

وعن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجنَّدة ، فما تعارف منها . . ائتلف ، وما تناكر منها . . اختلف » رواه البخاري ومسلم .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » رواه الترمذي وحسَّنه .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ » رواه أبو داوود والترمذي بإسناد جيد .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كنتم ثلاثة . . فلا يتناجى اثنان دون آخر حتىٰ تختلطوا بالناس ؛ من أجل أن ذلك يَحْزُنه » رواه البخاري ومسلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُمارِ أخاك ولا تمازحه ، ولا تعدْه موعداً فتخلفه » رواه الترمذي .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتىٰ يعمله » رواه الترمذي وحسنه .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ردَّ عن عرض أخيه بالغيب . . ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة » رواه الترمذي وحسنه .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (من أصول الدين في أمر الصحبة اتخاذُ الإخوان في الله .

واعلم : أن كل حب لا يتصوَّر دون الإيمان بالله واليوم الآخر . . فهو حبٌّ في الله تعالى[1] ، ولـٰكنه علىٰ درجتين :

الأولىٰ : أن تحبه لتنال منه في الدنيا نصيباً يوصلك إلى الآخرة ؛ كحبك أستاذك وشيخَك وتلميذك ، بل خادمك الذي يفرّغ قلبك لطاعة الله تعالىٰ .

الثانية ـ وهي أعلىٰ ـ : أن تحبه ؛ لأنه محبوب عند الله ومحبٌّ لله وإن لم يتعلق لك به غرض في الدنيا والآخرة ، من علم أو معونة علىٰ دِين أو غيره ، وهـٰذا أكمل ؛ لأن الحب إذا غلب . . تَعدَّىٰ إلىٰ كل من هو من

---

(١) أوضح هـٰذه العبارة في « الإحياء » في (باب المحبة) بقوله : (كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده . . فهو حب في الله ، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله . . لم تكن تلك الزيادة ، فتلك الزيادة من الحب في الله) اهـ

المحبوب بسبب ، حتىٰ يحب الإنسان محب محبوبه ومحبوب محبوبه! بل يميز بين الكلب الذي في سكة محبوبه وبين غيره من الكلاب!

وإنما سِراية الحب بقدر غلبة الحب ، ومن أحب الله . . فلا يمكنه إلا أن يحب عباده المَرضيين عنده ، إلا أن ذلك قد يقوىٰ حتىٰ يحمله علىٰ أن يؤثرهم علىٰ نفسه ، وقد يقصر عن ذلك وفضلهم عنده بقدر درجتهم في الحب وقوَّته .

وكذلك يُبغض لا محالة من يعصي الله ويخالف أمره ، ويظهر أثر ذلك عليه في تقطيب الوجه عند مشاهدته ، وفي مجانبته ومهاجرته .

وبالجملة : إن من لا يصادف من نفسه الحب في الله والبغضَ في الله بهٰذه الأسباب . . فهو ضعيف الإيمان ، وهٰذا له تحقيق وتفصيل ، فاطلبه من كتاب الصحبة والأخوَّة في الله تعالىٰ من « الإحياء ») .

* * *

بَابُ السَّبْعَةِ

وَكُـــنْ مِمَّـــنْ يُظِلُّهُــمُ ٱلإِلٰـــهُ ... بِظِــلٍّ يَــوْمَ لاَ ظِــلٌّ سِــوَاهُ
وَقَدْ حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ بِٱلاشْتِدَادِ
إِمَــامٌ عَــادِلٌ وَفَتًــى عَفِيْــفُ ... وَمُخْــفٍ لِلتَّصَــدُّقِ وَالأَلُــوفُ
لأَرْجَـاءِ ٱلْمَسَـاجِدِ ذُو ٱعْتِيَـادِ
وَمَــنْ فِــي ٱللهِ وَالَــىٰ مَــنْ يُــوَالِي ... وَصَــدَّ إِذَا دَعَــتْ ذَاتُ ٱلْجَمَــالِ
وَبَـاكٍ لِلْمَخَـافَـةِ فِـي ٱنْفِـرَادِ

(**الوطيس**) : التنور ، والعرب تقول للأمر إذا اشتد فيه الكرب : قد حَمِي الوطيس ، علىٰ سبيل الاستعارة .

و(**الفتى**) : هو الشاب من الرجال ، و(**العفيف**) : المانع نفسه من المحارم .

و(**الأرجاء**) : الجوانب ، ومنه ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ .

و(**الألوف**) بفتح الهمزة : من ألف الشيء واعتاده ، و(**صدّ**) : أعرض وامتنع .

وأصل الباب كلِّه : قوله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابّا في الله ـ اجتمعا علىٰ ذلك وتفرَّقا عليه ـ ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد جاء أيضاً في فضائل هٰذه الخصال السبع آيات وأخبار كثيرة .

أما العدل ومدحه ، والجَور وقبحه : فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ

بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (أجمعُ آية في القرآن لخير وشر آيةُ النحل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ. . . ﴾ .

و(العدل) : الإنصاف ، فلا يفعل لنفسه ولغيره إلا ما هو عدل ونَصَفَةٌ .

و(الإحسان) : إيصالك المعروف إلى الناس ، وكفُّ الأذىٰ عنهم ، والعفو عن أذاهم أيضاً . و(إيتاء ذي القربى) : صلة الرحم .

و(الفحشاء) : ما فَحُش وقبح من الفعل والقول . و(المنكر) : ما لا يعرف في الشرائع . و(البغي) : الظلم والعدوان .

ولا شك أنه لم يبق شيء من المأمورات الشرعية إلا وقد دخل فيها ، ولا شيء من المنهيّات إلا وقد شملته هـٰذه الآية الكريمة .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المقسطين عند الله يوم القيامة علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وفيما وُلُّوا » رواه مسلم .

و(المقسط) : العادل . وأما (القاسط) : فهو الجائر .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يومٌ من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحَدٌّ يقام في الأرض بحقه أزكىٰ فيها من مطر أربعين صباحاً » رواه الطبراني بإسناد حسن .

وعن عائشة[١] رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من أمير ثلاثةٍ فأكثر ، إلا يؤتىٰ به يوم القيامة مغلولاً ؛ فلا يفكُّهُ إلاّ العدل » رواه ابن خزيمة في « صحيحه » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) في نسخة : (أبي الدرداء. . .) .

« اللهم ؛ من وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم . . فاشقق عليه ، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فَرفق بهم . . فارفق به » رواه مسلم .

وعن معقل بن يسار[1] رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد يكون علىٰ شيء من أمور هـٰذه الأمة فلا يعدل فيهم . . إلا كبَّه الله في النار » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

واعلم : أن العدل هو العمل بشرع الله ، واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن لا يعرف الحدود الشرعية والآثار السُّنية . . لا يمكنه العدل ، فمن جمع الله له بين الفقه في الدين والولاية والتمكين ، وعمل فيها بمقتضى العلم . . فقد حاز الشرفين ، وجمع الفضل من الطرفين ، ومن جَهِل الأحكام الشرعية وابتلاه الله بولاية على الرعية . . فسبيله في خلاص نفسه أن يقلد أهل العلم في عصره وقطره ؛ فإنهم هم أولو الأمر الذين أوجب الله علىٰ كافة المؤمنين طاعتهم ؛ حيث قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (أولو الأمرِ العلماءُ حيث كانوا) وبه قال جماعة من المفسرين .

والعلم شرط في صحة الولاية ، فكان لا يلي أحد أمراً من أمور المسلمين إلا مع علمه التام بشروطه ، ولما اختل هـٰذا الشرط العظيم . . لم تجد الولاة بُدّاً من العمل بالشرع القويم ، ولم يزل من وفّقه الله منهم بعلمائهم يقتدون ، وبقولهم وهديهم يهتدون ، لا يغمدون سيفاً ولا يسُلّونه إلا بحكم علمائهم وفتواهم ؛ علماً منهم بأن العلماء ورثة الأنبياء ، وأنهم الواسطة بين الله وبين عباده ، وباتباع العلم والعلماء يفتخرون ، وبنصرة الشريعة وأهلها يَشْرُفون .

وما أحسنَ ما كتبه المَلِك المجاهد صاحب اليمن ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بخطه بيده توقيعاً علىٰ قصة وردت عليه من بعض حكام الشريعة وأعوانها ، يستنهض

---

(١) في « المستدرك » : (معقل بن سنان) .

عزمه في نصرتها ، فكتب هٰذا وأمر أن ينادىٰ به على المنابر : (نحن خدام الشريعة وأعوانها ، نحن سيف الشريعة وسِنانها ، نُجْري الشرع مجراه ولو علىٰ أولادنا ولا نحتشم ، فقد أَمرنا لكم بمنشور يُقرأ على المنابر باحترام الشريعة . . المطهرة ، واحترام أربابها أينما كانوا ، علماً مِنَّا بأن من نصر الشريعة نصره الله ، ومن خذلها . . خذله الله ، وذلك مشاهد بالعيان ، مؤيد بالدليل والبرهان ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾) .

وأما تعلق القلب بالمساجد : فقد جعله الله تعالىٰ من علامات الإيمان ، فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ » . . . الآية ، رواه الترمذي وحسّنه ، والحاكم وصحّحه ، وابن خزيمة وابن حِبان في « صحيحيهما » .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ألف المساجد . . ألِفَه الله » رواه الطبراني .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما توطن رجل المساجد للصلاة والذكر . . إلا تبشبش الله إليه كما يتبشبش[1] أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم » رواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في « صحيحيهما » ، والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للمساجد أوتاداً الملائكةُ جلساؤهم ؛ إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن

---

(١) تبشبش : أنس به وأقبل عليه ؛ وهو من الله تعالى الرضا والإكرام .

كانوا في حاجة أعانوهم » رواه الإمام أحمد والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرطهما .

وأما اتخاذ الإخوان في الله : فقال الله تعالىٰ في وصف الصحابة رضي الله عنهم : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالىٰ يوم القيامة : أين المتحابُّون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي ، يومَ لا ظلَّ إلا ظلي » رواه مسلم .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : المتحابّون في جلالي لهم منابرُ من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجلَّ : وجبت محبتي للمتحابّين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتزاورين فيّ ، والمتباذلين فيّ » رواه الإمام مالك بإسناد صحيح .

وأما مَن ترك الزنا من خشية الله تعالىٰ : فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتىٰ آواهم المبيتُ إلىٰ غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنْجيكم من هٰذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . . . » فذكر الحديث إلىٰ أن قال : « وقال الآخر : اللهم ؛ كانت لي ابنة عمّ كانت أحب الناس إليّ ، فأردتُها علىٰ نفسها فامتنعت مني ، حتىٰ أَلَمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومئة دينار علىٰ أن تُخَلِّيَ بيني وبين نفسها ففعلت ، حتىٰ إذا قَدرتُ عليها . . قالت : لا أُحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ ! وتركت الذهب الذي

أعطيتُها ، اللهم ؛ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك . . فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة . . . » الحديث ، رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كان الكِفل من بني إسرائيل ، وكان لا يتورَّع من ذنب ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً علىٰ أن يطأها ، فلما أرادها علىٰ نفسها . . ارتعدت وبكت فقال : ما يبكيك ؟ قالت : لأن هٰذا عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هٰذا من مخافة الله ؟ . . فأنا أحق! اذهبي فلكِ ما أعطيتك ، ووالله لا عصيته بعدها أبداً ، فمات في ليلته ، فأصبح مكتوباً علىٰ بابه : إن الله قد غفر للكفل . فتعجب الناس من ذلك! » رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، وابن حِبان في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وأما مُخْفي التصدق : فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدقة السِّر تطفىء غضب الرب ، وصنائع المعروف تقي مصارعَ السُّوء ، وصلةُ الرَّحم تزيد في العمر[1] » رواه الطبراني بإسناد حسن .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قيل : يا رسول الله ؛ أيُّ الصدقة أفضل ؟ قال : « صدقةُ سرّ إلىٰ فقير ، وجُهد من مُقِلّ » ثم قرأ : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ . . . الآية . رواه الإمام أحمد والطبراني .

وأما الباكي من خوف الله : فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أي : تبارك فيه .

« لا يلِجُ النارَ رجلٌ بكىٰ من خشية الله حتىٰ يعود اللبن في الضرع » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس شيء أحبَّ إلى الله من قطرتين وأثَرَيْن : قطرةُ دمع من خشية الله ، وقطرةُ دم تُهراق في سبيل الله ، وأثَرٌ في سبيل الله ، وأثَرٌ في فريضة من فرائض الله » رواه الترمذي وحسنه .

* * *

بَابُ الثَّمانيَةِ

وَأَبْـــوَابُ ٱلْجِنَـــانِ إِذَا ٱخْتَتَمْتَـــا ... بِتَـــوْحِيْـــدٍ طَهَـــارَتَـــكَ ٱفْتَتَحْتَـــا
وَتُغْلَـقُ عَنْـكَ أَبْـوَابُ ٱلنَّكَـادِ[1]

أصلُ البيت قولُه صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحَدٍ يتوضأ فيُسبِغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . إلا فُتِحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيِّها شاء » رواه مسلم ، والترمذي وزاد : « اللهم ؛ اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهِّرين » .

وقد جاء في فضل الوضوء أحاديث كثيرة :

قال الله تعالىٰ : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء . . خرجت خطاياه من جسده حتىٰ تخرج من تحت أظفاره » .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ مثل وضوئي هـٰذا ثم قال : « من توضأ هـٰكذا . . غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكانت صلاته ومشيته إلى المسجد نافلة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه . . خرج من وجهه كل خطيئة كان نظر إليها بعينه مع الماء ـ أو مع آخر قَطْر الماء ـ فإذا غسل يديه . . خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قَطْر الماء ـ فإذا غسل

---

(١) **النكاد** : الشدة والعسر .

رجليه . . خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قَطْر الماء ـ حتىٰ يخرج نقياً من الذنوب » رواه مسلم .

واعلم : أن الوضوء له فروض وسنن :

ففروضه : هي الأربعة المذكورة في قوله تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ .

وهٰذه فروض باتفاق العلماء ، وعلىٰ ظاهرها اقتصر الإمام أبو حنيفة رحمه الله ، وزاد الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ النية عند غسل الوجه ، والترتيب .

أما النية . . فلعموم قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » رواه البخاري ومسلم .

وأما الترتيب . . فلموافقته ظاهر الآية .

وسننُهُ : السواك في أوله ، والبسملة ، وغسل الكفين ، والمضمضة ، والاستنشاق ، وختمه بالتوحيد كما سبق .

وأجمع حديث في الوضوء ما رواه البخاري ومسلم : أن عثمان رضي الله عنه دعا بإناء وَضوء فغسل كفيه ثلاث مرات ، ثم تمضمض واستنشق واستنثر[1] ، ثم غسل وجهه ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليمنىٰ ثلاث مرات ، ثم اليسرىٰ كذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجله اليمنىٰ إلى الكعبين ثلاث مرات ، ثم اليسرىٰ مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وُضوئي هٰذا .

والتثليث سنة ؛ لأنه قد صح : أنه صلى الله عليه وسلم توضأ مرَّتين مرَّتين ، ومرَّة مرَّة .

قال علماء الحديث : ولم يترك صلى الله عليه وسلم المضمضة

(١) **الاستنثار** : إخراج ماء من الأنف بعد الاستنشاق ، وجذب الماء إليه .

والاستنشاق أبداً ، ولم يُخلَّ بالموالاة والترتيب أبداً ، ولم يقتصر علىٰ مسح بعض الرأس دون التكميل على العمامة أبداً ؛

فلذلك أوجب الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ في القديم الموالاةَ ، وأوجب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ مسح كل الرأس أو التكميل على العمامة ، وأوجب الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ المضمضة والاستنشاق احتياطاً ؛ حذراً من الوقوع في نقص الطهارة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة بغير طُهور » رواه مسلم .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (أما بعد : فلما قال الله تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الطُهور شطر الإيمان » . . تفطَّن أولو البصائر بطريق الاعتبار إلىٰ أن أهم الأمور تطهيرُ السرائر ، وأن للطهارة أربع مراتب :

تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث ، ثم تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، ثم تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة ، ثم تطهير السِّر عما سوى الله وهي طهارة النبيين والصدِّيقين .

وأن الطهارة في كل مرتبة شطر العمل التي هي فيه ، فيكون حينئذ الطهور شطر الإيمان بهـٰذا المعنىٰ .

وذلك أن تطهير الجوارح عن المنهيات شطر ، ويقابله عمارتها بالطاعات ، وتطهير القلب عن العقائد الفاسدة والأخلاق المذمومة شطر ، ويقابله عمارته بالعقائد المشروعة والأخلاق المحمودة ، وتطهيرُ السر عما سوى الله شطرٌ ، ويقابله أن ينكشف له جلال الله وعظمته .

والشطرُ الأول من كل مرتبة ـ الذي هو التطهير ـ شرطٌ في حصول الشطر الثاني ، كما أن الوضوء شرط في الصلاة ، فلا ينال العبد لذة الطاعة ويرجىٰ له قبولها . . ما لم يَكُفَّ عن المعاصي ؛ لأنه إنما يتقبل الله من المتقين .

وما لم يَنْظُف القلب عن الأخلاق المذمومة . . لم يُمكن ثبوت الأخلاق المحمودة فيه ، كما لا يمكن زرع الأرض وهي مشغولة بالنبات المؤذي ، وما لم يرتحل من السرِّ ما سوى الله تعالىٰ . . لم تحلّ فيه معرفته ؛ لأنهما لا يجتمعان في قلبٍ : ﴿ ما جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ .

فهٰذه مقامات الإيمان ، ولكل مقام طبقة ، ولا ينال العبد الطبقة العالية ما لم يجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل إلىٰ طهارة القلب من الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة . . ما لم يَفرُغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات .

وكلما عزَّ المطلب وشرُفَ . . طال طريقه وصَعُب ، ولٰكن طلب العُلاَ لا يُدرك بالمنىٰ ، ولا يُنال بالهُوَينا .

ولكون الطهارة الحقيقية المطلوبة الشريفة غير الدرجة الأولىٰ ، التي هي تطهير الظواهر عن الحدث والخبث ، وأنها كالقشر بالإضافة إلى اللب المقصود . . فأهل الله صرفوا جميعَ همهم وفكرهم في تطهير القلوب ، ودققوا النظر في مجاري أخلاقها وصفاتها ، لا في احتمال النجاسات والإمعان في تنظيف الظاهر وغسل الثياب ، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ، ويتساهلون في أمر الظاهر حتىٰ إن عمر رضي الله عنه مع علوّ منصبه ، توضأ بماء في جَرَّة نصرانية .

وكان السلف يصلون علىٰ وجه الأرض ، ويمشون حُفاة في الطرقات إلى المساجد ، ويُعَدُّ من أكابرهم من لا يحول بين جنبه وبين الأرض حاجز في مضجعه ، وكانوا كثيراً ما يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء ، وكانت مناديلهم بواطن أرجلهم ، ولا يحترزون من عرق الإبل والخيل عند ركوبها مع كثرة تمرُّغها في النجاسات ، ولم ينقل عن أحد منهم قط سؤال في دقائق النجاسات ، فهٰكذا كان تساهلهم فيها ، وكانت عنايتهم بنظافة الباطن من خبائث الكبر والعجب والرياء والنفاق .

فلهٰذا ينبغي للعامل الراغب في سيرة السلف الصالح ، ألاّ يشتغل بصرف

أوقاته إلىٰ ما أكثر الناس فيه ـ سيما المتدينين منهم ـ من التكلف في نظافة الظاهر والتقشف وغير ذلك مما سمَّوه النظافة ، ظناً منهم بحكم الوسوسة أن ذلك من الدين ، ويُنكرون علىٰ من تشبه بالصحابة والسلف الصالحين ، حتىٰ صيَّروا المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وهو وإن كان مباحاً في نفسه لٰكنه يصير مكروهاً باعتقاد جعله من الدين والإنكار علىٰ من يتساهل تساهل الأولين ، أو يكون القصد منه التزيين للخلق ، أو يؤخر بسببه الصلاة ، أو يشتغل عن عمل هو أفضل منه .

فإذا عرفت أن الطهارة لها أربع مراتب متفاوتة ، وأن المقصود هنا هي المرتبة الأولىٰ . . فاعلم أنها وإن كانت كالقشر الظاهر بالنسبة إلى الطهارة الباطنة ، فلها تأثير في إشراق نورها على القلب ؛ فإنك إذا أسبغت الوضوء ، واستشعرت نظافة ظاهرك . . صادفتَ في قلبك صفاءً وانشراحاً لا تصادفه قبل ذلك ، وذلك لسر العلاقة التي بين القلب والجوارح ، فكما تفيض من معارف القلب أنوار على الجوارح . . فكذلك قد يرتفع من أعمال الجوارح أنوار إلى القلب ويَفيض من طهارة الظاهر أثر على الباطن .

فعليك بالمحافظة على الطهارة ، وذلك بأن تسبغ الوضوء ، وتأتي بجميع سننه ، وأن تحتاط أيضاً في طهارة الماء الذي تتوضأ به وطهارة ثيابك احتياطاً لا يفتح عليك باب الوسوسة ، ويُخرِجك عن السنة .

ثم إذا طَهَّرت ظاهرك الذي هو محل نظر الخلق . . فينبغي لك أن تستحي من مناجاة الله من غير تطهير باطنك الذي هو محل نظر الخالق سبحانه وتعالىٰ ، وإنما طهارته بالتوبة النصوح عن جميع المخالفات ، ثم تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة ، وإلاّ . . كنت كمن دعا ملكاً عظيم الشأن إلىٰ بيته ، وقد بيَّض ظاهره وشحن باطنه بالقاذورات ، فيتعرض للمقت والهلاك .

وليتحقَّق السالك أن أوساخ القلب أكثر من أن تُحصىٰ ، وسيأتي تعريف الطريق إلىٰ تطهير القلب عنها إن شاء الله تعالى) .

* * *

وَأَشْهِدْ فِي ٱلصَّبَاحِ وَفِي ٱلْمَسَاءِ عَلَىٰ تَنْزِيْهِ رَبِّ ٱلإِسْتِوَاءِ
ثَمَانِيَةَ ٱلْمَلاَئِكَةِ ٱلشِّدَادِ

وأصل البيت قوله صلى الله عليه وسلم : « من قال حين يمسي أو يصبح : اللهم ؛ إني أصبحت أشهدك ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك أنك أنت الله لا إلـه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك . . أعتق الله ربعه من النار . . . » إلىٰ أن قال : « فمن قالها أربعاً . . أعتقه الله من النار » رواه أبو داوود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن . وفي رواية النسائي : « . . إلا غفر الله له ما أصاب من ذنب في يومه ذلك ، فإن قالها إذا أمسىٰ . . غفر الله له ما أصاب في ليلته تلك » ولم يقل : « أعتق الله ربعه من النار » وهو كذلك أيضاً عند الطبراني .

والقصد : الإشارة إلىٰ فضل الأذكار الواردة صباحاً ومساء وملازمتها ، وقد جاء في ذلك من الآيات والأخبار ما لا يحصىٰ :

قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صلى الفجر في جماعة ، ثم قعد يذكر الله تعالىٰ حتىٰ تطلع الشمس ، ثم صلىٰ ركعتين . . كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة » رواه الترمذي .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن أجلس مع قوم يذكرون الله عز وجل من صلاة العصر إلىٰ أن تغرب الشمس . . أحبُّ إليَّ من أن أعتق ثمانيةً من ولد إسماعيل » رواه ابن السُّنِّي .

قال الأئمة : أقرب الطرق الموصلة إلى الله عمارةُ الأوقات بالأوراد ، وأشرف أوقات الذكر في النهار بعد الصبح وبعد العصر ؛ لِمَا سبق في القرآن والحديث .

ثم الأذكار الواردة في الصباح والمساء كثيرة جداً ، وقد أورد الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في « أذكاره » منها قدراً صالحاً بعد أن قال : (فمن وفِّق للعمل بكله . . فهي نعمة وفضل من الله عليه ، وطُوبَىٰ له ، ومن عَجَز عن جميعها . . فليقتصر من مختصراتها علىٰ ما يشاء ولو كان ذكراً واحداً) اهـ

وقد أوردت المهم مما ذكره محذوف الأدلة للاختصار ، مرتباً ترتيباً أقرب إلى المناسبة .

منها : (سيد الاستغفار) وهو أن يقول مرة : « اللهم ؛ أنت ربي لا إلـٰه إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قال ذلك حين يمسي فمات من ليلته . . دخل الجنة ، ومن قال ذلك حين يصبح فمات من يومه . . مثله » .

ومنها : « اللهم ؛ أنت ربي لا إلـٰه إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أَعلم أن الله علىٰ كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً .

اللهم ؛ إني أعوذ بك من شرِّ نفسي ، ومن شرِّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي علىٰ صراط مستقيم ، من قالها أول نهاره مرة . . لم تصبه مصيبة حتىٰ يمسي ، ومن قالها آخر نهاره . . لم تصبه مصيبة حتىٰ يصبح » .

ومنها : « رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلّى الله عليه وسلم نبياً ، من قالها مرة حين يمسي . . كان حقاً على الله أن يرضيَه » .

ومنها : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » من قالها مرة . . لم تضره حية ولا عقرب .

ومنها : (قل هو الله أحد) و(المعوذتان) من قالها حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات . . كفته من كل شيء .

ومنها : « باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » من قالها في صباح كل يوم ومساء كل ليلة ثلاث مرات . . لم يضره شيء .

ومنها : « اللهم ؛ إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر ، فأتم نعمتك عليَّ وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة ، من قالها ثلاث مرات إذا أصبح وإذا أمسىٰ . . كان حقاً على الله أن يتم عليه نعمته وعافيته وستره في الدنيا والآخرة » .

ومنها : « اللهم ؛ إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك . . . » ـ الحديث السابق ـ من قالها أربع مرات . . أعتقه الله من النار .

ومنها : « حسبي الله لا إلـٰه إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، من قالها حين يصبح وحين يمسي سبع مرات . . كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة » .

ومنها : « لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، من قالها إذا أصبح . . كانت له عِدل رقبة من ولد إسماعيل ، وكُتبت له عشر حسنات ، وحط عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان في حِرز من الشيطان حتىٰ يمسي ، وإن قالها إذا أمسىٰ . . كان له مثل ذلك حتىٰ يصبح » .

ومنها : « سبحان الله وبحمده ، من قالها حين يصبح وحين يمسي مئة مرة . . لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ؛ إلا من قال مثل ما قال أو زاد عليه » .

* * *

وَأَهْلَ ٱلْكَهْفِ فَٱذْكِرِ ٱعْتِبَارَا بِهِمْ وَبِثَامِنٍ حَازَ ٱفْتِخَارَا
بِصُحْبَتِهِ لأَهْلِ ٱلإِنْجِرَادِ

(أهل الانجراد) : أصحاب الانقطاع إلى الله .

والقصدُ : الاعتبار بما قص الله من أخبارهم وأخبار غيرهم ؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ ولا يُعتبَر بالقصة إلا بعد معرفتها ، ثم التدبر بما اشتملت عليه من العبر والأمثال .

وتلخيص قصة أهل الكهف : أن مَلِكَهم كان يدعو الناس إلىٰ عبادته من دون الله ، فلما أراد الله لهؤلاء الفتية الهداية . . قاموا في ليلة فنظروا إلىٰ ملكوت السماوات والأرض فقالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ وخرجوا فارّين إلى الله بأنفسهم خوفاً من الفتنة في دينهم ، منقطعين إليه علىٰ قدم التوكل ، مهاجرين الأهل والمال والوطن في محبة الله تعالىٰ ، وكانوا ستة ، فوجدوا راعياً فدعوه إلىٰ عبادة معبودهم ، فظهر له الحق فوافقهم ، وطرد الأغنام والكلب ، فتفرقت الأغنام وأبى الكلبُ إلا أن يتبعه ، ولم يبال بالضرب فتركوه ؛ فدخلوا كهفاً ليستريحوا فيه من تعب السُّرىٰ مفوضين أمرهم إلى الله قائلين : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

فضرب الله بالنوم علىٰ آذانهم بقدرته سبحانه وتعالى ؛ فلبثوا ثلاث مئة سنين ، وتسع سنين وشاركهم كلبهم في ذلك أيضاً ، وكانت أعينهم مفتحة ؛ لئلا يذوب شحمها من طول الإطباق ، ويَدُ القدرة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال مرة بعد أخرى ؛ كي لا تأكلهم الأرض ، وألقى الله عليهم الرعب ، فكلٍ من قرب منهم أخذه الرعب ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ و(الوصيد) : فناء الغار .

وكان ابتداء مدتهم قبل مبعث عيسىٰ عليه السلام ، ثم بعثه الله ورفعه إليه ،

وبدد الكفر بالإيمان ، فلما أراد الله تكميل إيمانهم باليوم الآخر ، الذي لا اهتداء للعقول بمجردها إلىٰ معرفته . . بعثهم آخر النهار ـ وكان دخولهم الغار أوله ـ فجلسوا كهيئتهم يوم رقدوا ، لا ينكرون من ألوانهم تَغيُّراً ، وقالوا : كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم! ثم لما ردهم الله إلى العادة . . هاج عليهم الجوع ، فبعثوا واحداً منهم متنكراً ليشتري لهم طعاماً ، فلما أقبل . . رأىٰ وجوهاً لا يعرفها ، وآثاراً وأحوالاً أنكرها ، فبقي يتهم نفسه أنائم هو أم يقظان ؟

ثم ناول بائع الطعام درهماً من سكة مَلِكِهم يومئذ ، فاستغربه وجعل يتعجب منه ، وناوله لآخر ، فظن أنهم عرفوه فهمَّ بالهرب ، فحملوه إلى الوالي فقال له : أين الكنز الذي وجدته ؛ فإن هـٰذه سِكَّة قديمة ؟ فقال : لم أجد كنزاً ، وإنما هـٰذه ضرب هـٰذه المدينة خرجنا منها بالأمس ، ولـٰكن والله ما أدري ما شأني ، ولا ما أقول لكم ، وهـٰذه مدينتي ووطني ، وبها أهلي ، فتعجبوا من أمره وكانوا قوماً مؤمنين!

فقالوا له : دُلَّنا علىٰ أصحابك ، فخرج بهم وسبقهم إلىٰ أصحابه فأخبرهم بأمره ؛ فحارت أفكارهم ، ثم أيقنوا أن الله علىٰ كل شيء قدير ، وأن النوم موت ، واليقظة بعده دليل علىٰ أن بعد الموت حياة أخرىٰ ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ .

ثم جاءهم الوالي ومن معه فاعتنقوهم ، وكان ذلك مشهداً عظيماً ، حصل فيه الاعتبار بقدرة الله تعالى الواحد القهار .

فبينما هم كذلك إذ قَبض الله أرواحهم فتوفاهم الله ، وألقىٰ عليهم الرعب ، فخرجوا عنهم وكانوا يومئذ حزبين : مؤمنين وكفاراً ؛ فتنازعوا فيهم أمرهم ، وادَّعى الكفار أنهم أولىٰ بهم ؛ لأنهم لم يبعث إليهم رسول ، ولا التزموا حكم مِلَّة خاصة ، وأرادوا أن يبنوا عليهم بنياناً ، وادَّعى المؤمنون أنهم قد فارقوا ملة الكفر ، وآمنوا بالله .

وكان الملك مؤمناً والغلبة والشوكة للمؤمنين ، فَغَلبوا علىٰ أمرهم وبنوا عليهم مسجداً ، واتخذوا يومهم ذلك مشهداً عظيماً يجتمعون فيه كل سنة ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

واعلم : أنه قد اتسعت علىٰ أهل الأفكار والتدبر والأذكار طرقُ الاعتبار بما في القرآن من القصص والأخبار ، فهو البحر المحيط الذي لا تنفد عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، ولـٰكن طوت الغفلة عن تصفح اعتباره ما كان منشوراً ، وحالت أكنَّة الشهوات على القلوب أن تتفقّهه فصارت دونها حجاباً مستوراً ، فنادىٰ بلسان حاله : ﴿ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وكيفية الاعتبار واستنباط الأحكام من القرآن : أن تقول مثلاً : يؤخذ من مضمون قصتهم أمور :

منها : أن قولهم ابتداء من غير واسطة نبي مرسل : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ﴾ دليل علىٰ أن العلم بالله ووحدانيته ووجوب عبادته كما يحصل بالنقل ـ أي بإرسال الرسل ـ فقد يحصل بالعقل كذلك ، وذلك بالتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، والاستدلال علىٰ أن هـٰذه الصنعة العجيبة لا بد لها من صانع حكيم قادر ، وتستفيد بذلك قوة الإيمان بالله ؛ لانتظام برهان العقل إلى النقل .

مثاله : أن ينظر الإنسان في نفسه ، فيعلم بالضرورة أنه كان عدماً ثم وُجِد ، وأنه لا بد له من موجد لا موجد له ـ أي : لا موجد لموجدهم وهو الله عز وجل ـ ثم ينظر إلىٰ جميع المخلوقات فيجد كل شيء منها مفتقراً إلىٰ موجد ، وأن شيئاً منها لم يوجِد نفسه ، وأنه لا يكون موجدها إلا قديماً لا مُوْجِدَ له أصلاً ، وإلا . . لافتقر كل موجد إلىٰ موجد آخر ، وهلُمَّ جراً ، وذلك باطل قطعاً ، فقُطِع حينئذٍ بأن موجد الكل واحد قديم ، متصرف حكيم ، قادر عليم ؛ إذ لا تصدر مثل هـٰذه الصنعة العجيبة إلا من موصوف بالكمال .

ومنها : أن مَن خلقك بعد العدم ، ثم قدر علىٰ أن يسلب منك الشعور والحركة بالنوم قهراً ، ثم يعيد إليك ذلك بغير اختيارك . . قادر علىٰ أن يعيد الأجسام بعد عدمها ، ويعيد إليها أرواحها : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ويستفيد بذلك قوة يقين بالإيمان باليوم الآخر .

ومنها : أن قصة أهل الكهف ما كان يطلع عليها إلا القدماء من الأحبار والرهبان ، ومع ذلك فبينهم اختلاف كثير في أسمائهم ، وفي عددهم ، وفي مدتهم ، هٰذا ، وهم أقرب شيء إلىٰ زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قص الله نبأهم بالحق ، فأَزال الشك والريب والاختلاف والرجم بالغيب علىٰ لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي الذي قال فيه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ .

واعترف الخصم بصدق ما أخبر ، ولم يجادل في الحق ولا أنكره ، فما ظنك بما قص الله علىٰ لسانه من نبأ الملائكة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ثم قصة آدم وإبليس : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ثم قصة ابنَيْ آدم : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ﴾ .

ثم قصص الأنبياء بعده والأمم السابقة وعاد وثمود وأصحاب الرَّسِّ وقرون بين ذلك كثيراً ، التي لا توجد القصة ولا شيء منها عند أحد ، وإن وجد شيء . . فعلىٰ تخمين واختلاف كثير ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ويستفيد بذلك قوة الإيمان بالكتاب المنزل والرسول المرسل ، وأن ذلك لا يكون إلا بعلم مَن لا تخفىٰ عليه خافية ، وبالوحي بواسطة الملائكة أو بلا واسطة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

ومنها : أنك إذا رأيت حكم القضاء بالعناية ؛ ساق إلىٰ أهل الكهف الهداية وقضىٰ علىٰ إبليس بعد أن كان مُقَدَّم الملائكة في الملكوت الأعلىٰ باللعنة إلىٰ

يوم الدين ، وعلىٰ أحد ابني آدم ، وولد نوح ، وآزر والد إبراهيم وغيرهم ممن هو في ظاهر الأمر أقرب إلىٰ نيل السعادة . . استفدت بذلك قوة الإيمان بالقدَر خيره وشره ، وعلمت أن السعيد من كتبه الله سعيداً ، والشقيّ من كتبه الله شقيّاً ، وأن ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

فهٰذه أصول الإيمان كلها ظاهرٌ استنباطها مما ذكرنا لمن تدبر القرآن .

ويؤخذ من ذلك من فروع الإيمان : أن الإيمان هو التصديق بالقلب لا غير ؛ لأنهم لا أعمال لهم من صلاة وصوم ، وأنَّ من لم تبلغه الدعوة ، وآمن بالله بطريق النظر . . حُكم بإيمانه ، وأن من خاف الفتنة علىٰ دينه بموضع . . لزمه مفارقته مهاجراً إلى الله ، وغير ذلك من الأحكام .

ويؤخذ منها من علم الطريقة : أن أصل الهداية إنما هو نور سماوي ونظر إلٰهي ، يقع في قلب العبد ، فينظر به نظرة يفرِّق بها بين الحق والباطل ، وذلك هو شرح الصدر المشار إليه بقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وأن الله سبحانه إذا أراد أن يجتبي عبداً . . عامله بالفضل ، وأوصله إلىٰ منازل الأبرار في ساعة من نهار ؛ فإن أصحاب الكهف آمنوا بربهم وزادهم هدىٰ ، فحازوا مقام الإيمان والعلم بالله وهو الهدىٰ ، ثم اعتزلوا قومهم لله فحازوا مقام المهاجرة إلى الله والانقطاع إليه ، والحب له والبغض لأعدائه ، ثم قالوا : ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ فحازوا مقام التوكل على الله ، وتفويض الأمر إلى الله ، والتسليم لحكم الله ، والرضا بقضاء الله ؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وأن من ترك شيئاً لله . . أبدله خيراً منه ، ومن انقطع إليه . . آواه ، ومن فوَّض أمره إليه . . كفاه ، ومن توكل عليه . . تولاه .

وذلك مما قصّ الله علينا من حسن صنعه بهم ، ولطفه وحمايته لهم بالرعب ، وحفظه لأبدانهم ، وإكرامه لهم .

فمحال أن تنقطع إليه فيضيِّعَك ، أو تواصله فيقطعك ، بل متىٰ تقرَّبتَ إليه شبراً . . تقرب إليك ذراعاً ، وإن تقربت ذراعاً . . تقرب إليك باعاً ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ .

وأن المرءَ مع من أحب ، والرجل علىٰ دين خليله ، ومن كثَّر سواد قوم . . فهو منهم ، وأن أهل الله هم القوم لا يَشقَىٰ بهم جليسهم ؛ وذلك أنه سبحانه أكرم كلباً صحب أهل الانقطاع إليه ، فجعله شريكاً لهم في نومهم وانتباههم ، وموتهم وحياتهم ، وجعل ذكره يتلىٰ في الذكر الحكيم ، وجاء الخبر بأنه يدخل الجنة مخلداً في دار النعيم .

فاختر لنفسك حينئذ صحبة من شئت من الفريقين ، وملازمة من أحببت من الحزبين ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

واستخراجُ المعاني والأحكام من القرآن لا يمكن أن يُحصىٰ ، ولا سبيل إلىٰ أن يُستقصىٰ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : (أما بعد : فإني أنبهك من رقدتك ، أيها المسترسل في تلاوتك ، المتخذ دراسة القرآن عملاً ، المتلقف منه ظواهراً وجملاً ، فأقول :

إلىٰ كم تطوف علىٰ ساحل البحر مُغْمِضاً عينيك عن عجائبه ؟! وأما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط الذي منه يتشعب علم الأولين والآخِرين ؟ كما تَشعب عن البحر المحيط جداوله وأنهاره ، أوَما تغبط أقواماً خاضوا غمرة أمواجه فظفروا بالكبريت الأحمر ؟! وخاضوا أعماقه فاستخرجوا الدر الأزهر والزبرجد الأخضر ؟! وساحوا في سواحله فالتقطوا العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر ؟! وتغلغلوا إلىٰ جزائره فاستخرجوا من حيواناتها الترياق الأكبر والمسك الأذفر ؟!

وهـٰأنا مرشدك قاضياً حق إخائك ، وراجياً بركةَ دعائك إلىٰ كيفية سياحتهم وسباحتهم فأقول : سر القرآن ولبابه الأصفىٰ ، ومقصوده الأقصىٰ ، دعوةُ العباد إلى الجبار الأعلىٰ ، رب الآخرة والأولىٰ ، وخالق السماوات العُلا ، والأرضين السفلىٰ ، وما بينهما إلىٰ تحت الثرى ؛ فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع : ثلاثة منها هي السوابق والأصول المهمة ، وثلاثة هي الروادف والتوابع المُتِمَّة .

أما الثلاثة المهمة : فهي تعريف المدعو إليه ، وتعريف الصراط المستقيم ، الذي يجب ملازمته في السلوك عليه ، وتعريف الحال عند الوصول إليه .

وأما الثلاثة المُتِمَّة :

فأحدها : تعريف أحوال المجيبين للدعوة ، ولطائف صنع الله فيهم ، وسرُّه ومقصوده التشويق والترغيب ، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة ، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم ، وسرُّه ومقصوده الاعتبار والترهيب .

وثانيها : حكاية أحوال الجاحدين ، وكشف فضائحهم ، وحملهم بالمحاجة والمجادلة على الحق ، ومقصوده وسره في جنبة الباطل الإفصاح والتحذير والتنفير ، وفي جنبة الحق الإيضاح والتثبيت والتقرير .

وثالثها : تعريف عمارة منازل الطريق ، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد ؛ فهـٰذه ستة أقسام) .

ثم فصلها وشرحها ـ رحمه الله ـ علىٰ ما يليق بجلال قدره .

* * *

بَابُ التِّسْعَةِ

وَخَفْ تِسْعاً تَكُونُ جَزَاءَ تِسْعٍ كَمَوْتِ فُجَاءَةٍ لِزِناً وَمَنْعِ
زَكَاةٍ مَنْعِ قَطْرٍ فِي ٱلْبَوَادِي
وَمِنْ قَحْطٍ لِتَطْفِيفٍ وَظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ يَعُمُّ لِجَوْرِ حُكْمِ
وَنَقْضِ ٱلْعَهْدِ تَسْلِيطِ ٱلأَعَادِي
وَتَرْكِ ٱلأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ ٱخْتِلاَلِ لِمُلْكٍ وَٱلْقَطِيعَةِ جَعْلِ مَالِ
مَعَ ٱلأَشْرَارِ لاَ أَهْلِ ٱلأَيَادِي

(**أهل الأيادي**) : هم أهل صنائع المعروف .

وأصل الباب كله : ما روي أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حدث في الناس تسعة أشياء . . كانت معها تسعة أشياء : إذا كثر الزنا . . كثر موت الفجأة ، وإذا منعوا الزكاة . . منعهم الله القَطر ، وإذا طففُوا المكيال . . أُخِذوا بالسنين ، وإذا جاروا في الحكم . . عمهم الظلم والعدوان ، وإذا نقضوا العهد . . سلط الله عليهم عدوَّهم ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف . . اضطربت عليهم أمورهم ، وإذا تركوا النهي عن المنكر . . ملَّكهم شرارُهم ، وإذا قطعوا الأرحام . . جُعلت الأموال بأيدي الأشرار ، وإذا ارتكبوا المحارم . . طرقتهم الآفات » كذا هو في رواية ، وله شواهد ستأتي هنا .

ففي « المعجم الكبير » للطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس بخمس » قيل : يا رسول الله ؛ ما خمس بخمس ؟ قال : « ما نقض قوم العهد . . إلا سلط الله عليهم عدوّاً من غيرهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله . . إلا فشا فيهم [الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة . . إلا فشا فيهم] الموت ، ولا منعوا الزكاة . . إلا حبس الله عنهم القطر ، ولا طففوا المكيال . . إلا مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين » .

و(السنين) : جمع سنة ، وهي هنا العام المقحط الذي لم تنبت الأرض فيه شيئاً ، سواء وقع المطر أم لا .

وعبر في النظم عن اضطراب الأمور وولاية الأشرار باختلال الملك ؛ لأن كلاًّ منهما خللٌ فيه ، ولم يذكر فيه ارتكاب المحارم لضيق النظم .

وقد أشار إلىٰ عدم الحصر بقوله : (**كموت فجاءة**) مع أن ذكر ارتكاب المحارم بعد ما سبق من باب ذكر العام بعد الخاص ، وقد يغني الخاص عن العام ، وقد جاء أيضاً في النهي عن التسع الخصال المذكورة أدلة كثيرة .

وأما منع الزكاة : فقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها . . إلا إذا كان يوم القيامة صفِّحت له صفائح من نار فأُحْمِيَ عليها في نار جهنم ، فيُكوىٰ بها جبهته وجنبه وظهره ، كلما بردت . . أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتىٰ يقضي الله بين العباد . . . » الحديث ، رواه البخاري ومسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله . . إلا مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتىٰ يطوَّق به في عنقه » ، ثم قرأ علينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ رواه ابن ماجه والنسائي بإسناد صحيح ، وابن خزيمة في « صحيحه » .

و(الشجاع الأقرع) : الحية السوداء التي ذهب شعر رأسها من شدة السم .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تلف مال في برٍّ ولا بحرٍ . . إلا بحبس الزكاة » رواه الطبراني .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خالطت الزكاة مالاً . . إلا أهلكته » أي : ما تُركت في مال ولم تُخرج منه .

وأما الزنا : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يَطعَم معك » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تُزاني حليلة جارك » رواه البخاري ومسلم ، والنسائي وزاد : وتلا هـٰذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾ . . . الآية .

وأما تطفيف المكيال : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسَنوا الكيل بعد ذلك . رواه ابن ماجه ، وابن حبان في « صحيحه » .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم قد وليتم أمراً فيه هلَكَتِ الأمم السالفة قبلكم : المكيال والميزان » رواه الترمذي ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وأما الجور في الحكم : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ و ﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جارت الولاة . . قحطت السماء[1] ، وإذا مُنِعت الزكاة . . هلكت المواشي ، وإذا ظهر الزنا . . ظهر الفقر والمسكنة ، وإذا أُخفِرت الذمة . . أُديل[2] الكفار » ، أو كلمة نحوها ، وقال في « الجامع الصغير » : « وإذا ظهرت الفاحشة . . كانت الرجفة ، وإذا جار الحكام . . قل المطر ، وإذا غدر أهل الذمة . . ظهر العدو » .

وأما نقض العهد : فقال الله تعالىٰ : ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ وقال الله تعالىٰ : ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالىٰ : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أَعطَىٰ بي عهداً ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفىٰ منه العمل ولم يوفِّه أجره » رواه البخاري .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جمع الله الأولين والآخِرين . . يُرفَع لكل غادر لواءٌ ، فيقال : هـٰذه غدرة[3] فلان بن فلان » رواه مسلم .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقض قوم العهد . . إلا كان القتل فيهم ، ولا ظهرت الفاحشة في قوم . . إلا سلط الله عليهم الموت ، ولا مَنَع قوم الزكاة . . إلا حبس الله عنهم القطر » رواه الحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم .

وأما ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : فقال الله تعالىٰ : ﴿وَلْتَكُن

---

(١) **القحط** : الجدب واحتباس المطر .

(٢) **الإدالة** : الغلبة .

(٣) **الغدرة** : من الغدر وهو ضد الوفاء .

مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي . . نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم ؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم لعنهم الله علىٰ لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن ، ورواه أبو داوود وزاد : « كلا والله ؛ لتأمرُنَّ بالمعروف ، وَلَتَنْهُنَّ عن المنكر ، ولتأخذُنَّ علىٰ يد الظالم ولتقصُرنَّه على الحق قصراً ، أو لَيَضرِبَنَّ الله بقلوب بعضكم علىٰ بعض ، ثم ليلعننكم كما لعنهم » .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا علىٰ يديه . . أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب من عنده » رواه أبو داوود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأىٰ منكم منكراً . . فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع . . فبلسانه ، فإن لم يستطع . . فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

وعن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » رواه البخاري ومسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ؛ إن الله تعالىٰ يقول لكم : مُروا بالمعروف وانهَوا عن المنكر ، قبل أن تدعوا فلا أستجيب لكم ، وتسألوا فلا أعطيكم ، وتستنصروا فلا أنصركم » رواه ابن ماجه ، وابن حبان في « صحيحه » .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا علىٰ سفينة فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فقال الذين في أسفلها : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً . . لم نؤذ مَنْ فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا . . هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا علىٰ أيديهم . . نجوا جميعاً » رواه البخاري .

وأما قطيعة الرحم : فقد سبق ذكرها في الباب الثالث .

وأما ارتكاب المحرمات على العموم : فقال الله تعالىٰ : ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ .

وعن أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : هٰذا حديث حسن ، رواه الدارقطني وغيره .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق المحارم . . تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك . . تكن أغنى الناس ، وأَحسن إلىٰ جارك . . تكن مؤمناً ، وأَحِبَّ للناس ما تحب لنفسك . . تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب » رواه الترمذي .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خصال خمس أعوذ بالله أن تُدرِكوهنَّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قط . . إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان . . إلا أُخِذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم . . إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم . . لم يُمطَروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله . . إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم ،

فيأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وسُنَّةِ رسوله . . إلا جعل الله بأسهم بينهم » رواه ابن ماجه والبيهقي والبزار .

واعلم : أن للمعاصي من الآثار القبيحة بمقدار ما للتقوىٰ من الأوصاف الحسنة ، وقد سبق في أول الكتاب التنبيه علىٰ فضيلة التقوىٰ .

وبالجملة : فكما أنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا وسببه التقوىٰ ، فكذلك ليس في الدنيا والآخرة شر ولا بلاء ولا محنة إلا وسببه المعاصي ، فهي سبب كل فساد في البر والبحر ، من هلاك الأديان والأبدان ، والأمراض والأسقام ، وفساد الزروع والثمار ، والقحط والخوف ، والغرق في البر والبحر ، وهلاك الأموال والأنفس ، وغير ذلك ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وهي سبب زوال النعم وحلول النقم ، والندم حيث لا ينفع الندم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ .

وهي سبب سلب الإيمان واللعنة وغضب الرحمن ، والذلة والمسكنة والهوان ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ .

وهي سبب لعن أهل الكتاب وامتحانهم ، أخبر الله تعالىٰ به عنهم مرة بالقتل والسبي وجور الملوك ، يسومونهم سوء العذاب ، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وأخرىٰ بخراب الديار ونهب الأموال ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ وتارة بمسخهم قردة وخنازير ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ .

بل هي سبب هلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم

مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

ثم حذرنا الله أن يحل بنا ما حل بهم بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ويقول الله تعالىٰ : ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وبقوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وبقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

عظُمت مصيبة من عصىٰ مولاه	وخلا بذاك الذنبِ وهو يراهُ
كيف استقر قراره لما عصى	أم كيف لا تجري دَماً عيناهُ
يا مذنباً لم تجر منه دموعه	أسفاً علىٰ ما كان من بلواهُ
إنِّي أظنك مبتليً بقساوة	يا من يقِلُّ دموعه وبكاهُ

* * *

بَابُ العَشَرَةِ

وَزَكِّ ٱلْقَلْبَ عَنْ عَشْرِ صِفَاتِ مُفَصَّلَةٍ بِرُبْعِ ٱلْمُهْلِكَاتِ
بِتَأْلِيفِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمُسْتَجَادِ

(**المستجاد**) : الموصوف بالجودة والحسن ، ويجوز أن يكون نعتاً للتأليف وللإمام المؤلف .

أمّا المؤلف : فهو الإمام زين الدين **حجة الإسلام أبو حامد** محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري ، الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري ، الذي انتشر فضله في الآفاق ، وتميز على الأقران وفاق ، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها ، والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها ، وحسن الإشارات وكشف المعضلات ، والتبحر في أجناس العلوم وفروعها وأصولها ، ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء علىٰ إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامات وحسن السيرة ، والاستقامة والزهد ، والعزوف عن زهرة الدنيا ، والإعراض عن الجاهات الفانية ، واطِّراح الحشمة والتكلف .

قال الحافظ العلامة ابن عساكر ، والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي رحمهم الله :

وُلِدَ ـ أي الإمام الغزالي ـ بطوس سنة خمسين وأربع مئة ، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه . ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجدَّ واجتهد حتىٰ تخرج في مدة قريبة ، فصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به[1] ويعتد بمكانه منه .

---

(١) يتبجح : يفتخر ويباهي .

ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه وحل منه محلاً عظيماً لعلو درجته وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محط رحال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقعت للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول ، فظهر اسمه وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمصير إلىٰ بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية فصار إليها ، وأُعجِب الكل بتدريسه ومناظرته .

فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أُخرىٰ ، فترك بغداد وخرج عما كان فيه ، وقصد حج بيت الله الحرام ، فحج ثم رجع إلىٰ دمشق ، فأقام بها نحو عشر سنين سالكاً طريق الزهد والتأله ، مُعْرِضاً عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلاً بأسباب التقوىٰ ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يُسبَق إليها ، مثل « إحياء علوم الدين » وغيره ، التي من تأملها . . عرف محل مصنفها من العلم .

ثم صار إلى القدس مقبلاً علىٰ مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق وتحسين الشمائل ، حتىٰ تمرَّن علىٰ ذلك ، ثم عاد إلىٰ وطنه طوس لازماً بيته ، مقبلاً على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعائهم إلى الله ، والاستعداد للدار الآخرة .

ثم قصده الوزير فخر الملك الشهيد رحمه الله تعالىٰ ـ وكان محباً لأهل العلم ـ فاستدعىٰ منه وألح عليه غاية الإلحاح ، وشدد عليه في الاقتراح إلىٰ أن يخرج إلىٰ نيسابور ؛ لئلا تضيع أنفاسه النفيسة ، فلم يجد بداً من طاعته ، فأجاب وأقام بها مدة يرشد الضالين ، ويفيد القاصدين ، دون أن يرجع إلىٰ ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف ، حتى انتقل إلىٰ رحمة الله يوم الإثنين الرابع عشر من جمادى الأول سنة خمس وخمس مئة .

خصَّه الله تعالىٰ بأنواع الكرامة في أخراه ، كما خصه بها في دنياه ، ونفع الله به آمين .

وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي ـ رحمه الله ـ بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير الشهير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد اليمني الزبيدي ـ وكان معاصراً للغزالي رحمهما الله ـ قال : بينما أنا ذات يوم قاعد وأنا أنظر إلىٰ أبواب السماء مفتحة . . وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خِلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا علىٰ قبر من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخِلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلىٰ سماء ، إلىٰ أن جاوز السماوات السبع ، وخرق بعدها سبعين حجاباً ، ولا أعلم إلىٰ أين بلغ انتهاؤه ؛ فسألت عنه فقيل لي : هٰذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عَقِيب موته ، رحمه الله ونفع به .

وأما التأليف المذكور . . فهو الكتاب العظيم الشأن ، المسمَّىٰ بـ« إحياء علوم الدين » المشهور بالجمع والبركة ، والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، والمشايخ العارفين ، وفضله بينهم مشهور .

وذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله : أن الفقيه العلامة قطب اليمن أبا الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي ثم اليمني سئل عن تصانيف الإمام الغزالي فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين .

وذكر اليافعي ـ رحمه الله ـ أيضاً : أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حِرْزِهِم الفقيه المشهور المغربي كان بالَغَ في الإنكار علىٰ كتاب « إحياء علوم الدين » ، وكان مطاعاً مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ « إحياء علوم الدين » وهمَّ بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأىٰ ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم فيه ، ومعه أبو بكر

وعمر رضي الله عنهما ، والإمام الغزالي قائم بين يدي النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فلما أقبل ابن حرزهم. . قال الغزالي : هـٰذا خصمي يا رسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم. . تبت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك واتباع سنتك. . فخذ لي حقي من خصمي ، ثم ناول النبيَّ صلى الله عليه وسلم كتاب « الإحياء » فتصفحه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة من أوله إلىٰ آخره ، ثم قال : « والله ؛ إن هـٰذا لَشَيءٌ حسن » ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق ؛ إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنىٰ عليه كما قال الصديق رضي الله عنه .

فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه ابن حرزهم عن القميص ، وأن يُضرَب ويُحد حد المفتري ، فُجرِّد وضُرب ، فلما ضرب خمسة أسواط. . شفع فيه الصديق رضي الله عنه وقال : يا رسول الله ؛ لعله ظن أنه علىٰ خلاف سنتك ؛ فأخطأ في ظنه ؟ فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعة الصديق .

ثم استيقظ ابن حرزهم وآثار السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر ، ولـٰكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله ، ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلىٰ أن رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم دخل عليه ، ومسح بيده الكريمة علىٰ ظهره وعوفي وشُفِيَ بإذن الله ، ثم لازم مطالعة « إحياء علوم الدين » ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله .

قال اليافعي رحمه الله : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله وهو الشيخ الكبير القطب شهاب الدين ابن الميلق الشاذلي عن شيخه الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلي عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي ـ قدَّس الله أرواحهم في الجنة ـ وكان معاصراً

لابن حرزهم قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات وآثار السياط ظاهرة علىٰ ظهره .

وقال الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله تعالىٰ ، وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به[1] ـ قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفرايني يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاذلي بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطرأ عليّ حال أخذني عن نفسي ، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقعت علىٰ جنبي الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأنا علىٰ طهارة ، وكنت أطرد عن نفسي النوم ، فأخذتني سِنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم في أكمل صورة وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة : الشافعي ، ومالكاً ، وأبا حنيفة ، وأحمد ابن حنبل ـ رحمهم الله ـ يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحدٍ ، وهو صلى الله عليه وسلم يُقِرُّهم عليها ، ثم جاء رجل من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يا رسول الله ، هـٰذا الكتاب ـ أعني « إحياء علوم الدين » ـ معتقدي ومعتقد أهل السنة ، فلو أذنت لي حتىٰ أقرأه عليك ؟ فأذن لي فقرأت منه عليه من كتاب قواعد العقائد .

بسم الله الرحمن الرحيم . . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : في ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلىٰ قول الغزالي : (وأنه تعالىٰ بعث النبيَّ الأميَّ القرشيَّ محمداً صلى الله عليه وسلم إلىٰ كافة العرب والعجم ، والإنس والجن) ، فرأيت البشاشة في

---

(١) في الاجتماع به نظر ؛ إذ إن سنه وقت وفاة الغزالي كانت ست سنين . ولعله قد حصل للمؤلف رحمه الله وَهَمٌ فيمن اجتمع بالغزالي ، وهو الحافظ إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي صاحب « ذيل تاريخ نيسابور » ؛ إذ قد نقل عنه ذلك ابن عساكر في « تاريخ دمشق » ، فظن المؤلف أن الذي اجتمع بالغزالي هو ابن عساكر ، وذلك عند قول إسماعيل : (وقد زرته مراراً . . .) فليتنبه ؟!

وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت وقال : « أين الغزالي ؟ » ، وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : هٰأنا يا رسول الله ، وتقدم وسلم فرد عليه السلام ، وناوله يده الكريمة ، فأكب الغزالي عليها يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءتي عليه « الإحياء! » ثم انتبهت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات .

وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة « الإحياء » وتقريرها نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالىٰ أن يحيينا علىٰ سنته ، ويتوفانا علىٰ ملته ، آمين .

وأما (العشر الصفات) : فاعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالىٰ تنقسم إلىٰ ظاهرة وباطنة :

فالظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق .

والباطنة أيضاً قسمان : ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة .

وقد بنى الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كتابه « إحياء علوم الدين » علىٰ هٰذه الأربعة الأقسام ؛ فقال في خطبتِهِ : (ولقد أسسته علىٰ أربعة أرباع : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

ويشتمل ربع العبادات علىٰ عشرة كتب : كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج ، كتاب آداب تلاوة القرآن ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات . . فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب

الصحبة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات . . فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين : شهوة البطن والفرج ، كتاب آفات اللسان ، كتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب ذم الكبر والعجب ، كتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات . . فيشتمل علىٰ عشرة كتب : كتاب التوبة ، كتاب الصبر والشكر ، كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، كتاب النية والصدق والإخلاص ، كتاب المراقبة والمحاسبة ، كتاب التفكُّر ، كتاب ذكر الموت) .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : (وأما ربع العبادات : فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سُنَنِها ، وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة ما لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في فنِّ الفقهيات .

وأما ربع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سُنَنِها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني عنها المتدين .

وأما ربع المهلكات : فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من تلك الأخلاق حَدَّه وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها تترتب ، ثم العلامات التي بها تعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات : فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها من

خصال المقربين والصديقين ، التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حَدَّها وحقيقتها وسببها الذي به تُجتلب ، وثمرتها التي منها تُستفاد ، وعلامتها التي بها تُعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يُرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل) .

ورَدَّ الأخلاق المذمومة في كتابه المسمَّىٰ بـ« أربعين الأصل » إلىٰ عشرة أيضاً ، وحصرها في شرَه الطعام . وشره الكلام ، والغضب ، والحسد ، وحب المال وحب الجاه ، وحب الدنيا ، والكبر ، والعجب ، والرياء .

والأخلاقَ المحمودةَ إلىٰ عشرة ، وحصرها أيضاً في : التوبة ، والخوف ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والرضا ، وذكر الموت .

ونحن نورد من الكتاب والسنة في كل خصلة من هٰذه العشرين التي أوردها في « مختصر الإحياء » ما يحصل به التبرك ؛ لتكمل به فائدة هٰذا المختصر ، ومن أراد البسط . . فعليه بمطالعة « الإحياء » .

أما شره الطعام : فقد سبق في الباب الأول ، وكذلك **ذم حب المال** سبق في الباب الثاني .

وأما شره الكلام : فقال الله تعالىٰ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ أي المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . فليقل خيراً أو ليصمت » رواه البخاري ومسلم .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من وقاه الله شر

ما بين لَحييه ، وما بين رجليه . . دخل الجنة » رواه الترمذي وحسّنه ، وابن حِبان في « صحيحه » .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكِلتك[1] أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم إلا حصائدُ[2] ألسنتهم ؟! » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : « قلت : يا رسول الله ، ما أخوف ما تخاف عليّ ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال : « هـٰذا » رواه الترمذي وصححه ، وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم وصححه .

وأما الغضب : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وفي « البخاري » و« مسلم » : أن رجلاً غضب واحمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فنظر إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : « إني لأعلم كلمة لو قالها . . لذهب عنه هـٰذا وهي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ورَوَىٰ أبو داوود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم . . فليتوضأ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الثُّكْل ـ بوزن القفل : فقد الولد . كأنه صلى الله عليه وسلم دعا عليه بالموت لسوء فعله أو قوله . والموت يعم كل أحد فإذاً الدعاء عليه كلا دعاء . أو أراد : إذا كنت هـٰكذا فالموت خير لك ؛ لئلا تزداد سوءاً . ويجوز أن يكون من الألفاظ التي تجري علىٰ ألسنة العرب ، ولا يراد بها الدعاء ؛ كقولهم : تربت يداك ، وقاتلك الله . « النهاية » لابن الأثير .

(٢) أي : ما يقتطعونه من الكلام الذي لا خير منه . واحدتها حصيدة ، تشبيهاً بما يحصد من الزرع ، وتشبيهاً للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذي يحصد به . « النهاية »

أوصني قال : « لا تغضب » فردد عليه مرراً ، قال : « لا تغضب » رواه البخاري .

وعنه ـ أيضاً ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » رواه البخاري ومسلم .

والصُّرَعة ـ بضم الصاد وفتح الراء ـ : الذي يصرع الناس كثيراً .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يباعدني من غضب الله عز وجل ؟ قال : « لا تغضب » رواه الإمام أحمد وابن حِبان في « صحيحه » .

وأما الحسد : فقال الله تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . . . الآية .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع في جوف عبد إيمان وحسد » رواه البيهقي وابن حبان في « صحيحه » .

وعنه ـ أيضاً ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والحسد ؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » رواه أبو داوود .

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ؛ تحلق الدِّين » رواه البيهقي وغيره بإسناد جيد .

وأما حب الجاه : فقال الله تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله . . لأبرَّه » رواه مسلم .

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال

والشرف لدِينه » رواه الترمذي وصححه ، وابن حِبان في « صحيحه » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم ؛ أَحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » رواه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وأما حب الدنيا : فقال الله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً . . إلا نقص من درجته في الآخرة عند الله وإن كان على الله كريماً » رواه ابن أبي الدنيا وإسناده جيد .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ؛ إن ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهى » رواه الطبراني .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قضىٰ نهمته في الدنيا . . حيل بينه وبين شهوته في الآخرة ، ومن صبر على القوت الشديد . . أسكنه الله من الفردوس حيث شاء » رواه الطبراني .

وأما الكِبْرُ والعُجْب : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

ومعنىٰ (تصعِّر خدك) : تميله وتعرض به عن الناس تيهاً وتكبراً عليهم .

و(المرح) : التبختر في المشي بطراً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا ينظر الله يوم القيامة إلىٰ من جر إزاره بطراً » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : العزُّ إزاري ، والكبرياء ردائي ؛ فمن نازعني فيهما . . عذبته بناري » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر » رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من تعظم في نفسه واختال في مشيته . . لقي الله تعالىٰ وهو عليه غضبان » رواه الطبراني برواة « الصحيح » ، والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به » رواه البخاري .

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الرجل يَذْهَبُ بنفسه حتىٰ يُكْتَبَ في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وأما الرياء : فقال الله تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سَمَّع . . سَمَّع الله به ، ومن يرائي . . يرائي الله به »[1] رواه البخاري ومسلم .

---

(١) قال النووي رحمه الله : (معنىٰ هـٰذا الحديث : من راءىٰ بعلمه وسمَّعه للناس ؛ ليكرموه ويعظموه . . فقد سمَّع الله به الناسَ وفضحه يوم القيامة ؛ لكونه فعله رياءً وسمعة لا لأجل الله) .

وقال الزمخشري : (السمعةُ ، أن يُسْمِعَ الناسَ عملَه ويُنَوِّهَ به على سبيل الرياء ، يعني : من نَوَّهَ بعمله رياء وسمعة . . نَوَّهَ الله بريائه وتسميعه ، وقرع به أسماع خلقه ، فتعارفوه وأشهروه بذلك ، فيفتضح) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ إني أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يُرَىٰ موطني ؟ فلم يرد عليه رسول صلى الله عليه وسلم حتىٰ نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ رواه الحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط البخاري ومسلم .

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَشِّر هـٰذه الأمة بالسَّناء[1] والرفعة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا . . لم يكن له في الآخرة من نصيب » رواه الإمام أحمد وابن حِبان في « صحيحه » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري . . فأنا منه بريء ، وهو للذي أشرك » رواه ابن ماجه ورواته ثقات ، وابن خزيمة في « صحيحه » .

* * *

---

(١) السناء : ارتفاع المنزلة والقدر عند الله تعالىٰ .

وَبِـالْمَحْمُـودَةِ الْعَشْـرِ اللَّـوَاتِـي حَـوَاهَـا مِنْـهُ رُبْـعُ الْمُنْجِيَـاتِ
تَحَـلَّ مُشَمِّـراً سَـاقَ اجْتِهَـادِ

وقد سبق أن الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ حصرها في « الأربعين الأصل » مختصر « الإحياء » في : التوبة ، والخوف ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والرضا ، وذكر الموت .

وأما التوبة : فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن عبداً أصاب ذنباً ، فقال : يا رب ؛ إني أذنبت ذنباً ، فاغفر لي ، فقال ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم أصاب ذنباً آخر فقال : يا رب ؛ إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي ، فقال ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فغفر له ، ثم أصاب ذنباً آخر فقال : يا رب ؛ إني أذنبت ذنباً آخر فاغفرهُ لي ، فقال ربه : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدي ، فليعمل ما شاء » أي : كلما تاب . . تبت عليه . رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالىٰ يبسط يده بالليل ؛ ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ؛ ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوّابون » رواه الترمذي وابن ماجه ، والحاكم وصححه .

وأما الخوف : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

هـٰذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ فخرّ فتىً مغشياً عليه ؛ فوضع النبيُّ صلى الله عليه وسلم يده علىٰ فؤاده فقال : « يا فتى ؛ قل : لا إلـه إلا الله » فقالها ، فبشَّره بالجنة ، فقال أصحابه : أمن بيننا يا رسول الله ؟ قال : « أوما سمعتم قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ؟ » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ أنه قال : « وعزتي وجلالي لا أجمع علىٰ عبدي خوفين ولا أمنين : إذا خافني في الدنيا . . أمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا . . أخفته يوم القيامة » رواه ابن حِبان في « صحيحه » .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴾ ثم قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد علىٰ كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل علىٰ ظهرها تقول : عمل كذا وكذا ، في يوم كذا وكذا فهـٰذه أخبارها » رواه الترمذي وصححه .

وأما الزهد : فقد سبق في الباب الثاني .

وأما الصبر : فقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أُعطِيَ أحد عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر » رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا هم ولا حزن ولا أذىً ولا غم ، حتى الشوكة يُشاكُها . . إلا كفَّر الله بها من خطاياه » رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » رواه البخاري ومسلم .

وأما الشكر : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتىٰ تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هٰذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » رواه البخاري ومسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله شاكر يحب الشاكرين » رواه الطبراني .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التحدث بنعمة الله شكر ، ومن لم يشكر القليل . . لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس . . لم يشكر الله عز وجل » رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في رواية بإسنادٍ لا بأس به .

وعن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشكر الناس لله تبارك وتعالىٰ أشكرهم للناس » رواه الإمام أحمد ورواته ثقات .

وأما الإخلاص : فقال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوىٰ ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها . . فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه » رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ صوركم ، ولٰكن ينظر إلىٰ قلوبكم » رواه مسلم .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخلص دِينَك يكفك العمل القليل » رواه الحاكم وصححه .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه » رواه أبو داوود والنسائي بإسناد جيد .

وأما التوكل : فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله . رواه البخاري .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : نظرت إلىٰ أقدام المشركين ونحن في الغار وهم علىٰ رؤوسنا فقلت : يا رسول الله ؛ لو أن أحدهم نظر تحت قدميه . . لأبصرنا! فقال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » رواه البخاري ومسلم .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله . . لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[1] رواه الترمذي وحسنه .

وأما المحبة : فقال الله تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . . . الآية .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ قال : من عادىٰ لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته . . كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ،

---

(١) أي : تغدو صباحاً وهي جياع ، وترجع مساءً وهي ممتلئة البطون .

ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني . . لأعطينَّه ، ولئن استعاذني . . لأعيذنه » رواه البخاري .

وعنه ـ أيضاً ـ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله العبد . . نادىٰ جبريل : إن الله يحب فلاناً ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ متى الساعة ؟ قال : « وما أعددتَ لها ؟ » قال : ما أعددتُ لها من كثير صوم ولا صلاة ، إلاّ أني أحب الله ورسوله قال : « إنك مع من أحببت » ؛ قال أنس : قلنا : ونحن كذلك يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، ففرحنا يومئذٍ فرحاً شديداً . رواه البخاري ومسلم .

وعنه ـ أيضاً ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد الإيمان كما يكره أن يُقذف في النار » رواه البخاري ومسلم .

وأما الرضا بالقضاء : فقال الله تعالىٰ : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا أحب قوماً . . ابتلاهم ، فمن رضي . . فله الرضا ، ومن سخط . . فله السخط » رواه ابن ماجه ، والترمذي وحسنه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصيب بمصيبة في ماله أو في نفسه فكتمها ولم يشكها إلى الناس . . كان حقاً على الله أن يغفر له » رواه الطبراني ، ولا بأس بإسناده .

وعن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : « اللهم ؛ من آمن بك وشهد أني رسولك . . فحبب إليه لقاءك ، وسهل عليه قضاءك ، وأقلل له من الدنيا ، ومن لم يؤمن بك ويشهد أني رسولك . . فلا تحبب إليه لقاءك ، ولا تسهل عليه قضاءك ، وأكثِر له من الدنيا » رواه ابن حِبان في « صحيحه » .

وأما ذكر الموت : فقال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات ـ يعني الموت ـ فإنه ما ذَكَره أحد في ضيق من العيش . . إلا وسعه الله ، ولا في سعة . . إلا ضيقها » رواه ابن حبان في « صحيحه » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأحزم الناس يا رسول الله ؟ قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم استعداداً له ، أولـئك الأكياس ؛ ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » رواه الطبراني بإسناد حسن .

❊ ❊ ❊

هُنَالِكَ تَرْتَقِي كَمْ مِنْ مَقَامِ بِأَحْوَالٍ سَنِيَّاتٍ جِسَامِ
مِنَ ٱلتَّقْوَىٰ وَتَحْظَىٰ بِٱلْمُرَادِ

أي : إذا وُفِّقتَ بفضل الله إلىٰ ما سبق من اجتناب ما ينبغي اجتنابه ، واكتساب ما يطلب اكتسابه . . فقد ارتقيتَ مقامات التقوىٰ ، ويرجىٰ أن تثمر لك تلك المقامات أحوالاً (**سنيات**) : شريفة (**جساماً**) أي : عظيمة ، وتنال من الله مرادك ومطلوبك من القرب إليه ؛ لأن ما سبق هو المجاهدة ، وعند إحكامها تظهر ثمراتها ، وهي الهداية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ .

ومعنىٰ (**من التقوى**) أي : إن المقامات كلها مقامات التقوىٰ ، والأحوال ثمراتها .

وقد سبقت الإشارة أول الكتاب إلىٰ أن جميع المقامات مندرجة في اسم (التقوى) ، وقريبة من معنىٰ (التقوى) لفظة (البر) ، إلا أن دلالة (البر) بالمطابقة علىٰ فعل المأمورات الشرعية كلها ، وعلىٰ ترك المنهيات بالملازمة ؛ و(التقوى) بالعكس .

ولِتَقَارُبِ معناهما فسَّر الله إحداهما بالأخرىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ وقوله : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ . . .﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن من عمل بهـٰذه الآية . . فقد استكمل الإيمان .

قال العلامة ناصر الدين البيضاوي ـ رحمه الله ـ في « تفسيره » : (وذلك لأن جميع الكمالات الإنسانية مندرجة في هـٰذه الآية الكريمة صريحاً وضمناً ؛ لأنها وإن كثرت واتسعت . . فهي منحصرة في ثلاثة أقسام ، وهي :

الاعتقادات الدينية ، وحسن المعاشرة مع الخلق ، وتهـٰذيب أخلاق النفس .

وقد أشير إلى القسم الأول بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ .

وإلى الثاني بقوله تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ .

وإلى الثالث بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي : أهل هـٰذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم ؛ لأن المنافق لا تساعده نفسه بظواهر من الأعمال علىٰ جميع ذلك ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ أي : الكاملون في التقوىٰ ، ومن قام ببعض هـٰذه الأوصاف دون البعض . . لم يكمل في مقامات التقوىٰ بعد .

واعلم : أن مقامات السائرين إلى الله تعالىٰ وإن كثرت . . فهي منحصرة في ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : مرتبة المؤمنين ، والإيمان هو تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به ، وتلقي ذلك بالقبول التام ، وذلك واجب على الخاص والعام ، فلا يُسمَّىٰ مؤمناً من لم يكن كذلك ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

وكمال هـٰذه المرتبة بمراعاة آدابها ، وهي العمل بمقتضىٰ ما أمر به الشارع ، أو نهىٰ عنه فيما بطن وظهر ، حتىٰ يحصل له مقام الاستقامة ، فهنالك يُسمَّىٰ مؤمناً حقاً .

المرتبة الثانية : مرتبة العلماء ، وهي تحصيل الدليل والبرهان علىٰ ما وجب به الإيمان من أصل أو فرع .

والعلم : صِفَة تنكشف بها حقائق الأشياء انكشافاً تاماً ، لا يحتمل

النقيض ، ولا يقبل التشكيك والارتياب عند اعتراض الشبه ، وذلك فرض كفاية على الخاص دون العام .

وكمال هٰذه المرتبة بمراعاة آدابها ، وهي التخلق بآداب الكتاب والسنة في جميع الحركات والسكنات ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلىٰ دار الخلود ، فهنالك يُسمَّىٰ عالماً ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ .

المرتبة الثالثة : مرتبة العارفين أهل الكشف والعيان ، وذلك غير واجب علىٰ أحد ؛ إذ ليس داخلاً تحت الكسب والاختيار ، وإنما هو بحسب المواهب وسبق الأقدار .

نعم ؛ هو رزق مقسوم ، يحصل بسبب وغير سبب ، وبطلب وغير طلب ، لٰكن الحكمة اقتضت التوصل إلى المسببات بأسبابها ، فالمجاهدة وإن لم تكن شرطاً في تحصيل هٰذه المرتبة . . فهي سبب موصل إليها غالباً كالتسبب لتحصيل الرزق ، فبالحركات تنزل البركات ، وبالهز يسقط الثمر! وأمُّ العجز أبداً عقيم : ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ .

فهٰذه المرتبة وإن كانت متقدمة علىٰ ما قبلها . . فهما سلَّم يرتقىٰ منهما إليها ، ومن ضيع الأُصول . . حُرِم الوصول ، فطلب الشيء من غير بابه محال ، كما أن السطح بغير سلم لا يُنال ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

* * *

فَصۡلٌ فِي الإِهۡدَاءِ

فَخُـذْ غَـرَّاءَ مُحْكَمَـةَ ٱلْقَـوَافِـي هَـدِيَّـةَ وَاصِـفٍ لاَ ذِي ٱتِّصَـافِ
وَلَـٰكِـنْ يَـرْتَجِـيْ فَضْـلَ ٱلْجَـوَادِ

لما كان الفرس الأغر المشهور بالحسن بين الخيل يعرفه كل أحد . . قيل لكل شيء معلوم الحسن مشهور الفضل : أغر .

و(**الإحكام**) : الإتقان .

و(**القوافي**) : جمع قافية ، وهي في الشعر علىٰ مذهب الأخفش : الكلمة الأخيرة من كل بيت ، وعلىٰ مذهب الخليل ـ وهو الأصح ـ : ما يلزم دورانه في كل بيت من حرف أو حركة .

فكلمة (**الجواد**) هي القافية عند الأخفش ، والدال المكسورة والألف والفتحة التي قبلها وهي فتحة الواو ، مجموع ذلك هو القافية عند الخليل ؛ لأن الدال يسمىٰ عندهم : (الروي) ، فلا بد من تكراره في كل بيت هنا ، فلو اختلف ذلك في شعرٍ بأن جُعل مثلاً بيتٌ آخِرُهُ دال ، وبيتٌ آخَرُ آخِرُهُ حرفٌ آخَر . . كان ذلك خَطَأً وعيباً فاحشاً ، ويُسمَّىٰ عندهم : (الإكفاء) من قولهم : أكفأتُ الإناء إذا قلبته علىٰ وجهه .

وكسرة الدال لازمة أيضاً ، فلو اختلفت حركة الروي بأن كان آخر القوافي حرفاً مكسوراً ، ثم جاء في الشعر بيت إعرابه النصب أو الرفع . . كان لحناً وعيباً فاحشاً يُسمَّىٰ : (الإقواء) ، من قولهم : أقوى المنزلُ إذا خلا من أهله .

وكذلك الألف التي قبل الدال لا بدَّ من تكرارها في كل بيت مما كان من أمثال هـٰذه القصيدة ، ويسمىٰ ذلك الحرف ـ أعني الحرف الذي يكون قبل الروي إذا كان من حروف المد واللين ـ : (ردفاً) وتُسمَّى القافية : (مُرْدفة) فلو اختلف ذلك ، بأن كانت القصيدة مردفة ـ أي : قبل رويِّها ألف مفتوح

ما قبلها ، أو واو مضموم ما قبلها ، أو ياء مكسور ما قبلها ـ ثم جيء ببيت لا رِدْف فيه ، كأن قيل مثلاً : (الجواد) ثم قيل في بيت آخر : (الوعد) ونحو ذلك . . كان عيباً يسمىٰ : (السناد) وذلك معروف في موضعه من علم القوافي والعَروض .

وقصيدتنا هـٰذه من مقطوف[1] بحر الوافر من العروض . ووزن كل سجعة منها هـٰكذا : مفاعيلن مفاعيلن فَعُولُنْ .

ومثال تقطيعه أن تقول مثلاً في قوله :

فخُـــذْ غــرَّاء مُحكمـــةَ القـــوافِـــي

البيت وزنه :

فخذ غَرْرَا ـ ءَ مُحْكَمَةَ ال ـ قوافي هَدِيْيَةَ وَا ـ صِفِنْ لاَ ذِي اتْ ـ تصافيْ

مفــاعيلــن ـ مفــاعيلــن ـ فَعُــولُــنْ مفــاعيلــن ـ مفــاعيلــن ـ فَعُــولُــنْ

ولا كنْ يَرْ ـ تَجي فضْلَ ال ـ جَوادِي

مفاعيلن ـ مفاعيلن ـ فَعُولُنْ

وقس علىٰ ذلك .

وأهل العروض يراعون اللفظ في عدد الحروف لا الخط ، ولـٰكن كل بحر يدخله الزِّحاف الجائز ، ومن جملة زحاف هـٰذا البحر (العَصْب) بالعين والصاد المهملتين ، وهو تحريك الخامس الساكن[2] وبذلك يصير : (مفاعيلن) ، والثاني وزن (ءَ مُحْكَمَةَ الْ) : (مُفاعَلَتُنْ) وهـٰذا معروف أيضاً في موضعه .

---

(١) في النسخ : (مقطوع) ، ولعل الصواب ما أثبت ، **والقطف** : هو الحذف مع العصب ؛ أي : ذهاب السبب الخفيف وهو (تن) في (مفاعلتن) الثالثة ، مع إسكان الخامس وهو اللام فيها فتصير (مفاعل) فتنتقل إلىٰ (فعولن) .

(٢) صوابه تسكين الخامس المتحرك ، وهو اللام من « مفاعَلَتن » فتصير « مفاعلْتن » ، وبذلك يفهم الكلام .

و(**الهدية**) : ما يرسل به إلىٰ شخص إتحافاً له وإكراماً ؛ وهي مندوب إليها في الشرع .

وأفضل ما يهديه المؤمن لأخيه المؤمن كلمةُ حكمة ينتفع بها ؛ لأن الهدية تشرُف بشرف الشيء المهدىٰ .

وقد سبق أن العلم والحكمة أفضل الأشياء ، فإهداؤه أفضل الهدايا : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ الآية .

* * *

حَـوَتْ حِكَمـاً وَأَحْكَـامـاً وَعِلْمَـا ... وَمَـوْعِظَـةً وَآدَابـاً وَنَظْمَـا
تَرُوقُ ٱلسَّمْعَ مِنْ حَضَرٍ وَبادِي

(تروق) أي : تعجب .

وقال العلماء : يقبُح بالمرء أن يُثنيَ علىٰ نفسه ، وما ينسب إليه من قول أو فعل أو وصف ، إلا إذا كان القصد التحدثَ بنعمة الله . . فذلك شكر ، أو كان القصد تعريف الحق لمن جهله . . فذلك إرشاد ونصح ؛ كقول يوسف عليه السلام : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ لما علم أنهم لا يصلون إلىٰ تلك الخيرات الكثيرة إلا بتعريفه إياهم بجلالة قدره . . نبههم علىٰ ذلك ، وكقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفَّع ، وأول من يَقرع باب الجنة فيُفتَح له » ، وأنه صاحب الشفاعة العظمىٰ ، إلىٰ غير ذلك من الكرامات التي يتقرب العباد إلى الله باعتقادها دِيناً ، ولا يصلون إليها إلا بإخباره صلى الله عليه وسلم بذلك .

ولما كان الدين النصيحة . . كان من تمامها التنبيه علىٰ ما احتوت عليه هـٰذه القصيدة التي أُهدِيَت إلى الإخوان ؛ لإرشادهم إلىٰ ما ينفعهم في دنياهم ومعادهم .

والمراد بـ(**الحِكَم**) ما يجري مجرىٰ ضربِ الأمثال ؛ لتستفيد به النفس قوة في الأعمال والأحوال ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة . . . » ، « ما ملأ ابن آدم وعاء . . . » ، « فقيه واحد . . . » ، « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس . . . » .

والمراد بـ(**الأحكام**) ما يترتب على العلم به التكليف بالأعمال ؛ لتستفيد به النفس التقرب إلى الله تعالىٰ عند الامتثال ، كالطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتلاوة ، والذكر .

والمراد بـ(**العلم**) ما كان من العقائد وأصول الدين ؛ لتستفيد به النفس قوة الإيمان ، وكمال اليقين ، والإيمان بالله تعالىٰ وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدَر خيره وشره ، واعتقاد فضل الأربعة الخلفاء ـ رضي الله عنهم ـ وترتيبهم ، وحب سائر الصحابة واحترامهم .

والمراد بـ(**الآداب**) ما يتعامل به في المعاشرة ؛ ليُتَوَصَّل به إلىٰ شرف الكرامة في الدنيا والآخرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « ازهد في الدنيا . . . » ، « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن . . . » ، « ثلاث من كن فيه . . . » ، « آية المنافق ثلاث . . . » ، « ثلاث مهلكات . . . » ، « حق المسلم على المسلم ست . . . » ، « فآت ذا القربىٰ حقه . . . » ، « سبعة يظلهم الله . . . » .

والمراد بـ(**الموعظة**) ما كان من قبيل الترهيب والتهديد ؛ ليقمع النفس عن هواها بخوف الزجر والوعيد ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد . . . » ، « إذا حدث في الناس تسعة أشياء . . . » وما في المقدمة من الاتعاظ بالشَّيب والموت ، ونحو ذلك مما سبق ذكرهُ من جميع ذلك مُجمَلاً ومفصلاً .

❊ ❊ ❊

يُـؤَمِّـلُ مِـنْ ذَوِي ٱلشِّيَـمِ ٱلْكِـرامِ   قَبُــولاً بِــٱحْتِشَــامٍ وَٱحْتِــرَامِ
وَصَفْحـاً عَـنْ مُنَـاقَشَـةِ ٱلنُّقَـادِ

(يؤمِّل) أي : يرجو (الشيم) : الطبائع .

ومن شيم الكرام قبول الهدية والمكافأة عليها ولو بالدعاء ، ومعرفة الفضل لأهله ، والإغضاء عن المعايب ، والصفح عن تطلُّب المثالب ؛ لأن البشَر وإن بلغ النهاية في الكمال . . فلا يكاد يسلم من نقص ، وإنما الكمال المطلق لله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

* * *

فَصلٌ في الدُّعَاءِ

فَيَا مَنْ مَنَّ بِٱلصَّفْحِ ٱلْجَمِيلِ   أَدِمْ كَرَماً وَسَامِحْ بِٱلْقَبُولِ
لأَعْمَالٍ رَوَائِحَ أَوْ غَوَادِي
إِلَـٰهِي إِغْفِرِ ٱلذَّنْبَ ٱلْعَظِيمَا   بِفَضْلِكَ وَٱهْدِنَا ٱلسَّنَنَ ٱلْقَوِيمَا
وَلاَ تُشْمِتْ بِنَا يَوْمَ ٱلتَّنَادِي
وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِ ٱلْمُسْلِمِينَا   وَصَيِّرْ قُطْرَنَا بَلَداً أَمِينَا
وَعُمَّ ٱلأَمْنَ فِي كُلِّ ٱلْبِلاَدِ

المراد بـ(**الأعمال الروائح**) : الماضية ، و(**الغوادي**) : المستقبلة .

و(**السنن**) بفتح السين : الطريق . وقد جاء في فضل الدعاء آيات وأخبار كثيرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ . . . الآية .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة » رواه أبو داوود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالىٰ بدعوة . . إلا آتاه إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعة رحم » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عائشة رضي الله عنها . قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَستَحِب الجوامع من الدعاء ، ويَدَعُ ما سوىٰ ذلك) رواه أبو داوود بإسناد جيد .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكّل كلما دعا لأخيه بخير . . قال الملك الموَكَّلُ به : آمين ، ولك بِمِثْلٍ » رواه مسلم .

* * *

فَصلٌ في الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم

وَصَلِّ عَلَى ٱلرَّسُولِ بِغَيْرِ لَبْسٍ	إِلَى ٱلثَّقَلَيْنِ مِنْ جِنٍّ وَإِنْسِ
صَلاةً لاَ تَؤُولُ إِلَىٰ نَفَادِ	

(**اللبس**) بفتح اللام : الشك ، و(**النفاد**) : الانقضاء .

وقد جاء أيضاً في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أدلة كثيرة :

قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما : أنه سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : « من صلىٰ عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً » رواه مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَوْلى الناسِ بي يومَ القيامة أكثرُهم عليَّ صلاة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَغِمَ أنفُ عبدٍ ذُكِرتُ عنده ولم يصل عليَّ » رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وإنما خصَّ في النظم رسالته صلى الله عليه وسلم بالجن والإنس ؛ لأن الملائكة عليهم السلام معصومون عن المعصية مجبولون على الطاعة ، يسبحون الليل والنهار لا يَفتُرُون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فلا يحتاجون إلىٰ رسول يأتيهم من البشر ، بل هم رسل الله إلىٰ رسله من البشر .

وقد نقل الشيخ جلال الدين المحلي ، والشيخ شمس الدين الجوجري عن

الإمـام فخـر الـديـن الـرازي ـ رحمـه الله تعـالـىٰ ـ وغيـره الإجمـاع علـىٰ أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يُرسل إلى الملائكة ، فمن زعم خلاف ذلك . . فقد خالف الإجماع[1] .

* * *

(١) وقد تبعهم في ذلك العلامة الرملي في « شرح المنهاج » وخالفهم العلامة أحمد بن حجر الهيتمي تبعاً للسبكي ، وعبارته في « الفتح المبين شرح الأربعين » : (وكذا من الملائكة بالنسبة لنبينا أيضاً ؛ لأنه مرسل إليهم عند جماعة من أئمتنا المحققين ؛ كما يدل عليه خبر مسلم : « وأرسلت إلى الخلق كافة » بل أخذ بعض المحققين من أئمتنا بعمومه حتى للجمادات بأن ركب فيها عقلٌ حتى آمنت به ، وقول الفخر الرازي في تفسير قوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ـ الشامل لهم ـ : أجْمَعْنَا على أن المراد الإنس والجن دون الملائكة . مردود ، أو مراد به إجماع الخصمين ؛ إذ (أجمعنا) إنما يقال لذلك غالباً ، لا إجماع كل الأمة ، على أن هذا لا يؤخذ من مثل الرازي بل من مثل ابن المنذر وابن جرير . ثم قال : فإن قلت : تكليف الملائكة من أصله مختلف فيه . قلت : الحق تكليفهم بالطاعات العملية ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ بخلاف نحو الإيمان ؛ لأنه ضروري فيهم فالتكليف به تحصيل الحاصل وهو محال . اهـ وللعلامة الإمام السيوطي رسالة سماها « تزيين الأرائك في إرسال النبي إلى الملائكة » فلينظرها من أراد التوسع .

أَجَلُّ ٱلرُّسْلِ مَنْزِلَةً وَقَدْرَا وَرَحْمَةِ رَبِّنَا دُنْيَا وَأُخْرَىٰ
لِكُلِّ ٱلْعَالَمِيْنَ بِلاَ عِنَادِ

أما كونه صلى الله عليه وسلم أجل المرسلين وأفضلهم وأكرمهم على الله : فذلك بالإجماع .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون ممَّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخِرين . . . » ثم ذكر حديث الشفاعة . رواه البخاري ومسلم .

وإذا ثبت أنه سيد البشر بلاَ خلاف . . ثبت أيضاً علىٰ مذهب الجمهور من أهل السنة ـ القائلين بأن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ـ كونُه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين ، بل قد نُقل عن الإمام فخر الدين الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره من المحققين : أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق اتفاقاً ، وأنه مستثنىً من الخلاف في التفضيل بين الملائكة والبشر .

وأما كونه صلى الله عليه وسلم رحمة لكل العالمين من الملائكة والإنس والجن أجمعين : فلقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولأنه أول ما خلق الله سبحانه نورَه صلى الله عليه وسلم ، وجعله علة وسبباً لسائر المخلوقات ، فلولاه لم يُخلَق ملك ولا بشر ، ولم توجد نبوة ولا رسالة ، ولا عبادة ولا علم ، ولا غير ذلك من المقامات العلية ، والأحوال السنية .

هٰذا في الأزل ، ثم بَعثُه صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين بإنقاذهم من الضلالة إلى الهدىٰ ، ويوم القيامة يكون أيضاً بالشفاعة رحمة للعالمين في الموقف وغير ذلك صلى الله وسلم عليه ، وزاده فضلاً وتشريفاً لديه .

❊ ❊ ❊

وَكُــلِّ ٱلآلِ وَٱلصَّحْــبِ ٱلْكِــرَامِ فَشَــرِّفْ بِــٱلتَّحِيَّــةِ وَٱلسَّــلاَمِ
وَكُــلٌّ مُهْتَــدٍ مِنْهُــمْ وَهَــادِي

(**آله صلى الله عليه وسلم**) : هم أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وهم عند الجمهور : من لا تحل له الصدقة من بني هاشم والمطّلِب بني عبد مناف بن قُصَيّ .

وقد وردت الأدلة بوجوب حبهم واحترامهم والتحذير من احتقارهم :

قال الله تعالىٰ : ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم في حديث : « أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » كررها ثلاثاً . رواه مسلم وغيره .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أحِبُّوا أهلَ بيتي بِحُبي » أخرجه الترمذي وحسَّنه ، والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط البخاري ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم للعباس رضي الله عنه : « والذي نفسي بيده لا يدخل الإيمانُ قلبَ رجل حتىٰ يحبكم لله ولرسوله » رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه .

و(**أصحابه صلى الله عليه وسلم**) : كل مؤمن اجتمع به صلى الله عليه وسلم ولو ساعة فهو صحابي .

وهم طبقات : أفضلهم الخلفاء الأربعة كما سبق ، ثم تمام العشرة ، ثم بقية أهل بدر ، ثم أهل أُحد ، ثم أهل بيعة الرضوان .

وأجمع أهل السنة علىٰ أنهم ـ رضي الله عنهم ـ عدول بأجمعهم ، وأن كلاً منهم علىٰ هُدىً من ربه ؛ لأن الله سبحانه زكّاهم وأثنىٰ عليهم وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولأنهم هم الذين نقلوا إلىٰ كافة الأمة القرآنَ والحديثَ ، وبهم عُرف الإسلام والإيمان ، والصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك من قواعد الدين وشرائع الأحكام .

ومتىٰ تطرَّق القدح إلىٰ عدالتهم ورُدَّت شهادتهم ، وانخرمت عدالتهم . . أفضىٰ ذلك إلىٰ هدم قواعد الدين من أصله ، ويأبى الله إلا أن يُظْهِرَ دينَهُ على الدين كله .

وقد سبق ذكر طرف من ثناء الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم .

اللهم ؛ ارض عنهم أجمعين ، وعن التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ، وعنا وعن والدينا وعن مشايخنا في الدين ، وعن سائر المسلمين . آمين ، آمين[١] .

❊ ❊ ❊

(١) جاء في خاتمة النسخة (أ) : (تم الشرح المبارك بحمد الله تعالىٰ وحسن توفيقه ، عشية الأحد « ٣ » في شهر محرم عاشوراء أول شهور سنة « ١٢٥٦هـ » ستة وخمسين ومئتين وألف هجرية ، علىٰ يد ماد اليدين عوض بن سالم بن زين ، عفا الله عنه . والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله علىٰ خير خلقه سيدنا محمد ، وآله وصحبه وسلم) .

وجاء في خاتمة النسخة (ب) : (تم الكتاب بعون الملك الوهاب ، والله الموفق للصواب ، وكان الفراغ بكرة الخميس « ٧ » في محرم عام « ١٣٠٦ » من هجرة من خلقه الله علىٰ أكمل وصف . وفقنا الله وإياكم ، آمين . وصلى الله عليه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، رحم الله من قرأه) .

مُحْتَوى الكِتَابِ

* * *

